ألبير بايه

أخلاق الإنجيل

دراسة سوسيولوجية

ترجمة: الدكتور عادل العوا



المؤلِف

أستاذ علم الاجتماع في جامعة باريز (السوربون)

ولد (البير بايه) Bayet.A في مدينة (ليون) سنة ١٨٨٠ ، والتحق بمعهد المعلمين العالي سنة ١٨٩٨ واعتنق مبادئ المدرسة الاجتماعية الفرنسية، وانكبّ بوجه خاص، على دراسة الأخلاق من الناحية العلمية، وبدأ تدريسه الجامعي في (السوربون)، وكان تعليمه ناجحاً جذّاباً. ولم يتوان عن نصرة أفكاره بالعمل السياسي. وتولى رئاسة «عصبة حقوق الإنسان» و«عصبة التعليم» و«الاتحاد العقلي» و«اتحاد المفكرين المناوئين للفاشية». وانضم في أثناء احتلال الألمان فرنسة إلى حركة المقاومة، وأصبح رئيس «اتحاد الصحافة السرّية». ولما وضعت الحرب أوزارها عُيِّن سنة ١٩٤٥ عضواً في «الجمعية الاستشارية» مندوباً عن حركة المقاومة. ولما أُسندت إليه رئاسة «الاتحاد الوطني للصحافة الفرنسية» لم يشأ أن يتقدم إلى الانتخابات العامة ليتسنى له التفرغ للتدريس في «السوربون» وإلى متابعة بحوثه في الأخلاق وعلم الاجتماع.

تصدير(*)

لعل الظاهرة الدينية، بالمعنى الدقيق، هي الظاهرة الفذّة في الثقافة الإنسانية التي مابرحت تحظى باهتمام الباحثين كافة، في الأزمنة كلها، سواء لدى مَن يؤيد أسسها وتعاليمها، أو يرتاب في هذه الأسس والتعاليم، أو ينكرها ويتنكر لأربابها فيكافحهم ويكافحها. وكثيراً ما نشاهد مسعى الإستعاضة عن الديانة بالمعنى التقليدي بديانة من طراز عقائدي (ايديولوجي) أو فكري أو علمي أو عاطفي، كالدين الطبيعي المؤلَّه أو غير المؤلّه، أو الدين الوضعي ومثلاً عبادة الإنسانية متمثلة في إمرأة ممجَّدة، كما رأى العالم الاجتماعي الفرنسي (أوغست كونت)، أو عبادة المجتمع على نحو ما حسب تلميذه (اميل دوركهايم)...

وهذا الاهتمام بالبحث في الظاهرة الدينية يؤدي إلى تنوع وجهات النظر، ويجري، أعمق أعمق ما يجري، في مساق أحد منزعين: أولهما المنزع الاعتقادي، وهو بحث المؤمنين بديانة في شؤون ديانتهم؛ والآخر المنزع العلمي الوضعي، وهو يسعى إلى الإحاطة بالظاهرة الدينية معتنقاً الاهتمام بالجانب

(*) تنويه: جميع الهوامش المرفقة أرقامها بحرف (م) تعود للمترجم وهي بمثابة معجم يتضمن شروحات وتعريفات عن معظم الأسماء والتيارات الواردة في الكتاب وقد أفرد لها باب مستقل في آخر الكتاب تحت اسم (هوامش للمترجم). وأما بقية الهوامش الأخرى التي لايوجد إلى جانبها حرف (م) فهي للمؤلف وتحيل إلى المراجع والمصادر، في حين ان هوامش المؤلف الأخرى التي تتضمن شروحات فقد ثُبتت في نفس الصفحة التي وردت فيها وأشير إليها بـ (*) . (الناشر)

النفسي أو الجانب التاريخي أو الجانب الاقتصادي أو المعرفي. وقد أنتج هذا المسعى الأخير الموصول على حداثته، مايسمى تاريخ الأديان المقارن وعلم الأديان، كما أنتج في الوقت ذاته بحوث علماء النفس والتحليل النفسي وعلماء الاجتماع والتحليل الموضوعي والفنومنولوجي والفلسفي.

وفي منحى الدراسة السوسيولوجية للظاهرة الدينية المتمثلة في الديانة المسيحية المبجّلة وضع الأستاذ (ألبير بايه)، أستاذ علم الاجتماع والأخلاق في جامعة باريز (السوربون)، كتابه عن «أخلاق الإنجيل»، وفيه يعرض من وجهة نظر علم الاجتماع التاريخي رأيه في أصول «العهد الجديد» ودقائق أفكاره وتعاليمه الأخلاقية، وهي بوجه الإجمال تتوخى السمو بإنسانية الإنسان، وتلتقي بذلك مع سائر الجهود التي تمخضت عنها ديانات أخرى وشتى مراحل تطور الفكر البشري على صعيد إبراز القيم الأخلاقية «الخالدة» وإنضاجها. وقد سبق للمترجم أن نقل إلى اللغة العربية محاضرات عن «بنية الفكر الديني في الإسلام»[*]، وألمح إلى بعض الجهود التي يبذلها العلماء المعاصرون لتحليل الظاهرة الدينية تحليلاً علمياً موضوعياً لايمس بحال من الأحوال حق أي مؤمن في المثابرة على إجلال موضوع إيمانه وتعاليم عقيدته. وفي هذا الإطار وحده يرجو مترجم «أخلاق الإنجيل» أن ينظر القرّاء جميعاً إلى جهده الرامي حصراً إلى إتاحة الفرصة لمن شاء منهم أن يلمّ بلبنة صغيرة أخرى من صرح المعرفة العالمية الراهنة الوسيع[**].

(*) ـ مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩ ـ انظر أيضاً: علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي «بيروت ـ ١٩٧٧».

(**) للمؤلف بحوث ودراسات كثيرة منها: تاريخ الأخلاق في فرنسة ـ الأخلاق العلمية ـ فكرة الخير ـ الانتحار والأخلاق ـ علم الحوادث الأخلاقية ـ الأخلاق العلمانية وخصومها ـ أخلاق الفضيلة ـ الفتوى المسيحية المعاصرة ـ دفاع عن العلم (الترجمة العربية بقلم د. عثمان أمين) ـ تاريخ إعلان حقوق الإنسان (الترجمة العربية بقلم د. محمد مندور) ـ تاريخ الفكر الحر (الترجمة العربية بقلم بهيج عثمان).

الفصل الأول

هل توجد أخلاق إنجيلية

المشكلة: ١ ـ يعلن المؤلفون كافة وجود أخلاق إنجيلية، ولكنهم لايستطيعون الاتفاق على مضمونها. ٢ ـ حلّ ممكن: إن الإنجيل لاينطوي على مذهب أخلاقي واحد، بل على مذاهب أخلاقية عدة.

هل توجد أخلاق إنجيلية؟

إننا نتردد في طرح السؤال. أليس الأمر مبرماً سلفاً وذاكرة الناشئين تحفل كلها بما يوحي به اسم (الإنجيل) وحده من أثمن ما يذخر به فكرهم؟ وأي حجاج يعدل ذاك السحر؟ هاهي ذي الآيات الرنّانة التي تدين النفاق والثورة والقسوة. وهذه هي كلمات المحبة والغفران، كلمات بسيطة، وبالرغم من ذلك فإن جمالها يبزّ كل ما يمكن أن تزهو به الفلسفة في أجمل حلّلها. إليكم هذه الطائفة من الأماثيل التي تضحك وتزجر وتبكي: ثوب الطفل الضال، مصباح (البتول) المصون، (السامري) الذي ينحني ليصبَّ الزيت والخمر. فلمَ نطلب المزيد، وماذا يستطيع النقد أن يفعل هنا، وهو لم يكن سوى لعب رهيب سري؟ أجل، إن أخلاق الإنجيل موجودة. وقد بجّلتها القرون: وهي اليوم، شأنها ساعة مولدها، المحبة التي تأمر، والمحبة التي تغفر.

لنخرج من ذواتنا: إن الناس من حولنا يناقشون إلى ما لانهاية القيمة التاريخية للأناجيل المتقاربة ولإنجيل (يوحنا). إنهم يناقشون العقائد التي تأمر

بها، والديانة التي تنهض على أساسها. ولكن الخصوم يتفقون على نقطة واحدة: إن هذه النصوص تتضمن مذهباً أخلاقياً. وسواء أحببنا هذا المذهب أم كافحناه، فإن ثمة واقعاً: إنه موجود. وإن الإنسان البسيط ليتفق في ذلك مع العلّامة، والمؤمن مع الملحد، واللاهوتي مع الفيلسوف، والبروتستانتي مع الكاثوليكي. إن الأب (لاغرانج) Lagrange، والأستاذ (لوازي)[١م] Loisy، والبروتستانتي (كوغول) Goguel والأستاذ (كينيبر) Guignebert يقولون: «أخلاق الإنجيل».ذ

* * *

أجل، إن لهذا كله تأثيره، وهو يحمل على التردد.

ولكن علينا أن نفكر عوضاً عن تتبع هذه الدفقة الأولى من الذكريات التي يبعثها اسم (الإنجيل). فإلى جانب الآيات التي تُعلّم قانون المحبة والغفران اللانهائي، ألا توجد آيات تشفّ عن الحقد والثأر وهي تثير رعشتنا منذ الصغر؟ وإلى جانب (السامري) الصالح ألا يوجد (المعلم) الحانق الذي يمزق خادمه؟ وخلف الإله الوديع الذي يواسي النوَّح، ألا نشاهد الإله القاسي؟: «يا بنات أورشليم! إبكوا على أنفسكم وأولادكم!». لقد كنا نسمع الصوت الذي يعفو. وها نحن أولاء نرى أن (لعازر)، في حضن (ابراهيم)، يرفض أن يعطي نقطة ماء للغني المحترق. كنا نقول: الحب! الرحمة! وها نحن أولاء لانجد أمامنا سوى القتام، والألم الأبدي، والدموع، وصكّ الأسنان. أخلاق سامية، أليس كذلك؟ ولكن فكرنا، وقد كان مطمئناً، يغدو حائراً، مضطرباً، قلقاً.

وفي الخارج: اللبْس عين اللبْس. أجل، إن جميع المؤلفين مابرحوا يتحدثون عن الأخلاق الإنجيلية، ولكن سَلوهم عن هذه الأخلاق وعمّا تأمر به، فتوصي أو تنهى، تجدوا أن اتفاقهم قد تلاشى: فثمة تأويلات كاثوليكية، وأخرى بروتستانتية. هنا محافظون، وهناك اشتراكيون، وثمة (جوزيف دي متر) J. De Maistre[٢م] من ناحية، و(لامنه)[٣م] Lamenais من ناحية أخرى. هناك تفسير (الجانسينية)[٤م] Jansenistes ، وتفسير (اليسوعيين)[٥م]. وهناك تفسير (فولتير)[٦م] وتفسير (روسو)[٧م] J. J.Rowsseau. هناك تفسير (سان سيمون)[٨م] (Saint - Simon) وتفسير (رينان)[٩م] Renan. وهناك عشرون تفسيراً آخر، مائة تفسير آخر.

أنقول إن هذه التفاسير لايختلف بعضها عن بعض إلا بفويرقات؟ فثمة من يرى أن الإنجيل يحدّد طقوساً لاخلاص من دونها. وآخر يعلن سدى الطقوس الأولى ويدعو إلى اللاتسامح، إلى الإيمان المفروض قسراً، إلى معاقبة الخطيئة بالنار. وآخر يدعو إلى احترام حرية الضمير، وإلى الوداعة اللانهائية حيال النعجة الضالة. الأول يجيز الحرب، والآخر يدينها إلى الأبد. الأول يمجّد الفقراء، ويصبّ جام غضبه على الأغنياء، يدين مَنْ يجمع المال بل من يعمل للربح. أما الآخر فإنه يعترف بالثروة ويريد الحفاظ على صنوف التسلسل القديمة، ودعم النظام الاجتماعي. الأول يحتقر شؤون الجسد، ويحطّ من شأو الزواج والأمومة، ويهدم رباط الأسرة؛ والآخر يبارك الأزواج الأوفياء، والأسرة الخصيب المنسجمة. الأول يتجرّد عن الاهتمامات السياسية الخسيسة، والآخر يحدّد قاعدة لممالك هذا العالم.

وبقول وجيز: يبدو (يسوع)، تارة تارة، تبع مشيئة المؤلف الذي يحدّد «أخلاق الإنجيل» على أنه إما محافظ محنّك أو ثوري متحمس، حالم وديع إنساني النزعة، أو حكيم حذر النصيحة، شاعر المحبة أو رجل تفتيش قاس.

وليت هذا التنوع يقتصر على عصرنا الراهن! فلنرجع إلى العصر الأول. إننا نجد الناس كافة يعلنون انتماءهم سلفاً إلى الأخلاق الإنجيلية. بيد أن (الكاربوقراطيين)[م١٠] كانوا باسم هذه الأخلاق يبيحون شيوعية النساء، وكان (الانكارطيون)[م١١] يمنعون باسمها الزواج ـ لقد أتى (مرقيون)[م١٢] Marcion بجرة قلم على «العهد القديم» بأسره. وحظر (ترتوليان)[م١٣] Tertulien الزواج مرة أخرى، وكذلك الفرار من الاضطهاد والخدمة العسكرية. ورفض (أوريجين)[م١٤] Origene الإيمان بجحيم أبدي.

لنبق في نطاق الكنيسة التي تعدّ ذاتها أرثوذكسية. ولنقارن مذاهب العصر البطولي بمذاهب أواخر القرن الرابع: أولاً: منعوا الحرب، ودعوا إلى الرهبانية، وإلى الزواج الطاهر، ألحفوا ببلاغة ناصعة على حرية الضمير. وأخذوا، غداة ذلك، يأمرون الجندي بأن يظل جندياً، وقالوا أن الثروة خير، وبجّلوا الأسر الكثيرة العدد، وأعدموا (الدونانتيس)[م١٥] Donatistes و(البريسيانتيس)[م١٦]

(Priscillantistes)، وحظروا الجهر بالعبادة الوثنية تحت طائلة العقوبة بالموت.

ثم جاء (البرابرة) فحدث تحول جديد: صار الأساقفة، وخوذهم تعمر رؤوسهم، يحكمون، ويقضون، ويحاربون، ويثورون. وأخذ الجمهور الذي رجع إلى المفهومات الوثنية القديمة يطالب «القديسين» بمنح زمنية ولجأ لتحقيق مطالبه إلى وسائل السحر الشعبي القديم،وهي وسائل حيادية أخلاقياً.

وتلا ذلك الإقطاع..

بيد أنني أتوقف: فمنذ نهاية القرن الأول إلى أيامنا هذه، تعاقبت المذاهب الأخلاقية المسماة مسيحية، وهي متنوعة، ومتناقضة، ولكنها كانت تزداد اتفاقاً على نقطة معينة كلما ازدادت تناقضاً: وهذه النقطة هي أنها كلها تزعم، وكلها تحسب، أنها تصدر مباشرة عن الإنجيل وكل مذهب منها يفخر بادّعاء أنه هو «الأخلاق الإنجيلية».

* * *

إذ ذاك ندرك أن السؤال الذي كان في بادئ الأمر يبدو سدى، قد أصبح لازباً: هل توجد أخلاق إنجيلية؟

وإن كان الجواب بالإيجاب فكيف نفسّر أن الناس، بعد هذا العدد الجمّ من القرون، لم يتوصلوا إلى الاعتراف بها، وأن صورتها مشوشة في أذهاننا، وأن عدداً غفيراً من الناس ذوي النية الطيبة يستنبطون من الإنجيل منظومات متباينة بمثل هذا التباين؟ وإن لم يكن الجواب بالإيجاب، ولم يتوافر في الكتب المقدسة سوى صيغ غامضة ومنزلقة تقبل الانحناء في جميع الاتجاهات، فكيف نفهم واقع أن يكون لجملة أقوال فارغة أن تنهض بمثل ذاك الدور الكبير في تاريخ البشر؟

تبقى لحسن الحظ فرضية ثالثة تتيح لنا الإفلات من هذه الصعاب: إن الأناجيل لا تنطوي على مذهب أخلاقي واحد، بل على مذاهب شتى.

إنها لاتعتنق مذهباً واحداً، بل مذاهب مختلفة بصدد ما يسمى المبادئ الأخلاقية.

وأما ما يتصل بالممارسة فإنها لاتقدم لنا نظاماً واحداً، بل نظامين.

وبقول وجيز، لئن متحت القرون والفئات من الإنجيل طائفة كبيرة من الأفكار المتعارضة، فإن ذلك لايرجع إلى أنها قد أخطأت، بل إلى أن هذه الأفكار المتعارضة موجودة في الواقع، كلها، ضمن الكتاب المقدس. وهذا ما أود محاولة تبيانه في القسم الأول من هذه الدراسة وأنا أخصّ القسم الثاني بمسعى تفسير هذا الواقع.

* * *

غير أن من الواجب قبل المباشرة بهذا المسعى (وهو يظهر الإنجيل ذاخراً بقلق وعمق بدل التغافل عن ذلك) أن أتصدى لاعتراض قد يخطر ببال القارئ.

قد يقال: لماذا ندرس مذهب/ أو مذاهب الأخلاق «الإنجيلية» عوضاً عن نشدان أخلاق (يسوع) كما جاءت في الإنجيل؟ لماذا ننظر نظرة شاملة إلى جملة الأناجيل المقدسة الأربعة بينما نعرف أن جميع المفسرين قد أظهروا الفوارق العميقة التي تميز الأناجيل المتقاربة الثلاثة عن الإنجيل الرابع؟

إنني آخر من يستطيع التغاضي عن الأبحاث الجميلة التي جاء بها المفسرون المعاصرون. بل الحق أنني، وأنا أتبع إلى النهاية الدروب التي اختطوها إنما آمل أن أفسّر، في نهاية هذه الدراسة، خيبة الأمل التي تنشأ عن الأناجيل الأربعة من الناحية الأخلاقية. وهذا يكفي لإيضاح أنني لو كنت أحسبني قادراً على دراسة «أخلاق يسوع» لعمدت على الفور إلى تمييز الأناجيل المتقاربة عن إنجيل (يوحنا)، كما يفعل الناس كافة.

بيد أنني أعتقد أن ليس في مكنة أحد في الوقت الحاضر أن يملك حق النهوض بمثل تلك الدراسة.

إن اتخاذ «أخلاق يسوع» موضوع بحث وتنقيب يعدل التأكيد المسبق بأن (يسوع) قد وُجد، بالمعنى الذائع للكلمة، وأنه عاش مثلما نعيش، وتكلم، ووعظ وعلّم. ولكن مثل هذا التأكيد هو على الأقل تهور في الحال الراهنة من أحوال العلم.

ومن الفرضيات الكثيرة التي طرحتها مشكلة (يسوع) نجد تلك التي

طرحها (ب.ل. كوشو P. L. Couchoud إذ ينكر وجود (يسوع) تاريخياً ويرى أنه (إله) غدا بشراً. وهذه المشكلة تبدو لي على أنها تبزّ سواها بجدارة الثقة إلى حد كبير. ولئن لم تحلّ جميع الصعاب فإنها هي التي تفسر، أحسن ما تفسر، العدد الأكبر من الوقائع. ولاريب في أن آخرين يعتنقون أحكاماً أخرى، ومنهم مفكرون أحرار وعلماء راسخون من طبقة الأستاذ (كينيبر والأستاذ (لوازي). وعلى ذلك فإن النقاش يظل مفتوحاً. ولكن، ريثما يحصل الاتفاق، فإن دراسة أخلاق (يسوع)، أعني (يسوع) بوصفه شخصاً تاريخياً، إنما تعدل اعتبار أن من الثابت مالايزال موضع بحث، ولذا فإن ذلك يعني استدبار الطرائق العلمية السليمة.

وبالمقابل، سواء أوُجد (يسوع) أم لم يوجد، فثمة واقع لايطاله الشك: إن الأناجيل الأربعة موجودة. وهي لاتوجد وحسب، بل إنها تشكل كتلة واحدة، منذ قرون، في فكر البشر. وإن وحدتها حادث تاريخي، واقع سوسيولوجي لا غبار عليه: ففي هذه الكتب الأربعة (وليس في الثلاثة الأولى)، نشدت الإنسانية المسيحية منذ القرن الثاني العثور على الأخلاق التي يترتب عليها إتباعها. وما دراسة هذه الكتلة التي دعمتها العصور إلا دراسة واقع لايستطيع امرؤ أن يرتاب في وجوده. وهذا يعني الوقوف وقفة عالم فوق أرض الحوادث.

أترانا نستطيع أن نستخلص من هذه الدراسة ذاتها بعض القرائن المتصلة بسرّ (يسوع)؟ إن هذا ما سنراه في القسم الثاني من هذه الدراسة. وبانتظار ذلك أرجو القارئ أن يتفضل، ولو مؤقتاً، بطرح المشكلة على نحو ما أطرحها.

إن القضية لاتزيد البتة عن معرفة هل الأناجيل الأربعة تنطوي على أخلاق واحدة أم على عدد من المذاهب الأخلاقية. إننا سنحاول الحصول على الإجابة بسؤال هذه الأناجيل تارة تارة عن بعض المسائل الكبرى للأخلاق النظرية، وعن بعض المسائل الكبرى للأخلاق العملية.

الفصل الثاني

الأخلاق والطقوس

هل تكفي للخلاص إطاعة القوانين الأخلاقية؟ أم أن من الواجب التقيد بالطقوس للفوز بالنجاة؟

إن للمسألة أهميتها: ذلك أن قيمتها تعظم، أو لاتعظم، بحسب كفاية الأخلاق، أو لا كفايتها.

ولم يستطع (يسوع) الأناجيل تحاشي هذه المسألة. فهو يهودي. ومن المعلوم أن شريعة (موسى) ماتزال تمزج العنصر الأخلاقي بعنصر العبادة. وهي تقول: إنك لن تقتل أبداً، ولن تسيء إلى المسكين. ولكنها لاتتردد في أن تعلن كذلك: لن تطهو الماعز في لبن أمه، لن تأكل ماليس له زعنفة ولاقشر. وهي تعاقب بالموت من يلعن أباه، ولكنها تعاقب بالعقوبة ذاتها من ينتهك (السبت). إنها تأمر السارق الذي دنّس بسرقته أن يتطهر بقربان. وهي كذلك تأمر الأبرص الذي دنّسه البرص بأن يقدم قرباناً.

لقد وُلد (يسوع) (وأنا أعني بهذه الكلمة منذ الآن يسوع الأناجيل الأربعة) في كنف (الشريعة) الموسوية. وهو بالضرورة سيطرح مشكلة علاقات الأخلاق بالطقوس الدينية.

فكيف يحلّ هذه المشكلة؟

إننا نتوقع أن نراه يختار: فإما أن يؤيد (الشريعة) أو أن يعلن سدى

الطقوس، أو أن يستبدل، كذلك، بالطقوس القديمة طقوساً جديدة.

بيد أن هذه التبنؤات يعوزها الصواب كلها: ذلك أن (يسوع) لم يختر أحد الحلول الثلاثة، بل اعتنقها جميعاً.

فهناك نصوص جلية تظهر أنه يزدري (الشريعة) ويعلن سدى الطقوس، وأخرى، وهي ليست بأقل وضوحاً، تبين أنه يؤيد (الشريعة)؛ وأخيراً توجد نصوص أخرى تبين أنه يقيم طقوساً جديدة.

ـ ١ ـ

(يسوع) يلغي الطقوس القديمة ويعلن سدى الطقوس: ١ ـ مخالفة (السبت)، احتقار الهيكل، العماد، الصوم ٢ ـ تمجيد العنصر الأخلاقي على حساب عنصر العبادة. ٣ ـ لادنس إلا الدنس الأخلاقي.

إن من يخالف (السبت) يستحق الموت.

ولكن قد اتفق أن اجتاز (يسوع)، يوم السبت، حقول القمح وقطف تلاميذه وهم يسيرون بعض السنابل. فاحتج (الفريسيون)[١٧م] Pharisiens وهم غاضبون. ولكن (يسوع) يجيبهم بكل جلاء: «السبت إنما جُعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت» (مرقس ٢/٢٣) و(متى ١٢/١) و(لوقا ٦/١).

ومرة أخرى، دخل (يسوع) المجمع. كان هناك رجل يبست يده. فصار الناس يراقبون (المعلم) ليروا هل يجرؤ أن يشفيه في السبت. قال للرجل: «قم!». ثم التفت إلى الحاضرين وسألهم «هل يحلّ في السبت فعل الخير أو فعل الشر، تخليص نفس أو قتل؟» ولكن الجميع سكتوا...

إنه، بالإجمال، سكوت طبيعي: ذلك أن الاعتراف بإمكان فعل الخير انتهاك (السبت)، وهذا يعني قلب مبدأ (الشريعة) القديمة كلها رأساً على

عقب، وهو إلغاء عنصر العبادة لحساب العنصر الأخلاقي، والكفّ عن اعتناق اليهودية.

وعلى الرغم من ذلك فإن (يسوع) نظر حوله وهو غضبان حزناً من غلظ قلوبهم وقال للرجل: «مدّ يدك. فمّدها فعادت يده صحيحة كالأخرى. (مرقس ١/٣) و(متى ٩/١٢) و(لوقا ٦/٦).

كان معبد (أورشليم) مقدساً في نظر اليهود. وكان السامريون الذين يعبدون الله في جبلهم منشقين. ولكن (يسوع) وهو جالس على حافة البئر قال للمرأة السامرية: «يا امرأة. صدقيني. إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم، تسجدون للآب. أنتم تسجدون لما لستم تعلمون. أما نحن فنسجد لما نعلم. لأن الخلاص هو من اليهود. ولكن تأتي الساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق» (يوحنا ٢١/٤).

العماد بالماء حميد في نظر (يوحنا المعمدان)[١٨م] Jean le Baptiste وأتباعه. ولكن الإنجيل يجعل (يوحنا المعمدان) ذاته يقول إن هذا العماد موقوت. وإن العماد الحقيقي سيكون بالروح. «أنا عمدتكم بالماء. وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس» (مرقس ٨/١) و(متى ١١/٣) و(لوقا ١٦/٣).

الصوم أمر محمود يمارسه الأتقياء من اليهود. ولكن (يسوع) لم يصم. وقد جاءه (يوحنا المعمدان) وهو لايأكل ولايشرب. أما (ابن الإنسان) فقد جاء وهو «يأكل ويشرب» (متى ٩/١١). فالـ(شريعة) القديمة التي تأمر بالصوم لاتصلح إلا للزق القديم. أما في الزق الجديد فتوضع «الخمر الجديدة» (متى ١٧/٩) و(مرقس ١٩/٢) و(لوقا ١٧/٥).

* * *

هذه الخمر الجديدة هي الأخلاق. وعلى قدر إعلان (يسوع) احتقاره الطقوس كانت عنايته باقتطاف العنصر الأخلاقي من (الشريعة) وتطهيره من الممارسات العابثة وتقديمه نقياً للناس.

«ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون، لأنكم تعشّرون بالنعنع والشبث والكمّون، وتركتم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان» (متى ٢٣/ ٢٣).

«أنت تعرف الوصايا: لاتزن. لاتقتل. لاتسرق. لاتشهد بالزور. لاتسلب. أكرم أباك وأمك». (مرقس ١٠/١٩) و(متى ١٩/١٨) و (لوقا ١٨/ ٢٠).

«سأله واحد منهم وهو ناموسي ليجرّبه قائلاً: يا معلم، أية وصية هي العظمى في الناموس. فقال له (يسوع): **تحب الربّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك**. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها. **تحب قريبك كنفسك**. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء» (متى ٢٢/٣٥) و(مرقس ١٢/٢٨) و(لوقا ١٠/٢٧).

«فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم: لأن هذا هو الناموس والأنبياء» (متى ٧/١٢).

«وصية جديدة: أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً» (يوحنا ١٣/٣٤).

وهذا الرجحان للأخلاق، الأخلاق المستقلة عن الطقوس، هو الذي يتجلى أحسن ما يتجلى في أمثولة (السامري) الصالح التي يكثر أنصار الأخلاق العلمانية من ذكرها اليوم. «إنسان كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا فوقع بين لصوص فعرّوه وجرحوه ومضوا وتركوه بين حي وميت. فعرض أن كاهناً نزل في تلك الطريق فرآه وجاز مقابله. وكذلك لاوي أيضاً إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله. ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما رآه تحنن فتقدم وضمّد جراحاته وصبّ عليها زيتاً وخمراً وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق واعتنى به. وفي الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له: إعتن به». وباسم المبدأ الكبير القائل بأن يحب الإنسان الإنسان يحمل (يسوع) (فقيه الشريعة) على أن يعلن ويصرح، هو ذاته، بأن هذا (السامري)، هذا الكائن الحقير القبيح من الناحية الدينية، هو الذي كان «القريب» حقاً بالنسبة لأخيه.

إنه وحده قد «صنع معه الرحمة». فقال (يسوع «للناموسي»: «اذهب أنت أيضاً واصنع هكذا» (لوقا ١٠/٣٠).

* * *

أضف إلى ذلك إعراب (يسوع) بوضوح عن الفكرة التي تقضي على الطقوس وتنص على أن لادنس سوى الدنس الأخلاقي: وإذن، لا رجس، فلا طقوس طهارة مادية.

أكل بعض التلاميذ خبزاً بأيد دنسة، أي غير مغسولة. فدهش الفريسيون وثارت ثائرتهم. ولكن (يسوع) «دعا كل الجمع وقال لهم: اسمعوا مني كلكم وافهموا. ليس شيء من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجّسه. لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجّس الإنسان» (مرقس ٧/١ - ١٦). ولما فوجئ تلاميذه وسألوه أجابهم: «أفأنتم أيضاً هكذا غير فاهمين؟ أما تفهمون أن كل ما يدخل الإنسان من خارج لايقدر أن ينجسّه لأنه لايدخل إلى قلبه بل إلى الجوف ثم يخرج إلى الخلاء. وذلك يطهّر كل الأطعمة. ثم قال: إن الذي يخرج من الإنسان ذلك ينجّس الإنسان لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة: زنا، فسق، قتل، سرقة، طمع، خبث، مكر، عهر، عين شريرة، تجديف، كبرياء، جهل. جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجّس الإنسان» (مرقس ٧/١ - ٢٣) و(متى ١٥/١٦).

وفي (لوقا) تظهر القصة على نحو أوضح. ذلك أن (يسوع) نفسه هو الذي يجلس إلى المائدة ويخاطب مضيفه الفريسي بقوله: «أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خارج الكأس والقصعة وأما باطنكم فملؤه اختطافاً وخبثاً. يا أغبياء! أليس الذي صنع الخارج صنع الداخل أيضاً؟ بل أعطوا ما عندكم صدقة، فهو ذا كل شيء يكون نقياً لكم» (لوقا ١١/٣٩).

إذن، افعلوا الخير وكل شيء سيكون نقياً لكم. كونوا رحماء، محسنين، وفي وسعكم الهزء من الأدناس المادية وطقوس الطهارة. وهذا يعدل قولنا إن روح (الشريعة) القديمة الأولى هي التي أُدينت. والحق أن (يسوع) يقول، في

جو المنطق، «كان الناموس والأنبياء إلى يوحنا: ومن ذلك الوقت يبّشر بملكوت الله» (لوقا ١٦/١٦).

* * *

لقد جاز لـ (رينان) أن يكتب بصدد هذه النصوص كافة: «لم يبق (يسوع) يهودياً.. فقد أسس ديانة الإنسانية، لا على الدم، بل على القلب. وقد تجاوز (موسى)، ولم يبق (للهيكل) ما يسوّغ بقاءه»[1]. إن المذهب الذي رأينا قيامه يلغي، فجأة، الطقوس كلها ويعلن باعتزاز حقوق الأخلاق المتحلية بالسيادة. ولكن إليكم نصوصاً أخرى تقدم لوناً آخر.

ـ ٢ ـ

يحافظ (يسوع) على الطقوس القديمة ويعلن أن (الناموس) لايُمسّ: ١ ـ نصوص تؤيد السبت أو الصوم أو الهكيل والعشار والبرص. ٢ ـ حتى تزول السماء والأرض لايفنى حرف ولانقطة من (الناموس).

أجل، لقد خالف (يسوع) السبت. ولكنه لم يتذرع فقط بالسبب الأخلاقي الكبير الذي ألمعنا إليه، ألا وهو سدى هذا الطقس الديني. بل استند إلى سوابق أشار إليها «العهد القديم»: «أما قرأتم قط ما فعله (داود) حين احتاج وجاع؟ أو ما قرأتم في التوراة؟» (مرقس ٢/٢٥) و(متى ١٢/٣ ـ ٥) و(لوقا ٤/٣). ويبدو أنه قصد من ذلك أن من الواجب أن تظل المخالفة أمراً استثنائياً. وفي الواقع، فقد اعتاد هو ذاته أن يذهب في السبت إلى المجمع (لوقا ٤/١٦). وقد تبعته نساء كنّ أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وُضع جسده وأعددن حنوطاً وأطياباً وفي السبت استرحن حسب الوصية» (لوقا ٢٣/٥٦).

أجل، يعلن (يسوع) أنه يأتي يوم لن يُعبد فيه الله على الجبل أو (أورشليم) ويقول: لقد جاء ذاك اليوم. ولكننا نجده في إنجيل (يوحنا)[١٩م] يصرح بوصفه يهودياً صالحاً: «أنا علّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل»

(يوحنا ٢٠/١٨). وعندما صعد إلى السماء رجع تلاميذه إلى أورشليم «وكانوا كل حين في الهيكل يسبّحون ويباركون الله» (لوقا ٥٢/٢٤).

أجل، إن (يسوع) يسخر من الفريسيين الذين «يعشّرون النعنع والسذّاب وكل بقل» ويهملون الحق ومحبة الله. ولكنه سرعان ما يردف قائلاً: «كان ينبغي أن تعملوا هذه ولاتتركوا تلك» (لوقا ٤٢/١١) و(متى ٢٣/٢٣). والظاهر أنه كان من الواجب الهزء من مراعاة هذه الدقائق: بيد أنها فرض.

صحيح أن (يسوع) يعلن بوضوح أن الخطيئة الأخلاقية وحدها رجس، وأن شيئاً مما يدخل في الإنسان لايدنّس الإنسان. ولكنه عندما شفى مريضاً بالبرص قال له: «اذهب أرِ نفسك للكاهن وقدِّم عن تطهيرك ما أمرك به (موسى) شهادة لهم» (مرقس ٤٤/١) و(متى ٤/٨). و(لوقا ١٤/٥).

* * *

هكذا تأخذ اليد اليسرى ما تقدمه اليد اليمنى.

أترانا نستطيع اعتبار هذه التنازلات لقبول (الشريعة) القديمة مجرد تنازلات تفصيلية؟ إن الأمر أنأى عن ذلك. فتلك (الشريعة) كلها هي التي يريد (يسوع) مراعاتها. بل إنه يعلن أنها ثابتة لاتتغير.

إنه يهاجم الفريسيين المتربعين على عرش (موسى) وهم «يجزمون أحمالاً ثقيلة»، أي يعلّمون إطاعة دقيقة لحرف (الناموس). ولكن ماذا يأخذ عليهم؟ أيأخذ عليهم أمرهم بمراعاة توافه وتفاصيل سدى؟ كلا. إنه يأخذ عليهم أنهم يقولون ولايفعلون. ولكن ما يقولونه، أي هذا التعليم الذي نحسب أنه يُدينه، إنما ينبغي التقيد به: «كل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه» (متى ٢٣/ ٣). والرأي ذاته في «الموعظة على الجبل»: «لاتظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ماجئت لأنقض بل لأكمل».

ويبلغ التناقض مع ما ذكرنا من قبل مبلغاً من الشدة جعل المفسرين من جميع الطوائف يبذلون أقصى براعاتهم في تفسير كلمة «أكمل» على نحو يجعلها على عكس دلالتها. ولكنه ـ فيما يبدو ـ كان يريد سلفاً أن يجعل هذه

التفسيرات محالاً إذ يردف (يسوع) قائلاً: «فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لايزول حرف واحد ونقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل».

وعلى هذا فإن الناموس بأسره، بآلاف دقائقه وطقوسه التي لاتحصى، هو المقصود. ورب قائل إن ثمة بالبداهة استثناءاً للتفصيلات الصغيرة، والوصايا البسيطة؟ ولكن (يسوع) يمضي بحزم فيقول:

«فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يُدعى أصغر في ملكوت السموات. وأما مَن عمل وعلّم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السموات» (متى ١٧/٥ ـ ١٩).

ونجد هذا التأكيد الرسمي ذاته في إنجيل (لوقا): «ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن نسقط نقطة واحدة من الناموس» (لوقا ١٦/١٧).

* * *

مذهب أول يفصل الأخلاق عن الطقوس. ومذهب ثان ليس بأقل جلاءاً وقوة تعبير يعيدها إليها. الأول كان يقتل (الناموس) القديم، والآخر يعلي من شأنه إلى الأبد، وإلى الأبد يطلب من الإنسان التقيد بالأحكام اليهودية العتيقة.

ولما كان هذا التناقض غير كافٍ فإن مذهباً ثالثاً ينشد طقوساً أيضاً، ولكنها طقوس جديدة، طقوس مسيحية خالصة.

ـ ٣ ـ

(يسوع) يقيم طقوساً جديدة: ١ ـ العماد شرط الخلاص. ٢ ـ الاوخارستيا شرط الخلاص. خاتمة.

ليس العماد، بالمعنى الدقيق، طقساً جديداً في العالم اليهودي. والإنجيل ذاته يبرز أهميته بالكلام على تعميد (يوحنا) (يسوع). ولكن الجديد في الأمر هو تأكيد أن العماد بالماء شرط ضروري للخلاص، وأن الأخلاق، من دون

الماء، سدى. وعلى الرغم من ذلك فقد مضى (يسوع) إلى هذا المدى.

فقد رأينا أنه يبشّر بمذهب آخر في الأناجيل المتقاربة. إنه يدع (يوحنا) يعمّد بالماء: وأما هو فيعمّد بالروح. ولكننا نقرأ في الإنجيل الرابع (وهو ذاته الإنجيل الذي يحوي نظرية العبادة بالروح، العبادة الشهيرة) نقرأ بصراحة إن الماء ضروري بمثل ضرورة الروح: «الحق أقول لك أن كل واحد لايولد من الماء والروح لايقدر أن يدخل ملكوت الله» (يوحنا ٣/٥).

وفي هذاالإنجيل أن (يسوع) جاء إلى (بطرس) ليغسل رجليه فاحتج (بطرس) قائلاً: «يا سيد أنت تغسل رجلي»، فأجاب (يسوع) وقال له: «لستَ تعلم أنت الآن ما أنا أصنع. ولكنك ستفهم فيما بعد». ولما احتج (بطرس) مرة أخرى بقوله: «لن تغسل رجليَّ أبداً» أجابه (يسوع): «إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب» (يوحنا ١٣/٦). وعلى هذا فإن خلاص (بطرس) رهن بصبّ الماء.

ولكن الطقس الجديد الشهير بين سائر الطقوس هو طقس الأوخارستيا وقد تناقش الباحثون في نصوص الأناجيل المتقاربة المتصلة بهذا الطقس، وفي وسعهم الاستمرار في مناقشات لانهائية. ولكن نص إنجيل (يوحنا)، بالمقابل، يظل متسماً بجلاء مذهل على الرغم من أي جهد يبذل بغية حصر دلالته بقيمة رمزية محضة: «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم». ويجادل اليهود بعضهم بعضاً قائلين: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟» فيجيبهم (يسوع) قائلاً: «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم. مَن يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية» (وأنا أقيمه في اليوم الآخر). لأن جسدي مأكل حق، ودمي مشرب حق» (يوحنا ٦/٥١).

ومن العبث الاعتراض لالغاء المعنى الجلي لهذه الأقوال بأن (يسوع) يقول فيما بعد: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة»، فإن الاعتراض لاشأو له

إلا إذا كان هذا هو التناقض الوحيد في الإنجيل. ومن الجلي أننا في معرض تبيان كثرة هذه التناقضات. ولئن شاء لاهوتيون اضطروا للفصل في هذه الصيغ المتعارضة للتضحية بالآيات (٥١ ، ٥٥)، أو أنهم، على العكس، ضحّوا بالآية (٦٣)، فتلك قضيتهم. أما العلم فإنه لايستطيع أن يضحّي بأي نص. ومن الواجب الحفاظ على الآية (٦٣) بمعناها الكامل: وهي تتصل بعشرين نص آخر تدعو في إنجيل (يوحنا) إلى العبادة بالروح وبالحقيقة. والآيات الأخرى تتصل بنصوص غسل الأرجل والعماد بالماء. وهي تصرح بدقة تامة بتناول جسد (يسوع)، وبشرب دمه بالمعنى الدقيق لهذه الكلمات، هي شرط الخلاص: مَن يأكل ويشرب يخلص، ومن لايأكل ولايشرب لن تكون له حياة أبداً.

ما هو مصير الأخلاق بإزاء هذه النصوص؟ إنها تنحدر إلى منزلة ثانوية كانت نصوص أخرى أنقذتها من الانحدار إليها. ذلك أن من العبث أن يتحلى الإنسان بقدر أعظم من الفضيلة، ومن العبث أن يرعى الأمرين الأساسيين: أحب الله، وأحب قريبك. فإنه إذا لم يولد ولادة جديدة بالماء، ولم يأكل الجسد، لن يحيا حياة أبدية[٢٠م].

* * *

نخلص إذن في نطاق هذه المسألة الأساسية المتعلقة بمنزلة القيمة المطلقة للأخلاق إلى أجوبة ثلاثة:

١ ـ إن (الشريعة) القديمة قد أُلغيت، وإن الشريعة الجديدة تعلن سيادة الأخلاق وسدى الطقوس.

٢ ـ إن (الشريعة) القديمة ماتزال قائمة، وإن أبسط عبادة تأمر بها ماتزال تحتفظ بقيمتها.

٣ ـ إن (الشريعة) الجديدة ذاتها تقيم طقوساً لايستطيع الإنسان الفاضل أن ينجو من دونها.

الفصل الثالث

الأخلاق والإيمان

يقول الإنجيل في كل لحظة: آمنوا.

ولكن، أولاً، بمَ يجب الإيمان؟ أيكفي الإيمان بالإله الآب؟ أم أن من الضروري الإيمان كذلك بـ (يسوع)؟ إن اليهودي التقي المحسن سيخلص أو يهلك بحسب إجابته عن هذا السؤال.

مشكلة ثانية: أيكفي الإيمان بالله وبـ (يسوع ـ المسيح) لتأمين الخلاص؟ أم أن الإيمان دون الفضيلة لاشأن له؟ وبحسب حلّ هذه المشكلة تحتل الأخلاق في نظر الناس المنزلة الثانية أو الأولى.

ومرة أخرى، نجد الإنجيل يقدم لنا بصدد هاتين النقطتين أجوبة متناقضة.

ـ ١ ـ

مشكلة السبت لدى اليهود: ١ ـ إن اليهودي التقي قد ينجو بمجرد الإيمان بالآب. ٢ ـ ان أي يهودي لايؤمن بـ (يسوع ـ المسيح) لايمكن أن ينجو.

أما أن يكون من الواجب الإيمان بالله، فذاك مما لاريب فيه. وأن الوثني،

بوصفه وثنياً، ملعون. ويقول (يسوع) عن المسيحي المتمرد على الكنيسة: «فليكن عندك كالوثني والعشّار» (متى ١٨/١٧).

ولكن أيستطيع اليهودي التقي أن يحظى بالحياة الأبدية إذا كان فاضلاً يؤمن بالآب. نعم، تجيب بوضوح نصوص كثيرة في الأناجيل.

أولاً، يلخص (يسوع) الأمرين الأساسيين: أحب الله وأحب قريبك، ويذكر بالحرف الواحد جملتين من «العهد القديم» مألوفتين لدى اليهود كافة؛ وهو يعد بخلاص كل من يرعى هذين الأمرين الكبيرين: «افعل هذا فتحيا» (لوقا ١٠/٢٨).

نص آخر: يعلن (يسوع) إنه لم يأت ليدعو أبراراً، بل خطاة (إلى التوبة)، (مرقس ٢/١٧) و(متى ٩/١٢). ومن المحال بالطبع افتراض أنه يفضل الخطاة لأنهم خطاة. ولئن اتجه إليهم، وليس إلى الأبرار، فذلك بسائق أن الأصحاء، كما يقول هو نفسه، لا يحتاجون إلى طبيب. وعلى هذا فثمة يهود يمكن خلاصهم حتى دون الإيمان بـ (يسوع ـ المسيح).

والدليل على أن (يسوع) يمضي إلى هذا المدى هو أنه يبين لنا أن المختارين يتكئون في ملكوت السموات «مع إبراهيم واسحق ويعقوب» (متى ٨/ ١١). وسيكون لهؤلاء اليهود الذين ماتوا قبل ظهور (المسيح) منزلة الصدارة بين الأبرار.

وإن حكاية (لعازر) الشهيرة تبين لنا في إنجيل (لوقا) أن الملائكة «حملته إلى حضن ابراهيم» (لوقا ١٦/٢٢). ولاشيء يوحي بأن (لعازر) قد عرف (المسيح): ومع ذلك فقد نجا. زد على ذلك أن الغني المدان عندما فكر باخوانه وسأل (ابراهيم) أن ينذرهم لئلا يصيروا إلى الجحيم أجاب (إبراهيم): «إن لهم موسى والأنبياء فليصغوا إليهم!». إنها جملة جافة، ولكنها واضحة: يكفي لاجتناب الجحيم إطاعة (موسى) والأنبياء. وبعبارة أخرى، إن الإيمان بالآب، مقروناً بمراعاة (الشريعة)، يتيح لليهودي أن يفوز بالخلاص.

* * *

ولكن أترانا نطلب المذهب المضاد؟

إليكم القصة الشهيرة للشاب الغني الذي جاء يتساءل عما ينبغي أن يفعل لينال الحياة الأبدية. لقد آمن بالله، وتقيد بأوامر (الشريعة) القديمة كلها: ولكنه لن يدخل الملكوت لأنه لم يطع الأمر الجديد.

وإليكم المقاطع الشهيرة من «الموعظة على الجبل» وفيها تُصحّح (الشريعة) القديمة أو نجد ما يضادها: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً.. سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم... الخ» (متى ٥/ ٣٨ وما بعد). ولما كانت (الشريعة) القديمة قاسية وناقصة على هذا النحو فقد اتضح بجلاء أنها لاتقدر على تأمين خلاص اليهود.

ولكن ثمة ما هو أجلى! ففي الإنجيل الرابع يعلن (يسوع)، ببرود، **أن اليهود لم يعرفوا البتة الإله الآب.** أما هو، (يسوع)، فإنه وحده يعرفه. وهو وحده يعرّف الناس به، وإن «مَن سبقوه»، أي (موسى) وسواه، لايقودون البشر إلى (الملكوت)، بل إلى الهلاك.

إن تناقض هذه النصوص وماجاء في الأناجيل المتقاربة (بله تناقض مقاطع من الإنجيل الرابع) يبلغ من الشدة مبلغاً يحمل على التساؤل أولاً عما إذا كنا نجيد القراءة. ولكن الأقوال خالية من كل لبْس.

يقول (يسوع) لليهود: تقولون إن أبي إلهكم «ولستم تعرفونه» (يوحنا ٨/ ٥٥). «أيها الآب البار إن العالم لم يعرفك. أما أنا فعرفتك» (يوحنا ١٧/ ٢٥). «الذي أرسلني هو حق، الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه» (يوحنا ٧/ ٢٩). «لستم تعرفونني أنا ولا أبي: لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يوحنا ٨/ ١٩). ومما يشعر بالمفاجأة أن نجد جملة من المعين ذاته تضل في إنجيل (متى): «ليس أحد يعرف الابن إلا الآب. ولا أحد يعرف الآب إلا الابن، ومَن أراد الابن أن يعلن له» (متى ١١/ ٢٧).

وعبثاً يعترض اليهود بالاستناد إلى (العهد القديم) بأن «الله معروف في اليهودية» وأن (موسى) رآه وكلّمه، فإن (يسوع) يجيب سلفاً: والآب نفسه

الذي أرسلني يشهد لي. لم تسمعوا صوته قط، ولاأبصرتم هيئته». وكذلك «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خيِّر» (يوحنا ٥/ ٣٧ و ١/١٨).

إذن، إن صوت (موسى) ليس صوت الله. أتراه على الأقل صوتاً حكيماً يهدي الناس إلى الصراط السوي؟ إن الأمر أنأى عن ذلك. يقول (يسوع) في أمثولة الراعي الصالح حرفياً: «جميع الذين أتوا قبلي هم سرّاق ولصوص» (يوحنا ١٠/٨). الجميع، إذن: (إيليا) و(موسى). وقد أصاب الأستاذ (دولافوس) Delafosse الذي لفت الانتباه إلى هذه النصوص كلها وخلص إلى القول: «إن مسيح إنجيل يوحنا يرفض العهد القديم»، وإنه يرفض (موسى) والأنبياء»[٢]. وفي الواقع، إن الآيات التي ذكرناها، آخر ما ذكرنا، آيات واضحة لالبْس فيها.

ولكن الإنجيل يقدم في الحق جوابين متناقضين بصدد مسألة خلاص اليهود: الجواب الأول: من يؤمن بالآب، ويستمع إلى (موسى) والأنبياء يستمع إلى نصحاء صالحين يقودونه إلى الملكوت. والجواب الآخر: إن أحداً لايستطيع الإيمان بالآب دون الإيمان بالمسيح، ومن يستمع إلى «مَن سبقوا (يسوع) » يستمع إلى سرّاق ولصوص يقودونه إلى الهلاك.

ـ ٢ ـ

الخلاص والأخلاق والإيمان: ١ ـ مذهب أول: الأخلاق هي العنصر الرئيس. فمن دون فضيلة لايوجد خلاص ولا إيمان. وبالمقابل، الإحسان يكفي لفتح أبواب السماء. ٢ ـ مذهب آخر: الإيمان هو العنصر الرئيس: الإيمان يكفي لخلاصنا. والعمل الصالح لاشأو له إلا بالإضافة إلى الإيمان. الإيمان الناشئ في قلب دنس يمحو الخطايا. لاخلاص دون إيمان.

لنمض إلى المذهب الثاني: يجب الإيمان بالله وبـ (يسوع ـ المسيح)

وسرعان ما يُطرح السؤال الآتي: أيكفي الإيمان لتأمين الخلاص؟ بل أتراه أمراً لاغنى عنه لأجل الخلاص؟

كلا. تجيب نصوص جلية الجلاء كله. ليس الإيمان دون الفضيلة خواءاً وحسب، بل إن الفضيلة هي العنصر الرئيس. وإنما يجب الحكم على فضيلة المرء تبع إيمانه. وإن فضيلته هي التي ستفتح القلب للكلام الإلهي. إن الإحسان هو الذي يستطيع وحده أن يفتح أبواب الملكوت.

البراهين؟ - «ليس كل مَن يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات» (متى ٢١/٧) و(لوقا ٤٦/٦).

ثم إن من العبث أن يؤمن إنسان بـ (يسوع) ويبلغ من إيمانه أن يتنبأ باسمه وأن يحدث عجائب باسمه: فإذا فعل شراً لم يعترف به (يسوع) خادماً له: «كثيرون سيقولون في ذلك اليوم يا رب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة؟ فحينئذٍ أصرح لهم إني لم أعرفكم قط. إذهبوا عني يا فاعلي الإثم» (متى ٢٢/٧).

ذلك أن الإيمان من دون الفضيلة ليس شيئاً. وليس المستقيم من يسمع النطق، بل الذي يسمع الكلمة ويقبلها «ويثمر» (مرقس ٢٠/٤) و(متى ١٣/ ٢٣) و(لوقا ١٥/٨). إن من يسمع «ويعمل» يبني بيته فوق الصخر. «وأما الذي يسمع ولايعمل فيشبه إنساناً بنى بيته على الأرض دون أساس فصدمه النهر فسقط حالاً وكان خراب ذلك البيت عظيماً» (لوقا ٤٧/٦).

* * *

إذن، لاخلاص دون فضيلة. وأكثر من ذلك: لا إيمان دونها.

هناك أنبياء يأتون في ثوب الحملان ولكنهم في الحق ذئاب مفترسة. فكيف نعرف أنهم بلا إيمان حقيقي؟ - «من ثمارهم تعرفونهم» بأفعالهم الصالحة أو الطالحة.

وعلى الرغم من جرأة هذه الفكرة فإنها واضحة كل الوضوح: «من

ثمارهم تعرفونهم. هل يجنون من الشوك عنباً، أو من الحسك تيناً؟» وكذلك: «هكذا كل شجرة جيدة تصنع ثماراً جيدة. وأما الشجرة الرديئة فتصنع ثماراً رديئة. لاتقدر شجرة جيدة أن تصنع ثماراً ردية، ولاشجرة ردية أن تصنع ثماراً جيدة... فإذن من ثمارهم تعرفونهم» (متى ١٦/٧ ومايلي) و(لوقا ٤٣/٦).

إذن، إذا أردنا أن نحكم بإيمان امرئ وجب أن ننظر إلى فعاله: فإذا كان فاضلاً كان إيمانه جيداً. وقد حاول المفسرون الكاثوليكيون عبثاً أن يستخدموا كل براعتهم للتعتيم على معنى هذه الصيغ[٣] التي تثير انزعاجهم ولكنها تظل جلية واضحة وهي تظهر بمثل ذاك الوضوح والجلاء في الإنجيل الرابع: إن المحبة هي قوام المسيحي: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعض لبعض» (يوحنا ٣٥/١٣).

إذا لم تكن الفضيلة في قلب امرئ امتنع الإيمان عن قلبه. وهذا ما نجده جلياً في أمثولة الزارع. إن كلام الله يسقط كما تسقط البذرة الصالحة. ولكن جميع الناس لايفهمونه على نحو سواء. فبعضهم يلقونه بفرح ولكن هموم الحياة وخيبة الآمال فيها سرعان ما تخنقه لديهم. وإنما يفيد من تلقي كلام الله أولئك الذين، وحدهم، كما جاء في إنجيل (لوقا)، «يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد صالح» (لوقا ١٥/٨). وبقول آخر: إن الإيمان لايمكن أن يولد إلا في نفس فاضلة.

ويلحف الإنجيل الرابع على هذه الفكرة. إن (النور) قد جاء إلى العالم. ولكن الناس أحبوا الظلمة ورجّحوا جانبها على (النور). لماذا؟ «لأن أعمالهم كانت شريرة»؟ «لأن كل من يعمل السيئات يبغض (النور) ولايأتي إلى (النور) لئلا تُوبَّخ أعماله» (يوحنا ١٩/٣).

* * *

أترى الفضيلة، وهي تكفل الإيمان، تبلغ من الشأو ما يجعلها تحقق خلاصنا وحدها من دون الإيمان؟

إن هناك نصين يمضيان إلى هذا المدى.

ففي «الموعظة على الجبل» يقول (يسوع): «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم، لأن هذا هو الناموس والأنبياء» (متى ١٢/٧). وهذه الصيغة، كما نرى، لاتلمع إلى أي إيمان. فهي، كما نقول بلغة اليوم، علمانية وإنسانية تماماً. فإذا فهمناها حرفياً عرفنا أن كل إنسان فاضل سيخلص بفضيلته وحدها.

النص الثاني: أقوال (يسوع) يوم القيامة الكبرى. وعندما جعل الناجين عن يمينه لم يقل لهم: تعالوا، فقد آمنتم... بل قال لهم: تعالوا، لأنني جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني. كنت غريباً فآويتموني.. ولكن المختارين يدهشون ويقولون: «يا رب، متى رأيناك جائعاً فأطعمناك، وعطشان فسقيناك، ومتى رأيناك غريباً فآويناك؟» فأجابهم (يسوع): «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد اخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (متى ٣٥/٢٥ وما بعد).

ماذا تعني في هذا المجال دهشة المختارين؟ إنها تدل على أن كثيرين منهم كانوا بلا ريب صالحين وطيبين دون أن يسمعوا كلام (المسيح)، ومن ثم، دون أن يفكروا لحظة واحدة في نجدته في إهاب أشخاص الفقراء. فقدكانوا صالحين وحسب. وبما أن المحبة هي الأساس فإنهم سيمرون عن يمين الحاكم (يوم القيامة) ويدخلون الملكوت.

ذاكم هو المذهب الأول الذي يضع الأخلاق فوق كل شيء.

* * *

وإليكم المذهب الآخر.

إن الإيمان وحده يكفل الخلاص. وإن صيغة: «اذهب، إيمانك أنقذك» كثيرة التكرار في الأناجيل المتقاربة. صحيح أنها تنطبق على مرضى ينشدون الشفاء، وأن من الجائز حقاً قولنا إن هذه المعجزات لا تنطوي على رموز. ولكن في خاتمة إنجيل (مرقس) يتضح بدقة أن الإيمان، مضافاً إليه العماد، يكفل الخلاص، «من آمن واعتمد خلص» (مرقس ١٦/١٦) وفي الإنجيل الرابع عدد لايحصى من الصيغ الدالة على كفاية الإيمان وحده:

«الذي يؤمن به لايُدان» (يوحنا ١٨/٣).

«الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية» (يوحنا ٣/٣٦).

«الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية» (يوحنا ٦/٤٧).

«مَن آمن بي ولو مات فسيحيا. وكل مَن كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» (يوحنا ١١/ ٢٥ ـ ٢٦).

إذن، الإيمان ينقذ. وقد يقال: شريطة إضافة الفضيلة؟ شريطة إنجاز الأعمال التي يريدها الآب؟ كلا. إن العمل الذي يريده الآب هو الإيمان ذاته. «فقالوا له ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟ أجاب (يسوع) وقال لهم: هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله» (يوحنا ٦/٢٨).

وعلى الرغم من ذلك إذا استطاع صانع عجائب أن يصنع معجزات باسم (يسوع) وهو يرفض إتباع (يسوع) فهل يكفي إيمانه؟ ألا ينطبق عليه حكم الآية التي ذكرناها قبل هنيهة: «أبداً إنني لم أعرفكم؟» كلا. جاء (يوحنا) قائلاً لـ (يسوع): «يا معلم رأينا واحداً يخرج شياطين باسمك وهو ليس يتبعنا. فمنعناه لأنه ليس يتبعنا. فقال (يسوع): لاتمنعوه. لأنه ليس أحد يصنع قوة باسمي ويستطيع سريعاً أن يقول علي شراً» (مرقس ٩/٣٨). إذن، إن من يبرهن على إيمانه بمعجزة لايستطيع أن يسيء صنعاً. وقد كان المذهب الأول يعلن بكل وضوح أن كثيرين، على الرغم من أنهم يصنعون معجزات باسم (يسوع)، سيطردون من الملكوت. والمذهب الثاني يعلن أن من يصنع مثل هذه المعجزات لايمكن أن يقول على (المسيح) شراً.

تناقض ثان: إن صيغة الحكم الأخير، كما قرأناها قبل قليل، كانت تظهر أن كل مَن يسعف مسكيناً أو جائعاً أو مريضاً يختط لنفسه سبيلاً للملكوت. وتلكم كانت القيمة المطلقة للمحبة المنطلقة من الأخلاق. ولكن ها هو ذا (يسوع) يقول لتلاميذه: «مَن سقاكم كأس ماء **باسمي لأنكم المسيح** فالحق أقول لكم إنه لايضيع أجره» (مرقس ٩/٤١) و(متى ١٠/٤٢).

والفكرة تعارض كل المعارضة تلك التي ينطوي عليها الحكم. إذ نجد في الحكم جدارة الإنسان البَر الذي أسعف طفلاً أو ضعيفاً من حيث أنه طفل أو ضعيف. وهنا، على العكس، يلحف (يسوع)، بما يشبه التثاقل، على أن الإحسان لاينفع إلا إذا صُنع باسم (المسيح). إن القربان ذاته، من دون إيمان، أي الإحسان الإنساني المحض، لن يكون له شأو. والإحسان لن يثاب إلا إذا كان عملاً من أعمال الإيمان.

تناقض ثالث: هناك نصوص دقيقة تخبر أن (نور) الإيمان لاينفذ إلا إلى القلوب الطاهرة وأن لابد للإنسان من أن يكون صالحاً حتى يؤمن. ونصوص أخرى تقول، على العكس، إن (يسوع) إنما جاء للخطاة بوجه خاص. إنه طبيب. وهو يعالج المرضى والعشّارين والبغايا. ولذا فإن الإيمان ينشأ في القلب الدنس لهؤلاء الخطاة والخاطئات.

وهو يولد في الواقع ويمحو خطاياهم. جاء كثيرون بمفلوج للمعلم فقال له (يسوع) عندما «رأى إيمانهم» «يا بني مغفورة لك خطاياك» (مرقس ٢/٥) و(متى ٩/٢) و(لوقا ٥/٢٠). و«آمنت امرأة خاطئة (بيسوع) وجاءت إليه متوسلة بسذاجة فأسرع (يسوع) إلى غفران خطاياها وقال لها: «إيمانك قد خلصك، اذهبي بسلام» (لوقا ٧/٥٠).

لنفطن جيداً إلى أن المفلوج والمرأة الخاطئة كليهما لم يعلنا توبتهما. ولكنهما كانا يؤمنان وحسب: وقد محا الإيمان، وهو الأساس، خطاياهما.

وأخيرا، إلى جانب النصوص التي توحي بأن المحبة وحدها قد تكفل الخلاص نجد نصوصاً أخرى تعارضها وتقرر، على العكس، أن من لايؤمن سيكون مداناً سلفاً.

«مَن لم يؤمن يُدن» (مرقس ١٦/١٦).

«الذي لايؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يوحنا ٣/ ١٨)

«الذي لايؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» (يوحنا ٣٦/٣).

«إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم» (يوحنا ٢٤/٨).

فالإيمان ليس بكافٍ وحسب لتأمين الخلاص، بل ليس خارج الإيمان خلاص.

* * *

يتضح إذن، بوجه الإجمال، أن ثمة مذهبين: أحدهما لايقتضي للخلاص إلا أن يتقيد الإنسان بـ (الشريعة) القديمة ويتيح لليهود ولوج الملكوت. والآخر يستلزم الإيمان بـ (يسوع) ويطرد اليهود المؤمنين بـ (الشريعة) وحدها. المذهب الأول يعتبر الأخلاق العنصر الرئيس ويعلن أن لاقيمة للإيمان من دون الفضيلة ويمضي إلى القول إن (الشريعة) الجديدة ترجع كلها إلى واجب أن يحب الإنسان القريب. والمذهب الآخر يعتبر الإيمان العنصر الرئيس ويعلن أنه يكفي لتأمين الخلاص وأن أحداً لن يفوز ببلوغ الملكوت دون إيمان.

الفصل الرابع

المسؤولية والحرية

هل الإنسان حرّ؟

إن الإنجيل يبين لنا في كل لحظة أن الإنسان مسؤول عن أعماله: فإن آمن وصنع خيراً يثاب؛ وإن صنع شراً ولم يؤمن يعاقب. فهل هو حرّ في أن يؤمن أو لايؤمن.؟

نعم. كلا.

إن نصوصاً واضحة متسقة تقول لنا: إن الناس كافة مدعوون، ولكن أحداً منهم ليس مكرهاً. وأنهم جميعاً سيلقون (النور). ومَن قد لا يلقونه لن يكونوا مذنبين بأخطائهم.

ونصوص ليست أقل وضوحاً واتساقاً تجيب بأن الناس كافة لن يلقوا (النور)، وأن إرادتهم لاتكفي لضمان خلاصهم أو لاضمانه. وسيكون فريق من الناس وحسب هم المختارون، وآخرون سيكونون مرفوضين سلفاً، ولن ينجم عن واقع أنهم ليسوا أحراراً تخفيف مسؤوليتهم: بل هناك في نظر الله مسؤوليات جمعية.

— ١ —

الإنسان حرّ، وهو مسؤول لأنه حرّ: ١ ـ إن (يسوع) يدعو الناس ولكنه يدعهم أحراراً في الاستجابة لندائه ٢ ـ الناس جميعاً سيلقون (النور). ٣ ـ إن كان الناس بلا نور فإنهم سيكونون بلا خطيئة.

«يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس **فلم يريدوا أن يأتوا**» (متى ٢٢/٣).

فالله إذن هو الذي يبادر ويدعو. ولكن المدعوين أحرار، ولهم أن يرفضوا، بدليل أنهم رفضوا. وقد جاءتهم دعوى أخرى باسم الملك. ولكنهم تهاونوا. أترى الله يلهو بأن يدعوهم وهو يعلم أن دعوته سترفض؟ كلا إن الله صادق. ولكن البشر أحرار.

طلب (صاحب) الكرْم من الكرّامين ما يستحق من ثمر الكرم. أرسل باديءَ ذي بدء عبيده، ثم ابنه ذاته. أتراه يعرف وهو يرسلهم أنهم لن يحصلوا على أي شيء؟ إن الأمر أنأى عن ذلك. بل إنه ليقول في نفسه على العكس: «إنهم يهابون ابني» (مرقس ١٢/٦) و(متى ٢١/٣٧)، أو على الأقل: «ارسل ابني الحبيب لعلهم إذا رأوه يهابون» (لوقا ٢٠/١٣). قتل الكرّامون الابن: ولكن الله لم يرد هذا القتل، بل إنه في الحق لم يتنبأ به.

تلك هي حرية البشر التي تجعل (يسوع) يعترف في نفسه أحياناً بأنه يعجب من سلوكهم. وعندما رفض مواطنوه الإيمان به دهش لعماهم: «وتعجب من عدم إيمانهم» (مرقس ٦/٦).

كان يدعو الناس. ولكنه لم يكن يقسرهم: إن إرادة الله تقضي بخلاص الناموسيين والفريسيين: ولكن «الفريسيين والناموسيين رفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم» (لوقا ٧/٣٠). كانت رغبة (يسوع) هي إنقاذ (أورشليم). ولكن

(أورشليم) كانت حرة ولم تستجب: «يا أورشليم، يا أورشليم! يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريدوا..» (متى ٣٧/٢٣) و(لوقا ٣٤/١٣).

وينتج عن ذلك أن ليس للإنسان أن يتكل على الله ليحقق خلاصه. وعبثاً صلّى (يسوع) من أجل (بطرس) «لكي لايفنى إيمانه» (لوقا ٣٢/٢٢). وبالرغم من ذلك فقد أنكر (بطرس) معلمه. ولم يُجدِ في شيء عطف (يسوع) على الشاب الغني(*): فالشاب الغني لم يشأ أن يبذل الجهد اللازم: إنه لن يدخل (الملكوت).

إنما يتحقق الخلاص بالجهد الشخصي وحده. «اطلبوا تجدوا. اقرعوا يفتح لكم» (لوقا ٩/١١) و(متى ٧/٧). إن مَن يريد أن يبني برجاً ألا يجلس أولاً ويحسب النفقة هل عنده ما يلزم لكماله؟ وهكذا مَن شاء أن يتبع (يسوع) فليفعل على هذا النحو، وبحسب قوته (لوقا ٢٨/١٤).

إن توافر حرية الاختيار يوجب توافر المعرفة. فمَن لم يسمع الكلام لايستطيع اتباعه. ولذا نلفى الإنجيل يعلن بوضوح أن الناس جميعاً سيلقون البشارة. «ليس أحد يوقد سراجاً ويغطيه باناء أو يضعه تحت سرير» (لوقا ١٦/٨ و ٣٣/١١) و(متى ١٥/٥) و(مرقس ٢١/٤).

لاريب في أن العالم ظلام. ولكن «النور يضيء في الظلمة»، «النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان» (يوحنا ٥/١ ، ٩). ولذا يقول (يسوع) لتلاميذه: «ينبغي أن يكرز أولاً بالإنجيل في جميع الأمم. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (مرقس ١٠/١٣) و(متى ١٤/٢٤ و ١٨/٢٨).

وقد ضرب هو المَثَل بنفسه في حالات عدة: فقد حقق معجزاته علناً ليرى الناس مجده ويؤمنوا به. وقد قال للمجنون من المسّ وقد شفاه: «اذهب

(١) ألف المترجمون الترجمة التالية: «عندما نظر إليه يسوع أحبه» (مرقس ٢١/١٠) ويرى الأستاذ (برنو) أن من الأفضل أن تكون الترجمة على النحو الآتي: «ولما أمعن به يسوع وجّه إليه إشارة صداقة» (الإنجيل ص ١٥٥).

إلى بيتك وإلى أهلك وأخبرهم كيف صنع الرب» (مرقس ١٩/٥) و(لوقا ٧/ ٣٩). وقد أكثر من العجائب حتى يهتدي الناس بمشاهدتها.

أما تعليمه فقد كان تعليماً علنياً. وقد جاء في الإنجيل الرابع قوله: «أنا علّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائماً. وفي الخفاء لم أتكلم بشيء» (يوحنا ٢٠/١٨). وجاء في إنجيل (متى) أنه لما رأى الجموع صعد إلى الجبل وتكلم.

«وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلي الجميع» (يوحنا ٣٢/١٢).

* * *

إذن، سينار السبيل أمام الناس قاطبة. وكلهم سيحظى بالأنوار اللازمة ليختار بحرّية الحقيقة أو الخطأ، الخير أو الشر. فإذا أعذرتهم هذه الأنوار امتنع اعتبارهم مسؤولين عن حياتهم.

إن الذين يصلبون (يسوع) لايعرفون أنه (المسيح). ويقول لهم (يسوع): «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لايعلمون ماذا يفعلون» (لوقا ٣٤/٢٣).

ونجد هذا المذهب ذاته في إنجيل (يوحنا). يخاطب (يسوع) اليهود قائلاً: «لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطية. ولكن الآن تقولون إننا نبصر فخطئيتكم باقية» «لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية» (يوحنا ٤١/٩) و ٢٢/١٥ ، ٢٤).

هذا كله واضح ومنطقي. لقد جاء (يسوع) بشريعة، بأوامر. وهذه الأوامر كما يقول (الأب. هرنت) P. HARENT لايمكن أن تخاطب إلا كائنات حرّة: «لايمكن أن تأمر إنساناً يقع من سطح منزل بألا يسقط»[٤] ولذا فإن من شأن البشر أن يستجيبوا لنداء (المخلّص) أو لايستجيبوا. ولو أنهم لم يسمعوه ولم يكونوا أحراراً في أن يؤمنوا أو لايؤمنوا لما كانوا مسؤولين. ولكن اختيار الطريق السوي أو السيئ إنما يرجع إليهم، ولذا فإنهم سيُحاسبون يوم القيامة عن اختيارهم.

إن شدة وضوح هذا المذهب وجلاءه يجعلان الناظر يتردد في الاعتقاد بأن من الجائز أن يعتنق الإنجيل مذهباً آخر بعد أن اعتنق ذاك المذهب.

وعلى الرغم من ذلك فإليكم المذهب الآخر.

ـ ٢ ـ

الإنسان ليس حرّاً. وعلى الرغم من ذلك فهو مسؤول. ١ ـ إن الناس لن يلقوا كلهم تعليم الإنجيل. وقد عمل (يسوع) على نحو أن يسمع كثيرون ولايفهمون. ٢ ـ لايستطيع الإنسان أن يصنع خلاصه بنفسه. والله وحده هو الذي يصطفي الناجين وغير الناجين. ٣ ـ إن الاختيار الإلهي المسبق لايحول دون مسؤولية البشر. بل إن ثمة مسؤولية جمعية.

أيلقى الناس كافة (النور)؟ كلا

يقول (يسوع) لتلاميذه «إلى طريق أمم لاتمضوا وإلى مدينة السامريين لاتدخلوا» (متى ١٠/٥).

قد يقال: إنه أمر موقوت. وقد أراد (يسوع) أن يكرز تلاميذه بالإنجيل بادئ ذي بدء لليهود. ثم يذهبون إلى الأمم.

وعندما يحدث ذلك، فإن أولئك الذين هم من الأمم والسامريين إذا ماتوا في أثناء تعليم إسرائيل لن ينالهم (النور). ولئن كانت النصوص السابقة تأمر التلاميذ في الواقع بأن يكرزوا بالإنجيل للعالم فثمة نص آخر ليس بأقل وضوحاً وهو يقول بدقة إنه لن يكون لديهم وقت حتى ليكرزوا بالإنجيل لليهود. «فإني الحق أقول لكم لاتكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان» (متى ١٠/ ٢٣).

ولذا فإن جميع اللايهود، وحتى بعض اليهود، سيموتون قبل أن يلقوا البشارة.

* * *

هل يعطي (يسوع) (النور) ذاته لجميع مَن يتاح له وعظهم بالإنجيل؟ إن الأمر أنأى عن ذلك.

فهو يقدم معجزات لفريق من الناس بوصفها برهاناً على رسالته، ويمنعها عن فريق. ولما سأله فريسيون طالبين آية من السماء لكي يجرّبوه أجابهم: «لماذا يطلب هذا الجيل آية؟ الحق أقول لكم لن يُعطى هذا الجيل آية» (مرقس ١٢/٨). لماذا؟ إن الفريسيين الذين يريدون إمتحانه ليسوا بذي شأن، وهذا معلوم. ولكن اليهود الذين يجدهم (يسوع) مجتمعين أمام منزل (يائيرس) ليسوا بأفضل منهم. وعلى الرغم من ذلك فإن يسوع بعث من الموت ابنة (يائيرس) أمام أعين هؤلاء الساخرين. وقد رفض كل آية أمام الفريسيين.

ويريد (يسوع) في بعض الأحيان أن يعرف الناس معجزاته فيقول لمن شفاه: اذهب وأعلن ما فعل لك (المخلّص). ولكنه في أحيان أخرى يأمر المستفيد بالسكوت المطلق، بل ويأمر كذلك مَن شاهدوا المعجزة. من ذلك أنه لما بعث من الموت ابنة (يائيرس) أمام عدد من الناس «أوصاهم كثيراً أن لايعلم أحد بذلك» (مرقس ٤٣/٥). وهذه الوصية ذاتها نجدها بعد شفاء شخص أصم: «فأوصاهم ألّا يقولوا لأحد» (مرقس ٣٦/٧).

ويرى الأب (لاكرانج) Lagrange أن لامندوحة من الاعتقاد حيال هذا المنع الجازم بأن «(يسوع) ينشد الصمت... وأن من العسير أن نفهم لماذا» (مرقس ص ١٨٩). لنقل قولاً أفضل: من المحال أن نبين ذلك إذا أردنا توفيق هذا الأمر مع المذهب الذي يقضي بضرورة تنوير كل إنسان. بيد أن المسألة سهلة مذ أن نعترف بأن ثمة مذهبين، هنا كما في أمكنة أخرى.

وكيف نرتاب؟ فلو أن الأمر قد اقتصر على المعجزات المتاحة لفريق، والممنوعة عن فريق، لكان في وسع حماسة اللاهوتيين البارعة أن تخلص إلى إيجاد تفسير لهذا الشذوذ. فالمعجزة، مهما كان نفعها، فإن من الجائز أن يؤمن امرؤ دون أن يراها. ولكن الإشكال يرجع إلى أن المذهب ذاته هو الذي يعتبره (يسوع) سرّاً، ويخفيه (يسوع) عن الناس!

لقد كنا نسمعه وهو يقول قبل قليل: «لقد كلمتُ العالم صراحة وليس شيء في الخفاء». ولكن لنسمعه الآن. سأله (بطرس): «أنت المسيح، ابن الإله الحي»، فلم ينكر (يسوع). وقد قال (بطرس) الحقيقة. ولئن كان ثمة حقيقة ينتفع بها العالم فإنها هي. وعلى الرغم من ذلك فقد منع (يسوع) تلاميذه عن إعلانها: «فانتهرهم كي لايقولوا لأحد عنه» (مرقس ٨/٣٠) و(متى ١٦/٢٠) و(لوقا ٩/٢١).

وفي غداة الأحداث التي واكبت الوصول إلى (أورشليم) أقبل اليهود، رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ، وسألوا (يسوع): «بأي سلطان تفعل هذا ومَن أعطاك هذا السلطان؟». فلو أن (يسوع) كان يود أن يضم تحت جناحه جميع أبناء إسرائيل لكانت الفرصة سانحة، وكان في وسع تصريح قوي بيِّن أن يفتح عيون أكثر الناس عناداً. ولكن كلا: هذه المرة أيضاً احتفظ (يسوع) بالسرّ لنفسه: «ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا» (مرقس ١١/٣٣) و(متى ٢١/٢٧) و(لوقا ٢٠/٨).

وهو لايقتصر على ما تقدم. بل إنه إذ يتكلم أمام الجمهور فإنه يستهدف ألّا يفهمه سامعوه.

تحدث عن أمثولة (الزارع). ولما سأله تلاميذه عن ذلك أجابهم: «قد أُعطي لكم أن تعرفوا سرّ ملكوت الله. وأما الذين هم من خارج فبالأمثال يكون لهم كل شيء **لكي يبصروا مبصرين ولاينظروا**، ويسمعوا سامعين ولايفهموا لئلا يرجعوا فتغفر لهم خطاياهم» (مرقس ٤/١١).

وهنا يبلغ التناقض مع المذهب الأول مبلغاً من الإثارة جعل المفسرين يبذلون كل براعتهم ليبدّلوا معنى هذه الجملة مهما كلف الأمر: ولكن البداهة قاومت هذا الجهد(*). ومهما يكن من أمر المهارة التي أُنفقت لتفسير المقطع من

(*) يصرح الأستاذ (برنو) (الإنجيل ص ١١٣) إن الكلمة اليونانية INA في شق الجملة القائلة: «كل شيء بالأمثال حتى يبصروا مبصرين ولاينظروا» لاتدل على معنى «حتى» كما في اللغة اليونانية القديمة، بل على معنى «لأن». ويبرهن على ←

إنجيل (مرقس) والمقاطع المماثلة من إنجيلي (متى) و(لوقا)، فثمة دلالة مشتركة يمتنع إنكارها: إن سرّ (الملكوت) وقف على التلاميذ وهو لايُكشف لسواهم. ولكي لايكشف (يسوع) للآخرين حدّثهم بالأمثال.

وفي مكان آخر، يعزو (يسوع) إلى (الآب) ذاته الأمر الصريح بإنارة فريق من الناس، والتعمية على فريق: «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الأب لأن هكذا صارت المسرّة أمامك» (متى ١١/٢٥) و(لوقا ١٠/٢١).

لماذا كان الحكماء والعلماء أقل جدارة بأن يلقوا (النور) من العامة والبغايا؟ لاجواب: تلك مشيئة الآب. ولكن لنلاحظ جيداً أن (يسوع). لايمنع التعليم الواضح عن العلماء وحدهم، وليس بمقبول القول إن الجموع التي تتبعه

← ذلك: ١ - بتصريح نحوي من القرن الميلادي الثاني. ٢ - بأن (متى)، وقد كان (مرقس) يطلّع عليه، يستعيض عن كلمة INA بكلمة OTI ومعناها «الآن». ويبدو لي أن الدليل الأول واه. فالمرات التي استعمل فيها (مرقس) كلمة INA بمعنى «حتى» لاتحصى. ولذا فإن الدافع مذهبي وليس بسائق لغوي يراد من هذه الكلمة أن تدل على معنى «لأن». أما الدليل الثاني فيبدو لي أنه يهدم الدليل الأول. فلو أن لكلمة INA معنى «لأن»، وكان هذا المعنى واضحاً وذائعاً في زمن (مرقس)، فلماذا يستعيض (متى) عن كلمة INA بكلمة OTI؟ فمن الثابت الأبسط افتراض أن صيغة (مرقس) بدت له قاسية بإسراف وأنه لطفّها بدون أن يتوصل، من ناحية أخرى، إلى تغيير المعنى العام للمقطع، مادام هو أيضاً يجعل (يسوع) يقول: «قد أعطي لكم أن تعرفوا سرّ ملكوت السموات. أما لأولئك فلم يعط» (متى ١٣/١١). أما المفسرون الكاثوليك فإنهم لم يستطيعوا الاتفاق على تفسير مثل هذا المقطع الشاق. وبعضهم يرى أن الأمثال وسيلة لحجب المذهب وجعله غامضاً. وقد رفض الأب (لاكرانج) هذا الرأي، ولكنه خلص إلى تناقض فطن له بلا ريب. فمن جهة أولى، يرى أن (يسوع) يعطي (النور) المناسب للجموع». ولكن، من جهة أخرى، أنه «لم يرفع الحجب كلها» لأن اليهود لو استجابوا لوعظه لما غفر لهم ولكان هذا الترميم قد حال دون الخلاص النهائي (مرقس ص١٠١ ، ١٠٢). وبقول آخر، إن (يسوع) يتكلم بقدر كافٍ من الوضوح حتى يُفهم، ولكن بقدر كافٍ أيضاً من الغموض حتى لا يُفهم.

والتي يوجّه إليها الأمثال «حتى تسمع ولاتفهم»، إنما تتألف فقط من أشخاص مثقفين. إذن إنه ينير بعضهم ولاينير بعضهم الآخر، دون أن يجلو مبدأ مثل هذا الاختيار: لقد مُنح فريق أن يعرفوا سرّ (الملكوت)، ومنع عن ذلك فريق.

* * *

إن (النور) لم يُعط للجميع. ولكن أترى الذين أُعطوا الكلام وفهموه هل يتصف كل واحد منهم بأنه حرّ في صنع الخير أو الشر، في إنتاج ثمرة أو البقاء عقيماً؟

نعم. هكذا كان (يسوع) يقول في النصوص المذكورة من قبل. وهو من ناحية ثانية يقول: كلا، في نصوص أخرى:

«... لأن (يسوع) من البدء علم مَنْ هم الذين لايؤمنون ومن هو الذي يسلّمه. لهذا قلت لكم إنه لايقدر أحد أن يأتي إلي إن لم يُعط من أبي لأنكم من دوني لاتقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يوحنا ٦/٦٥) و(١٥/٥).

ولما سأله تلاميذه وهم قلقون «من يستطيع أن يخلص؟» أجاب (المعلم): «عند الناس غير مستطاع ولكن ليس عند الله لأن كل شيء مستطاع عند الله» (مرقس ١٠/٢٦ ، ٢٧) و(متى ١٩/٢٦) و(لوقا ١٨/٢٧)(*).

أيجب على الإنسان أن يسهم، هل في وسعه على الأقل أن يسهم، في خلاصه؟ كلا أيضاً. فالإنسان ليس هو الذي يختار أن يذهب إلى (يسوع)، بل الله هو الذي يختار إنساناً معيناً ليخلصه: «ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم» (يوحنا ١٥/١٦).

الله، في الواقع، الله ذاته، كوّن لنفسه قطيعاً صغيراً وأوكلهم إلى ابنه. لقد «أعطى» (يسوع) عدداً من الناس محدّداً: «لست أسأل من أجل العالم بل من أجل الذي أعطيتني لأنهم لك» (يوحنا ١٧/٩ ، ١١ ، ١٢). إنه راع صالح.

(*) إنني أفهم من ترجمة هذا النص أن الله هو الذي يختار أصفياءه.

إنه يعرف عدد الخراف الموكولة إليه؛ إنه يدعوها بأسمائها ويخرجها» (يوحنا ١٠/٣). ولكن ماذا يحدث إذا قاوم المختارون؟ «قال السيد للعبد اخرج إلى الطرق والسياجات والزمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي» (لوقا ١٤/٢٣).

الزمهم! هل هذا يعني أن المختارين سيخلصون بالضرورة؟ إن الإنجيل يمضي إلى هذا المدى.

يقول (يسوع) إن مسحاء كَذَبة سيقومون بلا ريب في الأيام الكبرى وإن آياتهم ستغوي حتى المختارين. ولكنه سرعان ما يضيف: هذا غير ممكن. لأجل المختارين الذين أختارهم قصّر الله الأيام» (مرقس ١٣/٢٢ ، ٢٠) و (متى ٢٤/٢٢ ، ٢٤). ويعلن (يسوع): «لاتخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سرّ أن يعطيكم الملكوت» (لوقا ١٢/٣٢) و(متى ١٨/١٤). وكذلك: «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني» (يوحنا ١٠/٢٧ - ٢٨).

إننا نبلغ نقطة المذهب الأساسية: هل سيخلص هؤلاء الذين اختارهم الله إذن مهما كانت وضاعتهم الأخلاقية؟ إن الإنجيل لايتيح لنا أن نرتاب في ذلك. ففي كل لحظة يبرز أهمية خواء التلاميذ قلباً وروحاً. إنهم لايفهمون، ولايؤمنون، ويتحلون بزهو صبياني، ويمنعون الأطفال من الدنو من (المعلم). وعندما يخاطبهم (يسوع) قائلاً: «نفسي حزينة جداً حتى الموت. أمكثوا هنا واسهروا» (مرقس ١٤/٣٢). ناموا. وعندما قبض على المسيح فروا ولم يرجع أي واحد منهم ليشهد معه. ولم يشعر (بطرس) نفسه «بمعنى ما هو الرب» وقال (يسوع): سمعان، سمعان، هو ذا الشيطان! وعلى الرغم من وعوده الجميلة فقد أنكر (معلمه) بجبن. ولما كان (يسوع) عالماً بكل شيء فقد تنبأ بإنكار (بطرس) وبفرار الآخرين وقال: «ستسقطون جميعاً» (لوقا ٢٢/٣١). لابأس! فالآب هو الذي «أعطاه» تلاميذه: ومهما بلغ جبنهم «فهم لايستطيعون أن يهلكوا».

وكما أن بعض الناس هم مختارون سلفاً فإن غيرهم آيلون إلى الشر. إنهم لايستطيعون الإيمان. لايستطيعون الامتناع عن فعل الشر إنهم أبناء ابليس.

يقول (يسوع) لليهود: «ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي» (يوحنا ١٠/٢٦).

وهو يصرح كذلك متنبئاً بجرائمهم عن يقين: «ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة» (متى ٢٣/٣٤).

إنكم ستقتلون! كيف يستطيع (يسوع) إعلان هذه الجرائم بيقين؟ ذلك أن اليهود الذي لم «يُعطوا» له هم أبناء ابليس: «أنتم من أب هو ابليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتّالاً للناس من البدء» (يوحنا ٨/ ٤٤).

واليهود، أبناء ابليس، (وبوجه أعم جميع البشر الذين ليسوا من الله) لايستطيعون سماع الكلام: «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجتُ من قَبِل الله وأتيت. لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني. لماذا لاتفهمون كلامي «لأنكم لاتقدرون أن تسمعوا قولي» (يوحنا ٨/٤٢).

«إنكم لاتقدرون»: إن المذهب يتأكد بحزم. وقد ألحف (يسوع) قائلاً وكأنه يدرأ أي لبْس: «الذي من الله يسمع كلام الله. لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» (يوحنا ٨/٤٧) وكذلك يقول: «تموتون في خطيئتكم وحيث أمضي أنا لاتقدرون أنتم أن تأتوا» (يوحنا ٨/٢١).

وعلى هذا النحو لايستطيع بعض الناس إلا أن يخلصوا، ولكن غيرهم لايقدرون على سماع الكلام ولايستطيعون إتباع المسيح. الخلاص لفريق، والهلاك لفريق، والأمران كلاهما يشكلّان. جزأين من الخطة الإلهية على قدر سواء: «ينبغي أن ابن الإنسان يتألم كثيراً ويُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة» (لوقا ٩/٢٢). ينبغي أن يُصلب (يسوع) في (أورشليم) «لأنه لايمكن أن يهلك نبي خارجاً عن أورشليم» (لوقا ١٣/٣٣). ولئن لم يؤمن اليهود فذلك «حتى» تتحقق نبوءة (اشعيا). يقول الإنجيل الرابع: «لم يقدروا أن يؤمنوا لأن (أشعيا) قال أيضاً: قد أعمى عيونهم» (يوحنا ١٢/٣٨ - ٣٩).

ويتجلى هذا المذهب بوضوح في قصة (يهوذا). فالإنجيل الرابع يرى أن (يهوذا) لص. ولكن سرقاته، مهما بلغت حقارتها، لاتعدل بخطرها إنكار (بطرس). زد على ذلك أن (بطرس) يبكي بعد خطيئته ولكنه يحترس من التدخل لصالح (المعلم). أما (يهوذا)، على العكس، فإنه يعيد إلى الكهنة الثلاثين قطعة من الفضة. وبذا لايبدو على أنه، من الناحية الأخلاقية، أدنى كثيراً من (بطرس). وعلى الرغم من ذلك فإن (بطرس) سيصبح رأس (الكنيسة)، وسيصبح (يهوذا) الخائن المكروه إلى الأبد. لماذا؟ ذلك أنه كان من اللازم أن يتحقق (المكتوب): «الذي يأكل معي الخبز رفع علي عقبه» (يوحنا ١٣/١٨).

إن خيانة (يهوذا) جانب ضروري من الخطة التي رسمها الله ولذا نجد (يهوذا) يصبح في اللحظة المناسبة ابن الشيطان. فقد دخله الشيطان. كيف؟ وبمن؟ لنسمع نص الإنجيل: سأل التلميذ الحبيب (يسوع): مَن سيخونه؟ فأجاب (يسوع): «هو ذاك الذي أغمس أنا اللقمة وأعطيه. فغمس اللقمة وأعطاها لـ (يهوذا سمعان الاسخريوطي). فبعد اللقمة دخله الشيطان» (يوحنا ١٣/٢٦ - ٢٧). وقد نسي كاتب هذا الإنجيل أنه قد أظهر من قبل أن الشيطان كان يوحي إلى (يهوذا) فكرة الخيانة. فلماذا هذا النسيان؟ لاريب في أن مردّ ذلك يرجع إلى أنه يريد أن يبين أن (يهوذا) أصبح ابن الشيطان فور تناوله اللقمة التي قدمها له (يسوع). فالأمر لايقتصر على أن كان من المقرر أن يخون (يهوذا) بل إن (يسوع) يحدّد بنفسه لحظة الخيانة ذاتها. وفوق ذلك، نجده يقول لـ (يهوذا): «ما أنت تعمله فأعمله بأكثر سرعة». ولهذا القول نكهة مفجعة حزنى على لسان شخص عادي يتعجل الخلاص مما لابد منه. ولكن هذا الإنسان هو رب! وهذا الرب الذي صلّى من أجل (بطرس) كان يستطيع أن يصلي من أجل (يهوذا!) غير أنه يستعيض عن ذلك بقوله: إعمله بأكثر سرعة. وفي معنى هذا التعجل يوجد معنى: إعمله! وقد أطاع (يهوذا) فهلك.

كيف نفسر مثل ذاك التسامح الكبير مع (بطرس) ومثل اللامبالاة الكبيرة بصدد (يهوذا)؟ إن السبب بسيط. ينبغي أن يرجع (بطرس) ويصبح رأس

الكنيسة، وينبغي أن يمضي (يهوذا) إلى غاية خيانته. وقد اختاره (يسوع) وهو يعرف أنه سيخون. (يوحنا ٦/٦٤ ـ ٧٠)؛ وسيكون مما يجانب المنطق أن يحتجزه في اللحظة القصوى، وإنما خان (يهوذا) ليتم ما في (الكتاب).

* * *

جلي أن ذاكم هو الأساس من الناحية الأخلاقية: إن الناس المختارين للخير سيثابون. والذين اختيروا للشر سيعاقبون عقاباً رهيباً.

لقد كُتب اسم (بطرس) وأسماء سائر التلاميذ في السموات، وسيجلس على عرش (لوقا ١٠/٢٠ و ٢٢/٢٩) و(متى ٢٦/٢٩). وعلى العكس، لاريب في إدانة (يهوذا): «كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد» (متى ٣٦/٢٤) و(مرقس ١٤/٢١).

وعبثاً كان نص أول يؤكد أنه حيثما لايوجد (نور) ولامعرفة بكلام الرب لايمكن توافر المسؤولية. فإن المذهب الثاني يؤكد عكس ذلك. إن اليهود لايقدرون علىالإيمان لأنهم أبناء ابليس. ويتدبر (يسوع) أمره على نحو أن يضرب أمثالاً من شأنها أنهم إذ يسمعونها لايفهمون. ولذا فإن «قسوتهم» إنما يريدها الله. ولن يكون في مكنة أي جهد يبذلونه أن يعرقل الخطة الإلهية. لا أهمية لذلك: إن مصيرهم أن «يُطرحوا إلى الظلمة الخارجية» (متى ٨/١٢). والفريسيون لايستطيعون سماع الكلم الطيب. لا أهمية لذلك. إن (يسوع) يقول لهم: «أيها الحيات وأولاد الأفاعي، كيف تهربون من دينونة جهنم؟» (متى ٢٣/٣٣).

على هذا النحو نلمس ظهور فكرة مسؤولية جمعية، في الإنجيل، ظهوراً مذهلاً للمرة الأولى.

ولئن انطوى المذهب الأول على مبدأ متين، فهو المبدأ القائل إن كل فرد يحكم عليه تبع عمله الخاص. وبذا يبدو أن مما يمتنع على الفهم قبول أن يشمل حكم إجمالي مدينة بأسرها أو شعباً كاملاً.

ولكن من الجلي أننا ما أن نعرف سلفاً أسماء الخراف في «القطيع الصغير»، أي أسماء المختارين، حتى يكون في وسعنا أن نحدّد سلفاً جميع الذين

لاتضم أسماءهم لائحة الخلاص. وما نفع فحص دقيق لأعمالهم؟ إنهم أبناء ابليس. وها هو ذا (يسوع) يتهدد في الواقع مدناً: «ويل لك يا كورزين. ويل لكِ يا بنت صيدا.. وأنتِ يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء. ستهبطين إلى الهاوية» (لوقا ١٠/١٣) و(متى ١١/٢١).

وكما أدان (يسوع) مدناً أدان إدانة شاملة كل «جيل» اليهود في عصره: «رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه» (متى ١٢/٤١). زد على ذلك: سيأتي على هذا الجيل، ونحن لاندري السبب، كل دم زكي سُفك على الأرض من دم (هابيل) الصديق إلى دم (زكريا بن برخيا) (متى ٢٣/٣٥) و(لوقا ١١/٥٠). وفوق ذلك: سيكون أبناء هذا الجيل مسؤولين عن جريمة آبائهم: قال اليهود حين انتزعوا من (بيلاطس) إدانة (المسيح): «دمه علينا وعلى أولادنا» (متى ٢٧/٢٥). ولم ينبس (كاتب الإنجيل) بأية كلمة احتجاج على مثل هذه الجملة! وقد التفت (يسوع) إلى النساء اليهوديات صائحاً: «يا بنات أورشليم، لاتبكين علي بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن...» (لوقا ٢٣/ ٢٨).

مرة أخرى مذهبان أخلاقيان.

الأول أساسه الحريّة الإنسانية والآخر القَدَر المسبق.

الأول يريد أن يلقى كل إنسان الكلام فيقبله بحريّة أو يرفضه. والآخر يميز أبناء الله الذين سيقبلونه بالضرورة عن أبناء ابليس الذين سيرفضونه حتماً.

الأول يفتح السماء لمن اختاروا طريق السماء. والآخر يفتح السماء لمن اختارهم الله لطريق السماء.

الأول يعاقب من اختار بحريّة رفض الإيمان أو صنع شراً. والآخر يعاقب الذين لم يؤمنوا لأنهم لم يكونوا يقدرون على الإيمان والذين صنعوا شراً، فعل (يهوذا)، حتى يتم (الكتاب).

الفصل الخامس

ضروب الجزاء

إن فكرة الجزاء من الأفكار التي يؤكدها الإنجيل في الغالب. ونحن نجد (يسوع) يعد في كل لحظة بثواب الأبرار. وهو في كل لحظة يتوعد الأشرار بالعقوبة. ولذا يبدو أن الأخلاق الإنجيلية تنادي في هذا المجال، على الأقل، بمذهب واحد: مذهب نفعي، ما دام الإنسان الصالح سيلقى في آخر المطاف ثواب فضيلته؛ وهو مذهب صارم مادام الشرير سيعاقب على خبثه، وكأن هذا المذهب وحيد هذه المرة.

غير أن الأمر خلاف الأمر. فما أن ننظر عن كثب في النصوص حتى تتلاشى الوحدة. وإذ ذاك نجدنا حيال عدد من المذاهب، أحدها يقدم للإنسانية الثواب والعقاب من النوع الروحي؛ والأخرى تقدم ضروب عقوبة في أشكال مختلفة ومن النوع المادي.

ـ ١ ـ

ضروب الجزاء الروحي: ١ ـ مكافأة الذي أتى الحقيقة هي أنه أتى إلى الحقيقة. ٢ ـ لايوجد حكم: إن بعث المختار يبدأ فور انتقاله من الخطأ إلى الحقيقة. ٣ ـ العقاب الوحيد لغير المختارين هو حرمانهم من هذا البعث الروحي.

إن المقاطع التي يعد فيها (يسوع) أتباعه «بالحياة» أو أيضاً بـ «الحياة الأبدية» مقاطع لاتحصى.

ولكن ما الحياة الأبدية؟

إن إنجيل (يوحنا) يجيب عن هذا السؤال إجابة واضحة الوضوح كله. يقول (يسوع): «وهذه الحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك و(يسوع المسيح) الذي أرسلته» (يوحنا ١٧/٣).

الحياة الأبدية إذن هي بالمعنى الدقيق معرفة الله، (النور). والحق أن إنجيل (يوحنا) يعلن منذ البدء: «والحياة كانت نور الناس» (يوحنا ١/٤) ويردف (يسوع) قائلاً فيما بعد: «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يوحنا ٨/١٢).

ولما كان النور هو الحياة، وكانت الحياة هي المعرفة، نتج عن ذلك أن كل من يؤمن وكل من يعرف الله ينال بذلك ذاته الحياة الأبدية.وهو ينالها في الدنيا، في هذا العالم، ولاينتظر عالماً آخر. إنه ينالها فور لحظة إيمانه. إنه يملك الحياة: إنه يبعث بدقة في لحظة انتقاله من الخطأ إلى الحقيقة. فعلينا ألا نتحدث بصدده عن حكم دينونة: إن من الممتنع أن يُحكم عليه. وأي حكم قد يمنحه الحياة الأبدية مادام يمتلكها سلفاً؟

إن هذه النتائج التي يوجبها المنطق يصوغها إنجيل (يوحنا) بدقة لاتدع مجالاً للشك.

«الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية» (يوحنا ٦/٤٧).

«من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية» (يوحنا ٦/٥٤).

«الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولايأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يوحنا ٥/ ٢٤).

إنه انتقل من الموت إلى الحياة، وبقول آخر، قد بُعث، مادام قوام البعث ترك الخطأ، والخطأ موت، من أجل الحقيقة، والحقيقة حياة. أما الدينونة فإن الله لم يرسل «ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم. الذي يؤمن به لايُدان» (يوحنا ١٧/٣).

إذن لاتوجد دينونة لمن كان برّاً، ولابعث قادماً: إن بعثه، وهو روحي، إنما يبدأ يوم إيمانه.

ويكاد أن يكون من الطبيعي ألا يتحلى الجسد بأهمية في مثل هذا التصور. فما دامت الحياة معرفة، فإن الجسد لايقدر على التطلع إلى الحياة. وليس في وسعه كذلك أن يولد مرة أخرى من علٍ، مثلما تنبعث الروح. لأن «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح» (يوحنا ٦/٣). وعلى هذا النحو يحذف (يسوع) الجسد عندما يتكلم على الحياة والموت حتى أنه يمضي إلى القول: «كل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» (يوحنا ٢٦/١١). فلو وجب فهم هذه العبارة على أنها تدل على الجسد لكانت عبثاً. إن (يسوع) يعلم حق العلم أن من الجائز أن يؤمن امرؤ به ويموت بالمعنى الجسدي. ولكنه لايدع للجسد شرف أن يتناوله هو بفكره: فمن يؤمن لن يموت أبداً لأنه يعرف الله، ولأن هذه المعرفة هي الحياة الأبدية.

إن الحياة بهذا المعنى هي انطلاق الروح: «وتعرفون الحق والحق يحرّركم» (يوحنا ٣٢/٨). إنها اتحاد بالله. «في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في أبي، وأنتم فيّ، وأنا فيكم». (يوحنا ٢٠/١٤). إنها محبة ووحدة لأن المختارين ليسوا «مقدسين في الحق» وحسب، بل إن (الآب) يحبهم وهم في (المسيح) و(مسيح) في الله) على نحو أن يكون الجمع «واحداً» (يوحنا ١٩/١٧ ، ٢٣). وفي هذه الوحدة الرائعة يكون ثوابهم.

* * *

فما هو، في هذا المذهب، عقاب اللامؤمنين؟ إنه لاإيمانهم.

أتراهم يدانون؟ لماذا؟ يقول (يسوع): «أما أنا فلست أدين أحداً» (يوحنا

١٥/٨). وكذلك: «وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه» (يوحنا ١٢/ ٤٧).

والحق أن ليس ثمة من موضوع للدينونة: «الذي لايؤمن قد دِين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة. إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور» (يوحنا ٣/١٨).

إنها فكرة جلية: إن الإنسان الذي يرجّح جانب الظلمات ليس بموضوع دينونة: ذلك أنه أدان نفسه بنفسه. أما عقوبته؟ فإنها تختلط بخطيئته: إنها تفضيله الظلمات. فما دام قد اختارها فإنه باقٍ فيها. وبينما ينعتق الآخرون بـ (النور)، يظل هو عبد الليل الذي فرضه على نفسه. ومن الجلي أن ليس ثمة اهتمام بجسده كما بجسد المؤمن. إن الجسد لاشأو له.

ثواب روحي، وعقاب روحي. أترانا نقدر على وصف هذا المذهب بالنفعية؟ إنني، شخصياً، أكره استعمال هذه الكلمة. وفي الواقع إن أجر الخير هنا الخير ذاته، ومعاقبة الشر هي الشر. وليس ثمة من حاكم يقضي بالثواب أو يوقع العقاب: وإنما تجري الأمور بالمنطق وحده، بقوة الأشياء. فمن يؤمن يملك الحقيقة: وأجره هو امتلاكها. ومن لايؤمن هو في الليل: وعقابه أن يكون في الليل. فليس أمام المؤمن من مكافأة غير إيمانه ذاته. ولايرقب الملحدَ عقابٌ سوى إلحاده. وبقول وجيز: إن ضروب الجزاء روحية، وروحية وحسب.

بيد أن ثمة ضروباً أخرى تتصل بالجسد.

ـ ٢ ـ

العقوبات جسدية: ١ ـ خلاص اسرائيل. ٢ ـ بعث الأجساد: فرح المختارين وعذاب المدانين. ٣ ـ الحسنات المادية التي يوعد بها المؤمنون في حياتهم الدنيا.

تُعلمنا نصوص كثيرة أن «الخلاص» الذي يأتي به (يسوع) للبشر هو

مجرد خلاص اسرائيل: فـ (يسوع)، وهو ابن (داود)، سينقذ شعبه ويحكمه. فالذين يؤمنون بـ (المسيح) يسهمون في مجده ويتبعونه في الأرض المتجددة. أما الخزي فسيقع على أعداء اسرائيل.

ويتأكد هذا التصور في مستهل إنجيل (لوقا): «هذا يكون عظيماً وابن العلي يُدعى ويعطيه الرب الإله كرسي (داود) أبيه ويملك على بيت (يعقوب) إلى الأبد، ولايكون لملكه نهاية» (لوقا ١/٣٢ ـ ٣٣).

ولقد تقدم (ابن داود) بنفسه أمام (بيلاطس) على أنه «ملك اليهود»، وأنه سيحقق خلاص جميع من ينتظرون «خلاص أورشليم»: إنه «عضد اسرائيل» وسينهض بها منجزاً مجد شعبه» (لوقا ٢/٣٨ و ٣٢) و(لوقا ١/٥٤). «صنع قوة بذراعه. شتّت المستكبرين بفكر قلوبهم. أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين. أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين» (لوقا ٢/٥١ ومابعد).

إن اليهود الذين سيخلصون من أعدائهم ومن أيدي مبغضيهم سيتبعون «ملكهم» (بقداسة وبرّ» (لوقا ١/٧١) ، ٧٤ ، ٧٥). وسيتحقق كلام الأنبياء: ويكون الرب قد حقق خلاص شعبه، وتحققت أيضاً كلمة «الموعظة على الجبل»: «الودعاء سيرثون الأرض».

* * *

وما من حاجة تدعو للقول إن تصور هذا النحو من الخلاص يعارض التصور الروحي الخالص الذي جاء في الإنجيل الرابع. إن خلاص اسرائيل ومجدها أمران زمنيان. وإن السعادة التي يوعد بها المختارون سعادة أرضية.

ولكن هذا الوعد يصطدم، فوق ذلك، بجميع تلك النصوص التي أشرنا إليها والتي تتوعد اسرائيل بمصير قاتم بدل الخيرات الخاصة المتميزة.

ونحن واجدون كذلك في الإنجيل نظرية أخرى تعِد، هي الأخرى أيضاً، بأفراح الجسد أو تتوعده بخشية العذاب، ولكنها تخاطب البشر كافة ولاتقتصر على الشعب اليهودي: إنها نظرية بعث الأجساد والدينونة. ولا نستطيع القول

إنها نظرية واضحة كل الوضوح في جميع نقاطها. فبعض النصوص، فيما يبدو، تدل فيما يتصل بالبعث على أنه وقف على الأبرار. ونصوص أخرى تفترض، على العكس، أن الدينونة تتناول الأشرار والأبرار سواء بسواء.

لنمض إلى هذا التصور الأخير.

فنحن نقرأ في إنجيل (يوحنا) أن البعث المذكور بعث للأجساد، وأنه يختلف كل الاختلاف عن «الحياة الأبدية». «وهذه مشيئة (الآب) الذي أرسلني. إن كل مَن يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الآخر» (يوحنا ١/٤٠ و ٤٤).

فللمختار إذن: ١ ـ بعث روحي عندما ينتقل من الخطأ إلى الحقيقة. ٢ ـ بعث آخر لايمكن إلا أن يكون بعثاً جسدياً عندما يبعث في اليوم الأخير.

وهذا البعث الأخير هو الذي ينكره الصدوقيون[٢١م]. ولكن (يسوع) يخالفهم في (المجمع). وعنده أن لامناص في الواقع من بعث الأجساد لأن من الواجب معاقبة فريق، ومكافأة فريق.

والحق أن هذا التصور الثالث ينطوي على فكرة دينونة تشمل الأمم قاطبة والبشر كافة. وسيجلس (ابن الإنسان) على كرسي مجده «ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم عن بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء. فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار» (متى ٣٢/٢٥).

فحيال هذه النظرية ما مصير النصوص التي كانت تعلن أن لن تكون دينونة؟ مامصير قول «الرب لم يرسل ابنه ليدين العالم؟». وما مصير كلمة (يسوع): «أما أنا فلا أدين أحداً؟» إن الإنجيل الرابع لايأبه لذلك. فهو لا يكترث بالتناقض وينسب إلى (المسيح) قوله: «إن الآب لايدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن» وقوله: «كما أسمع أدين ودينونتي عادلة» (يوحنا ٢٢/٥ ، ٢٧/٣٠).

إن مصير البشر رهن بالدينونة، مصير أجسادهم، لامصير أرواحهم وحسب. أما إذا كانوا جداءً، وملعونين؟ إنهم سيألمون بأجسادهم: «خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم» (متى ١٠/ ٢٨).

وفي نصوص لاتحصى مقاطع تلمح إلى الجحيم وإلى العذاب في جهنم، والأشرار سيكونون كالنباتات الطفيلية: «إن كان أحد لايثبت فيّ يُطرح خارجاً كالغصن فيجف ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق» (يوحنا ١٥/٦). «إنهم يُطرحون في جهنم في النار التي لاتطفأ، حيث دودهم لايموت والنار لاتطفأ» (مرقس ٩/٤٧ و ٤٣ و ٤٥) و(متى ١٨/٨ ، ٩) الخ. «ويطرحونهم في أتون النار. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ١٣/٥٠ و ٢٢/١٣ و ٢٥/٣٠ الخ). «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدَّة لابليس وملائكته» (متى ٢٥/٤١). وينسجم مع هذا المذهب المثل الذي يبين لنا الغني الشرير وهو «يتعذب في هذا اللهب» ويستغيث عبثاً برجاء نقطة ماء (لوقا ١٦/٢١).

إن ضروب العذاب التي تنتظر الأشرار هي إذن ضروب عذاب جسدية. والرب يبعث أجسادهم ولكن حتى تلقى هذه الأجساد عذاباً أبدياً. ويتحاشى الإنجيل وصف هذه الأصناف من العذاب بمثل التفاصيل المرعبة التي ستظهر فيما بعد. ولكنه يوضح، على الرغم من ذلك، بدقة تامة أنها آلام تصيب الجسد وأنها آلام أبدية.

ومثلما يلقى الأشرار العذاب في أجسادهم فإن الأبرار يتذوقون أفراحاً جسدية.

وإن النصوص التي تصف هذه الأفراح مبهمة إبهاماً يجعل من المتعذر بوجه عام الوثوق من تأكيد أن السعادة المعنية سعادة أرضية أم سماوية وهل أن «المختارين» سيحيون في السماء أم على الأرض المتجددة. ولكن من الثابت أنهم سيحظون بالسعادة الجسدية والتمجيد الجسماني. إن أجسادهم لن يطالها

الموت، وسيكونون كالملائكة (مرقس ١٢/٢٥) و(متى ٢٢/٣٠) و(لوقا ٢٠/ ٣٦). إنهم سيتألقون على نحو لم تعرفه الأرض و (يضيئون كالشمس» (متى ١٣/٤٣) وإن الأبرار (سيتكئون مع ابراهيم واسحق ويعقوب» (متى ١٣/١١) وسيشربون بصحبة المسيح «من نتاج الكرمة» (متى ٢٦/٢٩). يقول (يسوع): «وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي» (لوقا ٢٢/٣٠).

* * *

وتمضي نظرية أخيرة حتى إلى أن تعد المؤمنين بثواب مادي يلقونه في الحياة الدنيا.

يقول (يسوع): لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. «إن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها». إذن إذا كنتم تطلبون أول ما تطلبون ملكوت الرب وعدله فكل ذلك، أي الخيرات المادية، ستعطى لكم زيادة (متى ٦/٣٣ ومابعدها). لأن الرب يكسو زنابق الحقل أجمل الكساء، فلم لايفعل ذلك لأبنائه؟

وسيغدق (يسوع)، وهو (ابن الله)، هو أيضاً النعم الزمنية: به يتحول الماء خمراً، ويكثر الخبز، ويرى العميان، ويسمع الصمّ، وينهض المقعدون ويحملون فرشهم، وسيرجع الأموات إلى الحياة.

وأخيراً، إنه يعلن بوضوح تام أن الذين من أجل أن يتبعوه تركوا بيتهم أو حقولهم سيلقون هنا، في الدنيا، مئات أضعاف من البيوت والحقول[*].

إن الإيمان بـ (يسوع) وبالإنجيل لن يفيد المؤمن بأفراح جسدية وخيرات مادية في (ملكوت الرب) وحسب: بل إنه سيعود عليه بالبركات الزمنية منذ هذه الدنيا.

---

(٢) انظر فيما بعد الفصل السابع.

* * *

يتضح إذن أن الانطباع الأول بالوحدة في الأخلاق الإنجيلية في مسألة ضروب الجزاء هو انطباع مضلِّل. وهو يتلاشى على محك النصوص.

أجل إن الإنسان الصالح سيثاب. ولكن مكافأته، في مذهب أول، مكافأة روحية محضة: إن الحياة الأبدية الموعودة هي معرفة الله والمسيح. وبعبارة أخرى، إن أجر الإيمان هو الإيمان ذاته.

وفي مذهب ثان، على العكس، إن جسد الإنسان الصالح يُبعث ويضيء كالشمس والمختار يشرب الخمرة على مائدة المسيح؛ أو أنه أيضاً يحيا في مجد اسرائيل، أو إنه كذلك يلقى ثمن إيمانه خبزاً وخمراً وشفاءً وحقولاً وبيوتاً.

إن العقاب الوحيد لمن يفضل الظلمة على (النور) هو، في المذهب الأول، أن يكون في الظلمة، أي في الجهل؛ وفي المذهب الثاني يُحرم الشرير من البركات الزمنية، أو أيضاً يعاقب بأنواع العذاب الرهيب عقاباً أبدياً.

وبقول وجيز، ثمة مذهبان أخلاقيان يتعارضان في الإنجيل بصدد مشكلة الجزاء، مذهب هو مذهب الروح، وآخر هو مذهب الجسد.

الفصل السادس

احترام الحياة الإنسانية

لننتقل من الأخلاق المسماة نظرية إلى الأخلاق العملية: التناقضات ذاتها. إليكم مسألة الحياة الإنسانية.

هناك أخلاق تظل شهيرة وهي تمنعنا من الاعتداء بأي حال من الأحوال على حياة القريب وجسده. وهي تدين الحرب والإعدام، ولاترضى بمقاومة الشر بالقوة. وهي تنشد العذوبة اللانهائية، والعفو ثم العفو. وهي تجيب الذين يعترضون بأن مثل هذه الفضيلة تدعنا عزلاً تجاه أعدائنا: لاتخافوا مَن يستطيعون قتل الجسد، ولكنهم لايستطيعون قتل الروح. طوبى للمضطهَدين.

غير أن أخلاقاً أخرى تنهض في الإنجيل بإزاء هذه الأخلاق وهي تعلن: على من لايملك سيفاً أن يبتاع واحداً، وأن (يسوع) لم يأت ليلقي السلام بل السيف، وأن المذنبين يُسلّمون للقضاة، وألّا مجال للعفو عن المذنبين. إنهم سيلقون عذاباً أبدياً.

ـ ١ ـ

أخلاق أولى: على الإنسان أن يحترم حياة القريب ويبغض حياته: ١ ـ إن (يسوع) يدين القتل والحرب وعقوبة الإعدام. ٢ ـ علينا ألا نقابل الشر بالعنف، بل بالصفح. ٣ ـ علينا أن نفرح لدى الاضطهاد الذي يقع علينا وأن نبغض حياتنا.

إن مقاطع الإنجيل التي تذمّ القتل بوصفه جريمة بشعة مقاطع كثيرة لاتحصى. ولايقتصر (يسوع) على إقرار الأمر القديم: لاتقتل، بل إنه يعتبر غضبنا على إخواننا بدء قتل (متى ٥/٢١).

ومثلما يشكل القتل الجريمة الأولى فإن إسعاف القريب المهدَّد في حياته عمل متميز بالجدارة دون سائر الأعمال. ولما كان الإحسان يَشغل منزلة الصدارة جازت مخالفة السبت لانقاذ حياة إنسان، ومثال ذلك حال (السامري) الذي ينبغي اتخاذه أنموذجاً وهو يفرض للولوج إلى الملكوت إطعام الجائع، وسقي الظمآن، وعيادة المريض.

* * *

لاقتل، وإذن لاحرب.

تقول «الموعظة على الجبل»: «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون» (متى ٥/٩). وقد أصاب الأستاذ (برنو) في قوله إن ذلك لايعني موقف «استسلام» بل موقف «صانعي السلام». فـ (يسوع) لايدعونا للامتناع عن كل عنف وحسب، بل يريد أن نعمل على إقامة السلام بين الناس.

ولكن الحرب، على الرغم من جهودنا، أليست مما يتعذر اجتنابه أحياناً؟ أوليس من المشروع إذ ذاك استلال السيف؟ كلا. لاشيء البتة يستطيع تسويغ حركة قتل الإنسان. وعندما دنا (يهوذا) والجند من (يسوع) استل «واحد من الذين مع (المعلم) سيفه. فلو أن ضربة كانت تجد ما يسوّغها في الظاهر فإنما هي تلك التي تتوخى بالتأكيد الدفاع عن (ابن الإنسان) ضد خيانة امرئ وضلال آخرين. ولكن (يسوع) يحرص على أن يرفض إلى الأبد كل لجوء للعنف، وكل الحروب. ولذا قال: «ردّ سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون بالسيف، بالسيف يهلكون» (متى ٢٦/٥٢).

إن هذا النص جلي: فهو لايدين هذا المحارب أو ذاك، بل يشمل أي إنسان يلجأ للسيف لأي سبب من الأسباب. إنه لايردّ هذه الحرب أو تلك، هجومية أو دفاعية، بل يرفض الحرب.

* * *

إن عقوبة الإعدام تخضع للحظر الشامل الذي يرفض قانون المثل: «سمعتم أنه قيل عين بعين، وسنّ بسنّ. وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر» (متى ٣٨/٥). وعلى هذا ينبغي ألا يُعدم حتى القاتل ذاته.

وكذلك فإن اقتراف إثم تجاه الرب لايسوّغ عقوبة الإعدام. ولما رفض السامريون إيواء الرب غضب تلميذاه (يعقوب) و(يوحنا) وقالا:

«يا رب، أتريد أن نقول «تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل (ايليا) أيضاً؟» ولكن (يسوع) التفت إليهما ونهرهما وقال: «لستما تعلمان من أي روح أنتما. لأن ابن الانسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص» (لوقا ٩/ ٥٥).

وأخيراً نذكر قصة المرأة الزانية، القصة الشهيرة التي أُضيفت إلى إنجيل (يوحنا) إضافة لاحقة، وهي تبين أنه لايحق لأحد أن يطلق حكماً بالإعدام. إن المرأة المتَّهمة لم تنكر خطيئتها. ونص (الشريعة) الذي جاء عن الله نص جازم. لابأس! «مَن كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر» (يوحنا ٧/٨). وبما أن أحداً لايستطيع الزعم بحق بأنه «بلا خطية» فقد نجم عن ذلك امتناع إيقاع الاعدام بأي مذنب. زد على ذلك أن (يسوع) وحده ينفرد بأنه بلا خطية. فلو أخذنا قوله بالحرف لوجب أن يكون في وسعه أن يرميها بحجر. ولكنه عوضاً عن ذلك يخاطب المذنبة قائلاً: «ولا أنا أدينك».

* * *

ومن ناحية أخرى، ماذا نقول عن عقوبة الإعدام؟ ليس في مكنة إنسان البتة أن يوقع أية عقوبة بأي إنسان. ومهما كانت الخطيئة، أو كانت الجريمة، فإن علينا أن نغفر، وأن نغفر أيضاً.

يقول (يسوع): إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي» (متى ١٤/٦).

تقدم (بطرس) من (المعلم) وقال: «يا رب كم مرة يخطئ إلي أخي وأنا

أغفر له هل إلى سبع مرات؟ قال له (يسوع): لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات» (متى ٢١/١٨).

ألسنا نستطيع، على الرغم من ذلك، إذا أراد أحد قتلنا أو ضربنا أو سلبنا متاعنا أن نقاومه مقاومة مادية؟ أليس في وسعنا دون أن نسوقه إلى المحكمة أن نذود عن أنفسنا بالقوة ضد عدوانه؟ كلا. إن اللجوء إلى السيف محظور علينا سلفاً. ولكن (يسوع) يمضي إلى أبعد ويعلن في «الموعظة على الجبل»: «وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين» (متى ٣٩/٥).

إن شيئاً لايجيز لنا الاعتقاد بأن ذلك نوع من الغلو البلاغي، والتعبير عن مثل أعلى نظري. فالنظرية التي تأمرنا بالامتناع عن مقاومة الأشرار بل أن نعطيهم أكثر مما يريدون الاستيلاء عليه إنما هي نظرية ترتبط بالقانون الجديد الذي جاء به (المسيح): «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم... لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم؟ أليس العشّارون أيضاً يفعلون ذلك؟ وإن سلّمتم على أخوتكم فقط فأي فضل تصنعون؟ أليس العشّارون أيضاً يفعلون هكذا» (متى ٤٣/٥ ومابعد).

المبدأ وتطبيقه واضحان على قدر سواء. علينا أن نحب أعداءنا. وعندما نحبهم علينا أن نحترس من اللجوء إلى القوة ضدهم حتى لانكون نحن أنفسنا مجوساً ولاعشّارين.

* * *

سيقال: إذا اتخذ المسيحي شريعته في ألّا يقاوم البتة فإنه سيكون بالضرورة هدف الأشرار. ولكن الإنجيل لايتراجع أمام هذه النتيجة. ذلك أن الحياة ثمينة لدى الآخرين، ومحتقرة لدينا. فلنحذر مسعى الحفاظ على الحياة مهما كان الثمن: «فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها. وما يجد أحد نفسه

إلا إذا أهلكها من أجل المسيح» (متى ١٦/٢٥) و(مرقس ٨/٣٥) و(لوقا ٩/ ٢٤).

ثم إن قولنا إن على المسيحي أن يحتقر حياته قول قاصر: إن عليه أن يبغضها. «مَن يحب نفسه يهلكها، ومَن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية» (يوحنا ١٢/٢٥). إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض.. حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون تلميذاً للمسيح (لوقا ١٤/٢٦).

ولذا لا أهمية لما نتعرض له من جراء نظرية العفو اللامحدود ونظرية اللامقاومة من احتمال أن نصبح تحت رحمة الأشرار. فعوضاً عن أن نخاف ضرباتهم علينا أن نتعرض لها ونواجه الذين يستطيعون قتل الجسد «ولكن النفس لايقدرون أن يقتلوها» (متى ١٠/٢٨) و(لوقا ١٢/٤). ونحن سنألم بلا ريب لأننا «مثل حملان بين ذئاب» (لوقا ١٠/٣). ولكن (يسوع) يقول: «طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات» (متى ٥/١٠). وكذلك: «طوباكم إذا أبغضكم الناس وإذا أفرزوكم وعيّروكم وأخرجوا اسمكم كشرير من أجل ابن الإنسان. افرحوا في ذلك اليوم وتهلّلوا. فهو ذا أجركم عظيم في السماء» (لوقا ٦/٢٢) و(متى ٥/١١).

* * *

ذاكم هو أول مذهبي الأخلاق اللذين يعلّمهما الإنجيل في مجال الحياة الإنسانية. إنها أخلاق سامية ومنطقية أيضاً. ذلك أن القانون الذي يأمرنا بألّا نقاوم الشرير يمكن أن نأخذ به حرفياً منذ أن نحتقر حياتنا ذاتها.

وهذه الأخلاق المكثَّفة في صيغ جديدة مؤثِّرة ظلت خلال قرون تبعث النشوة في قلوب الناس حتى أصبحت اللغة الذائعة تدل على العذوبة التي تدعو إليها بعبارة العذوبة «الإنجيلية».

وعلى الرغم من ذلك فإن في الإنجيل أوامر أخرى، وروحاً أخرى.

ـ ٢ ـ

المذهب الأخلاقي الثاني: في وسع الإنسان أن يقتل في بعض الأحوال والفوز بحياته. ١ ـ من المباح أن يكون الإنسان جندياً، وفي مكنة المسيحي استعمال السيف. ٢ ـ إن (يسوع) يقرّ عقوبة الإعدام. ٣ ـ يتحدث (يسوع) عن الموت وآلامه الجسدية حديثه عن عقاب ويوصي بالفرار من الاضطهاد. ٤ ـ الجحيم ـ خاتمة.

إذا صحّ أن مَن يأخذ السيف يهلك بالسيف وجب إدانة المهنة العسكرية. وعلى الرغم من ذلك فإن الجنود لما جاؤوا إلى (المعمدان) وسألوه: «ماذا نفعل نحن؟» لم يقل لهم: «ألقوا سلاحكم، وارفضوا هذه المهنة الأثيم» بل اكتفى بالقول: «لاتظلموا أحداً ولاتشوا بأحد، واكتفوا بعلائفكم» (لوقا ١٤/٣). وعلى هذا فإن (يوحنا بن زكريا) يقرّ أن يكون المرء جندياً.

أجل إن (يوحنا) لايلزم (يسوع). ولكن قائد مائة من (كفر ناحوم) جاء إلى (المعلم) وطلب إليه معجزة. ولم يخف عنه أن له «جنداً تحت يده». بل إنه ألحف على دوره القيادي قائلاً: «أقول لهذا اذهب فيذهب، ولآخر ائتِ فيأتي». أترى (يسوع) يعيب عليه حمل السلاح؟ كلا. بل إنه يمنحه المعجزة المطلوبة بدل تأنيبه على وضعه ويضرب موقفه لليهود أنفسهم مثلاً على الإيمان: وإنما يمتدح الإنجيل خلف ثوب الجندي من يأتي من العامة مؤمناً. (متى ١٠/٧) و(لوقا ٩/٧).

نص آخر: يقول (يسوع): «وأي ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر في حرب لايجلس أولاً ويتشاور هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف الذي يأتي عليه بعشرين ألفاً. وإلا فما دام ذلك بعيداً يرسل سفارة ويسأل ماهو للصلح؟» (لوقا ٣١/١٤).

قال الأب (لاكرانج) في شرح هذا النص: «يبدو لي أن بلاد الملك محتّلة

وأن الذود عنها واجب مقدس» (القديس لوقا ص٤١١). ولكن النص لايشير البتة إلى أن الحرب حرب دفاعية. وهو أقل إشارة إلى أن الأمر أمر واجب مقدس، مادام الملك يتساءل هل يجب خوض المعركة أم لايجب. وبالمقابل، من الجلي أن (يسوع) يتحدث عن الحرب حديثه عن شيء سوي وبسيط. فإما أن تخاض غمارها أو لاتُخاض، وذلك تبع توافر القوى اللازمة أو لاتوافرها. وهذا المجال مجال أخلاق جد متواضعة، وليس في الجملة أية كلمة تلمح إلى أن مجرد القتال جريمة. وعوضاً عن تقديم الملك «الذي يقدم على الحرب» على أنه قاطع طريق فإنه يبدو بوصفه ملكاً عاقلاً حذراً يعرف أن النصر حليف الكتائب الأقوى.

ليست الحرب شيئاً سوياً وحسب، بل إن (يسوع) يقول بدقة: «أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض» كلا. بل انقساماً (لوقا ١٢/٥١). ويقول أيضاً: «لاتظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ماجئت لألقي سلاماً بل سيفاً. فإني جئت لافرّق الانسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها. وأعداء الإنسان أهل بيته» (متى ١٠/٣٤).

أجل، يمكن الظن بأن المسيحيين امتنعوا عن اللجوء إلى السيف في المعارك الناجمة عن مجيء (المسيح). ولكن نصاً في إنجيل (لوقا) يبرهن بوضوح على العكس.

يخاطب (يسوع) تلاميذه للمرة الأخيرة، وقبل أن يمضي إلى الموت عند اقتراب الصلب:

«قال لهم: حين أرسلتكم بلا كيس ولامزود ولا أحذية هل أعوزكم شيء؟ فقالوا: لا. «فقال لهم: لكن الآن مَن له كيس فليأخذه ومزود كذلك. ومن ليس له فليبعْ ثوبه ويشتر سيفاً»(*).

(*) يقرأ آخرون: من ليس له مزود وكيس فليشتر سيفاً.

«لأني أقول لكم إنه ينبغي أن يتمَّ فيَّ أيضاً هذا (المكتوب) وأحصي مع اثمةٍ لأن ماهو من جهتي له انقضاء».

«فقالوا: يا رب هو ذا هنا سيفان. فقال لهم يكفي» (لوقا ٢٢/٣٥ - ٣٨).

ومهما سعى الساعون إلى الإبهام فإن معنى هذا النص يبقى جلياً. فقد كان التلاميذ، بادئ ذي بدء، جماعات صغيرة دون كيس ولامزود ولاسيف لماذا؟ لأن (يسوع) كان هدف الاعتقال والإعدام بوصفه شريراً. ونظراً إلى أنه هو نفسه أراد أن يُعامل على هذا النحو فقد لزم له تلاميذ ضعفاء عزل مثله. ولكن ما يتصل بـ (يسوع) قد انتهى الآن مادام يشرف على الموت. ولذا يتغير كل شيء. فقبل الاستشهاد لم يكن التلاميذ يحتاجون إلى سيف حتى يتمَّ (المكتوب). أما بعد الآن فلا مناص من أن يتزودوا بسيوف مهما كلف الأمر، ولو باعوا في سبيل ذلك أرديتهم.

إن سيفين يكفيان في تلك اللحظة: وهذا أمر بديهي، مادام (يسوع) لاينوي مقاومة أعدائه. بل إن هذين السيفين نافلان. ولكن ينبغي على كل تلميذ، بعد الاستشهاد، أن يتزود بسلاح. ولما كنا لانستطيع افتراض أن هذا السلاح يستهدف الزينة وحسب، نرانا مضطرين لاستخلاص أن سيكون للمسيحيين، بعد موت (المعلم)، حق اللجوء للسيف. ولايتردد (لوقا) حين يروي قصة الاعتقال في أن يكرر جملة (متى): «الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون».

اننا إذن أمام مذهب أخلاقي لايقتصر على قبول أن يتسلح المسيحيون، بل يأمرهم بذلك.

* * *

والتناقض ذاته بصدد عقوبة الإعدام.

فقد كانت هذه العقوبة مرفوضة، وبشدة. ولكن ها هو ذا (يسوع)

يستشهد بالشريعة القديمة: «سمعتم أنه قيل للقدماء لاتقتل. ومَن قتل يستوجب الحكم».

إن العقوبة التي ينبغي أن تنطق بها المحكمة على القاتل هي عقوبة الإعدام. ولذا فنحن نحسب أن (يسوع) سيدين هذه القسوة ويقترح قانوناً ألطف. خطأ. إنه يمضي قائلاً:

«وأما أنا فأقول إن كل مَن يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومن قال لأخيه رَقا يكون مستوجب المجمع» (متى ٥/٢٢).

وعلى هذا النحو نجد أن (يسوع) لايقتصر على الامتناع عن رفض قانون الاعدام، بل إنه يقدّر أن التشريع العتيق مسرف اللين!

مثل آخر: يستشهد (يسوع) بقول (موسى): «من يشتم أباه وأمه فليمت موتاً». أتراه يدين هذا الأمر بوصفه مسرف القسوة؟ إن الواقع أنأى عن ذلك: إنه يأخذ على اليهود مخالفتهم الشريعة في هذه النقطة والتفافهم عليها (مرقس ٧/١٠).

لنضف إلى ما سبق مثل الكرّامين القتلة حيث يستعيض (صاحب) الكرمة عن العفو عنهم بأن «يهلك هؤلاء الأردياء رديّاً» (متى ٢١/٤١). وفي أمثولة (الوليمة) غضب الملك وأرسل جنوده وأهلك أولئك القتلة وأحرق مدينتهم. وفي أمثولة (العبيد) يفاجئ (السيد) العبد الردي «فيقطعه» (متى ٢٢/٧ و ٢٤/٥١).

إننا في صميم الأخلاق والتي تقرّ عقوبة الإعدام.

* * *

تضاد آخر، كانوا يقولون لنا: لاتخافوا مَن يستطيعون قتل الجسد! افرحوا وتهللوا بالاضطهاد! وها هو ذا (يسوع) ينظر إلى الموت والاضطهاد نظرته إلى شر ويوصي بالإفلات منهما ويعد تلاميذه بالنجاة منهما.

وعندما تحدث عن الجليليين الذين أعدمهم (بيلاطس) قال: «إن لم تتوبوا

فجميعكم هكذا تهلكون» (لوقا ١٣/٣). ولذا لم يبق الموت مكافأة ينبغي الفرح بها والتهليل طرباً. إنه عقوبة مَن يرفض التوبة والهدى.

عقوبات كذلك هي المصائب التي ترصد يهود (أورشليم) على الأرض. «ويقعون بفم السيف ويسبون إلى جميع الأمم وتكون أورشليم مدوسة من الأمم» (لوقا ٢١/٢٤). فعلى اليهود ألا يفرحوا لهذه الاضطهادات، «لأن هذه أيام انتقام ليتم كل ماهو (مكتوب») (لوقا ٢١/٢٢).

ولما أصبح الموت والآلام الجسدية شراً فإن (يسوع) شرع يوصي أتباعه بتحاشيها بدل قبولها بفرح. «ومتى رأيتم (أورشليم) محاطة بجيوش فحينئذٍ اعلموا أنه قد اقترب خرابها. حينئذٍ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال. والذين في وسطها فليفروا خارجاً. والذين في الكور فلا يدخلوها» (لوقا ٢١/ ٢١) و(مرقس ١٣/١٤) و(متى ٢٤/١٥).

وإليكم تناقضاً أقوى. كان (يسوع) يقول لتلاميذه: لاتحاولوا انقاذ حياتكم. طوبى للمضطهدَين. والآن يقول لهم: «متى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى» (متى ١٠/٢٣)(*).

كان يصيح: طوبى لكم ستكونون مبغوضين من أجل اسمي. بل كان يضيف قولاً صريحاً: «ويقتلون منكم بسببي». إنه الآن يعلن: «ولكن شعرة من رؤوسكم لاتهلك» (لوقا ٢١/١٦ و ١٨).

يقول الأب (لاكرانج) بصدد هذه الجملة الأخيرة (القديس توما ص ٥٢٦): «إن من العسير جداً توفيقها مع الإعلان عن الشهداء». والحق أن ذلك

(*) حاولت في دراستي عن «الانتحار والأخلاق» (باريز ١٩٢٢ ص١٢٧) البرهان فيما سبق على أن عبارة «اهربوا إلى الأخرى» لايمكن أن تكون نصيحة بالفرار. ولكن السبب الوحيد الذي كان يدفعني لذلك هو أن (يسوع) لم يكن في وسعه أن يمضي في التناقض إلى درجة أن يريد أن يطلب من المسيحي الإقبال على التعرض للإضطهاد تارة، وعلى تجنبه تارة أخرى. ولم أكن بعد قد درست أخلاق الإنجيل عن كثب.

عسير لأن إضفاء معنى روحي على كلمة تتصل بالشَعْر إنما يعدل إقحام دلالة جنونية على النص. ومن ناحية أخرى، يمضي (يسوع) في صفحات الإنجيل إلى الإكثار من حالات برء المرضى وتقويم الأجساد وإحيائها. إنه مثل (اسكولاب)(٢٢م) Esculape «منقذ» بالمعنى الأكثر مادية للكلمة. والحقيقة هي أننا نجدنا، مرة أخرى، حيال مذهبين أخلاقيين متعارضين: الأول يريد كره الحياة، ومن المنطقي إذ ذاك وعد المختارين بالموت والآلام. والآخر يقرّ حب الحياة، ومن المنطقي كذلك أن يعتبر الألم عقوبة والخلاص الجسماني ثواباً.

* * *

وثمة نقطة أخيرة يتأكد فيها تضاد هذين المذهبين الأخلاقيين بوضوح أعظم، بل وبما يشبه القسوة: إن المذهب الأول، وهو كثير الارتياب، يقتضي صفحاً لانهائياً. والآخر يبشّر بالجحيم.

لقد رأينا فيما سبق صنوف العذاب التي تنتظر الأشرار في أتون الجحيم، حيث الدموع وصرير الأسنان. ومن الجلي ـ وهذه سمة لاتكاد تحظى بالتصديق ـ أن المختارين سيشاهدون العذاب الذي سيقع بهؤلاء الأشرار، اخوانهم: وها هم أولاء ينسون كل إحسان وينظرون بعين راضية إلى جميع هذه الأنماط الرهيبة من العذاب.

ولم يخش (لوقا) تبيان هذا الأمر. فقد جعل (يسوع) نفسه هو الذي يتكلم. إن (يسوع) هو الذي يُظهر الغني لابس الأرجوان يذهب إلى النار ويرى (لعازر) الفقير في حضن (ابراهيم). وقد نادى الغني قائلاً: «يا أبي (ابراهيم)، ارحمني وأرسل (لعازر) ليبلّ طرف اصبعه بماء ويبرّد لساني لأني معذب في هذا اللهيب». ولكن (ابراهيم) يجيب: «يا ابني، اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك، وكذلك (لعازر) البلايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى أن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لايقدرون، ولا الذين من هناك يجتازون إلينا» (لوقا ١٦/٢٤ وما بعد).

وعلى هذا النحو نجد مذهب العذوبة الذي كان يدعو إلى الصفح ثم الصفح يتلوه الآن مذهب صارم يعد الإنسان بأن يشاهد، دونما اضطراب، ألوان العذاب تحيق بالقريب: لقد وجب على المختار إذا ما ولج (الملكوت) أن يبدّل أخلاقه!

* * *

في مجال مسألة عملية محضة توجد إذن قاعدتان، نظامان.

أخلاق تقول لنا: لاتقتل، لاتستل سيفك أبداً، لاتدن أحداً البتة. اغفر. لاتقاوم الشرير. أدر خدك الآخر. أبغض حياتك الأرضية وافرح بالاضطهاد يصيبك. وأخلاق أخرى تقول لنا: ابتغْ سيفاً. اقتل المجرم. اخش الاضطهاد واهرب منه.

أخلاقان، هل هذا هو كل مافي الأمر؟ إلآهان؟

هنا (يسوع) ابن الآب) الذي «تُشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين» (متى ٥/٤٥). وإن (يسوع) ليعرض نفسه للاضطهاد ويرفض الدفاع عن نفسه قائلاً فوق الصليب: يا أبتاه اغفر لهم!...

وهناك، (يسوع)، ملك حانق يسحق أعداءه، ويرسل جنوده ضدهم، ويقطّع عبيده، ويعلن في (أورشليم) عن أيام الانتقام وانتصار السيف ويطلب من الفقير (لعازر) أن يسمع إلى الأبد دون أن يتأثر صراخ الـمَدينين.

الفصل السابع

الثروة

الغنى شر، والفقر خير. الأول يقود إلى (الملكوت)، والآخر إلى الجحيم. وإذن ليفز الغني بالخلاص إذ يتصدق بأمواله كلها. وعندما يصبح فقيراً، ليحجم عن السعي لكسب رزقه بعمله: إن إخوانه سيعيشون ويعيش معهم، حين يضعون كل ما يملكون موضعاً مشتركاً، دونما اهتمام سدى بالغد.

هكذا قال (يسوع). ولكن، بإزاء هذه الأخلاق الجريئة، وهي تقف وقفة سامية في وجه المال، توجد في الإنجيل أخلاق أخرى: أخلاق تعتبر الملكية مشروعة، وتكتفي بصدقات محدودة، وتقبل أن يعمد الغني إلى تشغيل الفقراء، وتبيح التجارة، والقرض بالربا، وتمتدح الحيطة والحذر، وتمضي إلى أن تعد المسيحيين بثروات زمنية.

ـ ١ ـ

الأخلاق الشيوعية ١ ـ الثروة تقود إلى الجحيم، والفقر يقود إلى (الملكوت). ٢ ـ على الغني، بالصدقة، أن يتخلص من كل مايملك. ٣ ـ على تلميذ (يسوع) ألّا يبالي بكسب رزقه. ٤ ـ الشيوعية الإنجيلية. ٥ ـ الإحسان يسمو على النزاهة: (الاقتصادي) الغادر.

«لايقدر خادم أن يخدم سيدين: لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لاتقدروا أن تخدموا الله والمال» (لوقا ١٦/١٣) و(متى ٦/٢٤).

لماذا هذا التنافر؟

أولاً، لأن الثروة تستحوذ على قلب الإنسان وتستولي عليه وتشغفه: «لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً». وإن الاهتمام بالكسب يمنع الإنسان من سماع الكلمة. والثروة تجعل الكلام عقيماً (متى ٦/٢١ و ١٣/٢٢) و(لوقا ٨/١٤).

عندما دعا الملك في الامثولة إلى وليمته أولئك الذين اختارهم، أي عندما دعا (الرب) اسرائيل للخلاص، لماذا أخذ المدعوون يتملصون؟ «قال له الأول: إني اشتريت حقلاً وأنا مضطر أن أخرج وأنظره». وقال آخر: «إني اشتريت خمسة أزواج بقر وأنا ماضٍ لامتحنها».

فهذا الاهتمام بالخيرات الزمنية يغلق أمامهم (الملكوت): إنهم مدانون (لوقا ١٤/١٨) و(متى ٢٢/٥).

سبب ثان: إن الثروة بذاتها سيئة. والرغبة في الثروة تدنس الروح. يقول (يسوع) في إنجيل (لوقا)(*): «مال الظلم، مال ظالم» وإن الرغبة في الثروة هي إذن رغبة في الظلم. والجَشَع هو من الأمور السيئة التي تخرج من القلب وتدنس الإنسان. «سرقة طمع خبث مكر عين شريرة تجديف كبرياء جهل. جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان. (مرقس ٧/٢٢). إن الفريسيين الذين «يحبون المال» يجسرون على الاعتقاد بأنهم عادلون! ولكن الله يعرف قلوبهم. «إن المستعلي عند الناس هو رجس قدام الله» (لوقا ١٦/١٥). وما خان (يهوذا) (معلمه) إلا لأنه يحب المال.

(*) (لوقا ١٦/٩ ، ١١) يلاحظ الأستاذ (لوازي) أن نسبة الظلم تعني صفة الثروة، أية ثروة لأن «محب المال العادل لايوجد» (انظر: الأناجيل المتقاربة ج٢ ص١٦٢).

ولما كانت الثروة سيئة مرتين، لأنها تدنس القلب وتغلقه دون سماع الكلام فإن الأغنياء مدانون سلفاً: «ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم! ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون» (لوقا ٦/٢٤).

وهذا ماكان الأستاذ (برنو) «يدعوه «الوعيد» الرهيب في الإنجيل. وهو في الواقع رهيب لأنه لايصبّ اللعنة على الأغنياء غير الشرفاء، ولا على الأغنياء القساة. إنه يصبّها على الأغنياء أنفسهم الذين يكفي امتلاكهم ثرواتهم حتى يصبحوا ظلّاماً.

«كان إنسان غني وكان يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً. وكان مسكين اسمه (لعازر) الذي طُرح عند بابه مضروباً بالقروح. ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغني». مات هذان الرجلان. الفقير في حضن (ابراهيم)، والغني في جهنم. هل يعني ذلك أنه منع (لعازر) من التقاط فتات مائدته؟ إن النص يتحدث عن ذلك. ولكن الغني قد رفه ولبس الأرجوان: لقد كان غنياً. وإذن فهو مدان. ويكتفي (ابراهيم) في سبيل تسويغ إدانته بأن يقول له: «اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك، وكذلك (لعازر) البلايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب» (لوقا ١٦/١٩ وما بعد).

وينتج عن ذلك أن مجرد امتلاك الثروة واستعمالها يكفي لإدانة الغني بعذاب النار. وأن الحياة الآخرة أشبه بثأر يجعل البائس غنياً، والغني بائساً.

* * *

وبما أن الثروة سيئة، فالفقر، في الواقع، جيد.

يقول (يسوع) إنما الفقراء هم الذين يخاطبون الإنجيل. وعندما أرسل (يوحنا المعمدان) رجلين يسألانه هل هو حقاً (المسيح) المنتظر دفعاً لكل ريب أجابهما قائلاً اذهبا وأخبرا (يوحنا) بما رأيتما وسمعتما: العمي يبصرون، والعُرج يمشون، والموتى يقومون، والمساكين يُبشَّرون (لوقا/٢٢).

ولذا فإن الإنجيل (البشارة) يتجه إلى الفقراء، لا إلى الآخرين. وبهم خصت (الملكوت). ولذا فإن (لعازر) الفقير يلج ثمة بيسر ولا يقول (يسوع) إن

قلب الغني أقسى من قلب سواه، كما أنه لايقول إن (لعازر) وديع تقي صابر: إنه يذكر أنه فقير. وفقره وحده يحدّد مصيره في حضن (إبراهيم).

وقد جاء في الواقع ما يلي: «طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله! طوباكم أيها الجياع لأنكم تشبعون. طوباكم أيها الباكون لأنكم ستضحكون!» (لوقا ٦/٢١)(*).

وعندما رفض الأغنياء تلبية دعوة الوليمة بذريعة الإهتمام بثرواتهم بما لايدع لهم متسعاً من الوقت قال (ملك) الأمثولة لعبده: «اخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وأزقّتها وأدخِل إلى هنا المساكين والجدُع والعُرج والعمي!» (لوقا ١٤/٢١). ولاضير في أن يكونوا صالحين أو طالحين: يكفي أنهم فقراء، فالوليمة لهم.

إذن، تعساً للأغنياء، وطوبى للفقراء! والنتيجة العملية هي: لنمتنع عن السعي لكسب الثروة. وإذا كنا أغنياء، فلنجعل أنفسنا فقراء.

جاء في «الموعظة على الجبل»: «لاتكنزوا لكم كنوزاً على الأرض» (متى ٦/١٩) و(لوقا ١٢/٣٣). ويحكي (يسوع) في إنجيل (لوقا) المثل الآتي: «إنسان غنيٌ أخصبت كورته. ففكر في نفسه قائلاً: ماذا أعمل لأن ليس موضع أجمع فيه أثماري. وقال: اعمل هذا أهدم مخازني، وأبني أعظم، وأجمع هناك جميع غلّاتي وخيراتي وأقول لنفسي: يا نفس لكِ خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة. استريحي وكلي واشربي وافرحي. فقال له الله: يا غبي هذه الليلة تطلب نفسك منك. فهذه التي أعدّدتها لمنْ تكون؟ هكذا الذي يكنز لنفسه» (لوقا ١٢/١٦).

(*) في إنجيل (متى) (٥/٣) توجد الكلمة الشهيرة التي تُترجم في العادة: «طوبى للمساكين في الروح». فالنص الاغريقي يقول Ptochoi To Pneumati وقد ترجمه الأستاذ (برونو): «ذوو الحاجات الروحية». وأما أنا فأميل إلى ترجمته: «الفقراء للروح». فالفقر يهيء الإنسان لتلقي الروح أي لسماع الكلام. ومن البديهي أن الأمر لايتصل بالعوز الفكري.

قد يجيب الغني أن ما أعدّه سيكون لأبنائه. ولكن هذا الجواب الذي قد يصلح في بعض الأخلاق الأخرى لاشأو له هنا: بأي حق يورث المرء أبناءه ثرواته، أي وسيلة أكيدة للإدانة؟ وقد يتذرع أيضاً بأن ليس في اختزانه قمحه ظلماً. ولكن الاختزان نشدان الثروة، وهذا يقود مباشرة إلى هلاكه.

أتراكم ملكتم هذه الثروة دون أن تسعوا إليها؟ تخلصوا منها.

يقول (يسوع): «اعطوا ما عندكم صدقة» (لوقا ١١/٤١)(*).

ويقول أيضاً: «بيعوا مالكم وأعطوا صدقة» (لوقا ١٢/٣٣).

ركض شاب وجثا على قدم (الرب) وسأله: (أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟».

فقال له (يسوع): «أنت تعرف الوصايا: لاتزنِ، لاتقتل. لاتسرق. لاتشهد بالزور. لاتسلب. أكرم أباك وأمك».

فأجاب الشاب: «يا معلم، هذه كلها حفظتها منذ حداثتي».

فنظر إليه (يسوع) وأحبه(**).

وقال له: «يعوزك شيء واحد: اذهب بع كل مالك وأعطِ الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني!».

ولكن الشاب مضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة.

(*) يقول النص الاغريقي TA ENONTA وقد ترجمه الأستاذ (لوزاي): «اعطوا بحسب دخولكم». وقد رجع الأب (لاكرانج) إلى الآية (٣٩) وقال أعطوا ما يوجد في كأسكم وإنائكم. ولكن إذا فهمنا هذه الجملة على هذا النحو صارت جد صارمة لأنها تكاد تدل على ما يقال في اللغة الذائعة: «انزعوا اللقمة من فيكم». وأما أنا فأعتقد أن اللفظ الاغريقي يعني الثروة التي تملكونها، كما هي الحال في (أفلاطون) (الجمهورية ٤٨٨). وقد تفضل الأستاذ (برونو) وكتب لي أن هذا المعنى يبدو له أنه المعنى الجيد. قال: «لا أرى كيف يمكن فهم عبارة TA ENOTA في إنجيل (لوقا) بمعنى: ما تستطيعون، بحسب دخولكم».

(**) انظر فيما سبق الفصل الرابع.

فنظر (يسوع) حوله وقال لتلاميذه: «ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله!».

ولما تحير التلاميذ من كلامه أردف قائلاً لهم: «يا بني، ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله! مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» (مرقس ١٠/١٧) و(متى ١٩/١٦) و(لوقا ١٨/١٨).

وقد حاول كثيرون عبثاً أن يخفّفوا المعنى البديهي لهذه الحكاية المشهورة. ومهما يكن من أمر المناقشات الكثيرة يبقى ثقب الأبرة ثقب الابرة، ويبقى الجمل جملاً(*). فمن المحال إذن أن يدخل غني (الملكوت) إلا إذا تخلص من جميع مايملك صدقة.

ذلك أن من الواجب إعطاء كل شيء. وهذا هو الجانب الجديد في الأمر. فلو أن (يسوع) طلب من الشاب أن يتنازل عن نصف مايملك لكان قد اتبع وصيته بلا ريب. وليس من النادر أن نلفى في «العهد القديم» نصوصاً تأمر بالصدقة والإحسان. ولكن (يسوع) يطلب ترك كل شيء: «بعْ كل مالك» (لوقا ١٨/٢٢). فهو يقدم ذلك على أنه قانون جديد يضاف إلى شريعة (موسى)، وعلى أنه تعليمه الخاص، ومن دونه لايوجد خلاص. وليس بمجدٍ أن يعرف الشاب الوصايا وأن يتبعها بالامتناع عن القتل والسرقة والزنا. وعبثاً يكرم أباه وأمه. عبثاً يمتنع إلى الأبد عن الإساءة إلى أي إنسان: إنه يرفض بيع كل مايملك، فإذن هو مدان.

قد يقال إن توصية (يسوع) خاصة بنخبة وحسب. وربما لُفت النظر إلى أنه يعلن في رواية (متى): «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبعْ أملاكك» (متى ١٩/٢١). ولكن هذا المسعى لايثمر. أولاً: إن (متى) هو الوحيد الذي يقول: «إن أردت أن تكون كاملاً». ثم إنه، وقد قال ذلك، لايتردد في أن يضيف القول إن الغني لن يدخل (الملكوت) لأنه لم يطع.

(*) ان كلمة Kamelos قد تدل على معنى حبل مثلما تدل على معنى جمل. ولكن المعنى يظل هو هو.

ومن الأكثر خطراً أن يقول قائل أيضاً إن (يسوع) يخاطب تلاميذه وحدهم، وإن الشاب الغني يطلب أن يصبح أحد الصحابة المباشرين، أن يصبح حوارياً ثالث عشر، وأن ذلك هو ما يوجب عليه التخلص من جميع أمواله. إن الشاب لم يطلب شغل منزلة بين (بطرس) و(يعقوب): إنه يطلب ماذا ينبغي أن يفعل «لتكون له الحياة الأبدية». وهو إذ رفض الإطاعة لم يخسر لقب تلميذ بل خسر دخول (ملكوت) السموات.

يتضح إذن أن على الغني إن شاء الخلاص أن يتحرر بالصدقة من جميع ثروته. ها هو ذا يغدو فقيراً. أترى من الواجب عليه أن يعمل ليعيش؟ كلا. إن مدعوي (الملك) سيطردون من الوليمة لأنهم أرادوا العناية بأبقارهم وأرضهم. وعلى التلميذ أن يحترس من أن يحذو حذوهم.

فماذا يفعل؟ أيمارس التجارة؟ إن كلمة تاجر تعدل كلمة لص. وعندما طرد (يسوع) الباعة من (الهيكل) قال بصراحة: «مكتوب بيتي بيت الصلاة وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» (متى ٢١/١٣) و(مرقس ١١/١٧) و(لوقا ١٩/ ٤٦). ولاشيء في النصوص الإنجيلية يبين أن باعة (الهيكل) كانوا أقل أمانة من الآخرين. وإنما مجرد ممارسة المهنة في (الهيكل) قد توقعهم في اللاتقوى، ولكن لاتجعلهم لصوصاً. أما استعمال (يسوع) كلمة لصوص فإن ذلك يرجع، في نظره، بالبداهة إلى أن البائع لص من الناحية المبدئية.

وكذلك ليس في وسع المسيحي بالحري أن يشتغل في أعمال مصرفية. وعوضاً عن أن يقرض بالربا عليه أن يتوقع ألا يُرَّد إليه المبلغ الذي أقرضه: «وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأي فضل لكم؟ فإن الخطاة أيضاً يقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المثل» (لوقا ٦/٣٤).

أترى في وسع التلميذ أن يكسب رزقه بالتكريز بالإنجيل على الأقل؟ كلا أيضاً. يقول (يسوع): اكرزوا، اشفوا، أقيموا موتى، طهّروا، أخرجوا شياطين: «مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا» (متى ١٠/٨).

ورب سائل يقول: كيف السبيل إلى العيش إذن؟ ماذا نأكل؟ يجيب (المعلم): إن ذلك شاغل عامي؛ وعلى التلميذ أن يرغب عنه: «مرثا، مرثا، أنتِ تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة. ولكن الحاجة إلى واحد» (لوقا ١٠/٤١).

ويتوجه (يسوع) إلى تلاميذه بالكلمات الآتية التي أصبحت شهيرة: «لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون، ولا للجسد بما تلبسون. الحياة أفضل من الطعام. والجسد أفضل من اللباس. تأملوا الغربان. إنها لاتزرع ولاتحصد وليس لها مخدع ولامخزن والله يقيتها... تأملوا الزنابق كيف تنمو. لاتتعب ولاتغزل. ولكن أقول لكم: ولا (سليمان) في كل مجده كان يلبس كواحدة منها... فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون وما تشربون ولاتقلقوا، فإن هذه كلها تطلبها أمم العالم» (لوقا ١٢/٢٢ ومابعد).

ويتسق وهذا المبدأ ألّا يحمل الاثنا عشر عندما يذهبون ليكرزوا ملكوت الله، ألّا يحملوا معهم شيئاً: «لاتحملوا شيئاً للطريق، لاعصا، ولامزوداً، ولاخبزاً، ولافضة، ولايكون للواحد ثوبان» (لوقا ٩/٣). و(مرقس ٦/٨).

وعلى خلاف مايذهب إليه بعض المؤلفين الكاثوليك(*)، إن التوصية بالتجرد المطلق ليست وقفاً على التلاميذ وحدهم. ففي إنجيل (متى) إنما يخاطب (يسوع) من أعلى الجبل وأمام الجموع بما يقوله لتلاميذه كما جاء في إنجيل (لوقا)، وهو لايخفف من عباراته، بل يعلن بالعبارات ذاتها: «لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون.. انظروا إلى طيور السماء... تأملوا زنابق الحقل...» (متى ٦/٢٥ وما بعد).

فليست (مرثا) وحدها إذن، وليس التلاميذ وحدهم هم الذين ينبغي عليهم أن يتجردوا عن كل شاغل مادي. بل ينبغي على جميع المؤمنين أن

(*) كتب (شوالم) Schwalm في «معجم اللاهوت، مادة: شيوعية ح٥٧٧) إن التوصيات المتعلقة بعدم الاهتمام باللباس الخ موجهة إلى التلاميذ، لا إلى الجماهير».
إن ذلك يعني ببساطة التغاضي عن «موعظة على الجبل».

يعيشوا دون اهتمام بالغد. لأن أمم العالم، المجوس، هم الذين يهتمون بالطعام والشراب واللباس. أما المسيحي فإن له أفكاراً أخرى.

* * *

لم يأبه (يسوع)، وهو لايكترث بالمصالح المادية، بالدعوة إلى إصلاح اجتماعي، إلى تقسيم الأرضين. فتلك تفاهات لاتستحوذ على اهتمامه. وقد سأله واحد من الجمع: «يا معلم، قل لأخي أن يقاسمني الميراث» فأجابه (يسوع) دون أن يعبأ بالتحقق من الأمر: «يا إنسان، من أقامني عليكما قاضياً أو مقسّماً؟» (لوقا ١٢/١٣).

بيد أن (يسوع) كان مضطراً، على الرغم من لا اكتراثه، إلى أن يختار لذاته ولتلاميذه طريقة لحل مشكلة العيش العملية.

وقد اختار الشيوعية.

فلكي يغذي (المعلمَ) ومن يتبعونه، هناك صندوق مشترك. وإن (يهوذا) هو الموكل إليه أمره وهو المكلف بالشراء (يوحنا ١٢/٦ و ١٣/٢٦).

كيف يُمول هذا الصندوق؟ ليس بشغل (يسوع) ولابشغل (الاثني عشر). وما من نص يصف (يسوع) بممارسة مهنة ليحيا منها. وكان لدى اختيار تلاميذه ينتزعهم من طراز معيشتهم. وقد ترك (سمعان) و(أندراوس) شبكة صيدهما من أجل اتباعه (مرقس ١/١٦). وقال له تلاميذه كلهم: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك» (لوقا ١٨/٢٨) و(متى ١٩/٢٧). وكان المال الضروري للنفقات اليومية صادراً عن بعض النسوة اللواتي تبعن (المعلم). يقول (لوقا): «وبعض النساء كنَّ قد شفين من أرواح شريرة وأمراض. (مريم) التي تدعى (المجدلية) التي خرج منها سبعة شياطين. و(يونا) امرأة (خوزي) وكيل (هيرودوس) و(سوسنة) وأخر كثيرات يخدمنه من أموالهن» (لوقا ٨/٢ ، ٣).

إن (لوقا) لايذكر هل تعطي هذه النسوة كل ما تملكن. ولكن من الثابت أن كل مايقدّمن يُدفع للصندوق المشترك: وعلى هذا النحو فإن القطيع الصغير يمارس الشيوعية ويحيا دون أن يعمل ولايكترث بالغد.

* * *

هل يبلغ احتقار الثروة، بل الحقد عليها، مبلغ أن يبيح القيام بأعمال تضاد النزاهة، ولكنها تفيد الفقراء؟

هناك مقطع شهير في إنجيل (يوحنا) يبين المضي إلى هذا المدى.

«كان إنسان غني له وكيل فوُشي به إليه بأنه يبذّر أمواله. فدعاه وقال له: ماهذا الذي أسمع عنك. اعطِ حساب وكالتك لأنك لاتقدر أن تكون وكيلاً بعد. فقال الوكيل في نفسه: ماذا أفعل لأن سيدي يأخذ مني الوكالة. لست أستطيع أن أنقب، وأستحي أن أستعطي. قد علمت ماذا أفعل حتى إذا عُزلت عن الوكالة يقبلونني في بيوتهم. فدعا كل واحد من مديني سيده. وقال للأول: كم عليك لسيدي؟ فقال: مائة بثّ زيت. فقال له: خذ صكّك واجلس عاجلاً واكتب خمسين.

«ثم قال للآخر: وأنت كم عليك؟ فقال: مائة كرّ قمح. فقال له: خذ صكّك واكتب ثمانين».

فمدح (السيد) وكيل الظلم إذ بحكمة فعل وقال: «لأن ابناء هذا الدهر أحكم من أبناء (النور) في جيلهم. وأنا أقول لكم: اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبدية» (لوقا ١٦/١ ومابعد).

ترجم كثيرون: «والمعلم (أي المالك) امتدح (الوكيل) غير الأمين» لأنهم لم يستطيعوا قبول امتداح (يسوع) إنساناً غير شريف. ولكن ماذا نربح حتى لو قبلنا هذه الترجمة (وهي مرفوضة في نظري)[*]؟ يبقى أن (يسوع) يحكي قصة إنسان اصطنع لنفسه أصدقاء بمال الظلم. وهؤلاء الأصدقاء متأهبون لاستقباله

(*) إن الكلمة اليونانية Kyrios قد تدل على معنى سيد الوكيل أو (يسوع) سواء بسواء. أضف إلى ذلك رغبة باحثين في استخلاص أن (يسوع) هو الذي يتكلم ويروي الأمثولة بأسلوب مباشر: وإذ ذاك كيف نفسر قوله (وهو يتكلم عن نفسه): «فمدح (السيد) وكيل الظلم؟». فلو فعل ذلك فكيف نفسر عودته من ثم إلى الأسلوب المباشر وقوله: «وأنا أقول لكم الخ»؟ ويبدو لي أن هذه الاعتراضات واهية: إن الحكاية بالمعنى الصحيح تنتهي بموضوع الصكوك. ولما انتقل (لوقا) من الحكاية إلى تطبيقها بدّل الاتجاه تبديلاً جد طبيعي. أما الأسلوب الذي يبدأ بأسلوب غير مباشر ←

في بيوتهم. إن هذا الإنسان لص. وعلى الرغم من ذلك يقدمه (يسوع) أنموذجاً يقتدي به المؤمنون بدلاً من ذمّه. يجب عليهم هم أيضاً أن يصنعوا لأنفسهم بأموال الظلم أصدقاء متأهبين لقبولهم في المظال الأبدية.

فإما أن تكون القصة كلها خلواً من المعنى، أو أنها تدل على أن في وسع المرء لدى إسعاف الفقراء أن يخالف أبسط قوانين النزاهة. لقد سلك وكيل الظلم سلوك «ابناء هذا الدهر» لأنه حين أراد إسعاف الوضعاء لم يستهدف سوى أن يحظى لنفسه بقبول مادي. أما المؤمن فإنه سيستهدف القبول في (ملكوت السموات). ولكن لكي يصنع لنفسه أصدقاء لقبوله في هذا (الملكوت) سيتصرف بحذر ويختلس لصالح الفقراء ثروات الظلم.

* * *

تلكم هي هذه الأخلاق الجريئة، ولكنها واضحة ودقيقة ومنطقية بذاتها.

إن الثروة سيئة وتقود إلى الجحيم. والفقر جيد ويقود إلى (الملكوت).

إذن: لنبعد عنا الثروة، ولنحيا في الفقر حياة مشتركة. لنحتقر العمل المأجور، ولنهزأ من الشواغل المادية، ولنقلّد الزنابق والطير.

بيد أن المال الحقير سيثأر لنفسه.

← «فمدح (السيد) الوكيل وقال...» ويمضي في أسلوب مباشر: «وأنا أقول لكم...» فقد يبدو أسلوباً غريباً في اللغة الفرنسية، ولكنه كثير الذيوع في اللغة الاغريقية... وبالمقابل، تصطدم الترجمة: «فمدح (السيد) وكيل الظلم (قائلاً) إن أبناء هذا الدهر أحكم (= أمهر) من أبناء (النور)...» تصطدم باعتراضين حاسمين: ١ ـ كيف نقبل استعمال المؤلف عبارة «أبناء (النور) »؟ ٢ ـ كيف نقبل أن يمدح الإنسان مَنْ سرقه؟ يقال إنه قد يُعجب بالمكر مع علمه بأنه ضحيته. ولكن منذ لحظة معرفته بالمكر فذاك يعني أن اللص قد كُشف أمره: فكيف يُعجب ببراعته؟ إنه لم يبق سوى غادر عادي ينتظره العقاب، ونحن لانفهم كيف يمدحه سيده. «فمدح (السيد) وكيل الظلم...» قد يثير دهشة المفسرين الذين لايقرون إمكان أن توجد في الإنجيل أخلاق تغاير أخلاقنا. ولكن هذه الترجمة هي الوحيدة التي تتسق مع جملة المقطع. (انظر على الرغم من ذلك كتاب (لوزاي): لوقا ص٤٠٨).

ـ ٢ ـ

الأخلاق المحافظة: ١ ـ ليس لازماً أن يعطي الغني كل أمواله. ٢ ـ ينبغي احترام الملكية. ٣ ـ شرعية عقد الإيجار، والتجارة، والقرض بالربا، والثروة. ٤ ـ امتداح الحيطة العملية. ٥ ـ (المسيح) يعد المؤمنين بالثروة في هذه الحياة الدنيا.

دخل (يسوع) لدى (زكّا) رئيس العشّارين، وهو غني جداً، وفجأة دنا (زكّا) من (المعلم) قائلاً «للرب»: «ها أنا يا رب أعطي نصف أموالي للمساكين، وإن كنتُ وشيت بأحد أردّ أربعة أضعاف» (لوقا ١٩/٨).

نصف أموالي! إننا نرتعد. نحسب أن (يسوع) سيجيب: يجب أن تعطي كل أموالك إذا أردت دخول (الملكوت)! وعوضاً عن ذلك نجد أن عرض (زكّا) يسره فيعلن: «اليوم حصل خلاص لهذا البيت». أما مِن الشاب الغني فالمطلوب أن يعطي ثروته كلها. ولكن (زكّا) قد نجا لمصلحته.

ويمضي الإنجيل إلى مدى أبعد: «من سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ فالحق أقول لكم إنه لايضيع أجره» (متى ١٠/٤٢) و(مرقس ١١/٤١). وهذه المرة، نحن نجدنا أمام نقيض الأخلاق القاسية السابقة. كان المرء لايدخل الملكوت إلا إذا أعطى أمواله كلها. وها نحن أولاء نرى أن أبسط عطاء، كأس ماء يُقدم في الوقت المناسب، يكفل الثواب!

* * *

وكذلك، لئن كانت الثروة المسماة ثروة الظلم، وذُكر وكيل الظلم أنموذجاً وقدوة، ففي وسعنا أن نقرأ في الإنجيل عشرين مقطعاً تدين السرقة. يستشهد (يسوع) تارة بـ (الشريعة) القديمة، ويحكي تارة أخرى أمثولات يُدان فيها اللصوص: أمثولة الكرّامين القتلة، أمثولة (السامري) الصالح.

إنه يصرح في إنجيل (لوقا): «الأمين في القليل أمين أيضاً في الكثير.

والظالم في القليل ظالم أيضاً في الكثير. فإن لم تكونوا أمناء في مال الظلم فمن يأتمنكم على الحق. وإن لم تكونوا أمناء في ماهو للغير فمن يعطيكم ماهو لكم؟» (لوقا ١٦/١١).

وعلى هذا يُعترف بالملكية من حيث المبدأ وبأن غير الشريف مُدان. إن الإرث مشروع. وعندما يرسل صاحب الكرم إبنه للكرّامين في الأمثولة قالوا له: «وهذا هو الوارث. هلّموا نقتله لكي يصير إلينا الميراث» (لوقا ١٠/١٤). ولكنهم عندما قتلوه اقترفوا جرماً سيعاقبون عليه. ومن السوي في الواقع أن تعود أموال الأب إلى الأبناء: إن أب الابن الضال يوزع ثروته بين أبنائه (لوقا ١٥/١٢).

* * *

ليس في وسع المالك أن يملك أمواله وحسب. بل في وسعه أن يؤجّر مايملك إلى عمّال مع احتفاظه بقسط من الأرباح، وأن يعيش على هذا النحو من عمل الآخرين. إن صاحب الكرم «يؤجره إلى كرّامين»، ويذهب إلى بلد غريب، ويطالب، عندما يحين الوقت بحصة من الثمار الخاصة به. ومن يمتنع عن تقديمها له هو لص.

والحق أن العقد قانون المتعاقدين. ويتضح ذلك بجلاء من قصة عمّال الساعة الحادية عشرة، وهي قصة شهيرة. اتفق رب بيت مع الفعلة على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه. فذهبوا وأخذوا يعملون منذ الصباح الباكر. وفي الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة خرج المالك واستأجر عمالاً آخرين لم يعملوا النهار كله بل إن منهم مَن عمل خمس ساعات، ومنهم من عمل ثلاثاً، أو عمل ساعة واحدة. فلما كان المساء لقي كل عامل ديناراً. فتذمر العمال الأولون قائلين: «هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر». فأجاب واحداً منهم: «يا صاحب ما ظلمتك: أما اتفقت معي على دينار. فخذ الذي لك واذهب».

لا اعتراض على ذلك مادام العقد مقدساً. ويمضي رب العمل قائلاً:

«فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. أوما يحلّ لي أن أفعل ما أريد بمالي أم عينك شريرة لأني أنا صالح». أجل، يستطيع عامل الساعة الأولى أن يجيب: أعطني دينارين لأن ما هو صلاح لرفاقي هو ظلم لي. ولكن رب العمل أغلق فمه سلفاً بقوله: «أو ما يحلّ لي الحق أن أفعل ما أريد بمالي؟» ذاكم هو أساس الأخلاق الرأسمالية (متى ١٠/١ وما بعد).

* * *

أما أن يكون العمل مأجوراً، فإن ذلك ينتج عن النصوص ذاتها. إن أحداً لايعترض على أي عامل من هؤلاء العمال الذين يشتغلون بالكرمة أو في الحقول بأنه على خطأ وبأن طيور السماء لاتزرع ولاتحصد.

ثم أن التجارة التي بدت كريهة فيما سبق أصبحت في أمكنة أخرى مشروعة. ويتحدث التلاميذ عن «ابتياع» الخبز حديثهم عن أمر بسيط كل البساطة (مرقس ٦/٣٦). وهم لايحسبون البتة أن عليهم أن ينتظروا هبة. وأن (يهوذا) مكلف بشراء ما تحتاج إليه الجماعة الصغيرة (يوحنا ١٣/٢٩). وقد أجابت العذارى الحكيمات العذارى الجاهلات اللواتي طلبن زيتاً لمصابيحهن: «اذهبن إلى الباعة وابتعن لكنّ» (متى ٢٥/٩). و(السامري) الصالح أعطى صاحب الفندق نقوداً. ففي وسع المرء إذن أن يتصل بالباعة لتأمين حاجاته. ولئن طردهم (يسوع) من (الهيكل) فإنه لم يطردهم من المجتمع.

زد على ذلك: أن الإنجيل يقرّ مضاربات الباعة إقراره شيئاً بسيطاً البساطة كلها: «يشبه ملكوت السماء إنساناً تاجراً يطلب لآلي حسنة. فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ماكان له واشتراها». ولاريب في أن جذله كان جليّاً. فاللؤلؤة حسنة كثيرة الثمن. ولكن التشبيه يفترض أن يكون حساب الباعة مشروعاً، بل حذراً (متى ١٣/٤٥).

ويردف (يسوع) قائلاً: «يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفياً في حقل وجده إنسان فأخفاه ومن فرحه مضى وباع كل ماكان له واشترى ذلك الحقل» (متى ١٣/٤٤). ولاريب في أن هذا الإنسان خبيث. إنه يعرف ماذا يشتري،

بل يعرف ذلك بإسراف: وعلى الرغم من ذلك، لايظهر في موضع قدح، بل في موضع اقتداء.

قد يقال: كيف نتاجر مادمنا لانملك الحق في المطالبة بما أقرضناه؟ وأية عملية نمارس إن كانت المطالبة بالعوض خطيئة؟ ولكن هذا كله يرجع إلى الأخلاق الأخرى. إن في مكنة الشخص الذي ندين له بالمال أن يعفينا من السداد. ولكن له حق المطالبة بماله (متى ١٨/٣٤). وينصح (يسوع) أتباعه بدفع ما عليهم من ديون: «حينما تذهب مع خصمك إلى الحاكم ابذل الجهد وأنت في الطريق لتتخلص منه لئلا يجرّك إلى القاضي ويسلّمك القاضي إلى الحاكم فيلقيك الحاكم في السجن. أقول لك لاتخرج من هناك حتى توفي الفلس الأخير» (لوقا ١٢/٥٨).

وثمة تناقض أشد أيضاً: لقد كان من المحظور أن نطالب بمبلغ أقرضناه. وها نحن أولاء تباح لنا المطالبة بفائدة مالنا وأن نحسن توظيفه.

دعا إنسان مسافر إلى الخارج عبيده وسلّمهم أمواله. فأعطى واحداً خمس وزنات، وآخر وزنتين، وآخر وزنة. كل واحد على قدر طاقته. فمضى الذي أخذ الخمس وزنات وتاجر بها فربح خمس وزنات أُخر. وهكذا الذي أخذ الوزتين ربح أيضاً وزنتين أخريين.

وأما الذي أخذ الوزنة فمضى وحفر الأرض وأخفى فضة سيده. وبعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم. فجاء الذي أخذ الخمس وزنات وقدّم خمس وزنات أُخر فمدحه سيده: «أيها العبد الصالح والأمين، كنتَ أميناً في القليل فأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيدك». ثم جاء الذي أخذ الوزنتين وربح وزنتين أخريين فمدحه سيده أيضاً. وأخيراً جاء العبد الثالث:

قال: «يا سيد عرفت أنك إنسان قاس تحصد حيث لم تزرع، وتجمع من حيث لم تبذر. فخفت ومضيت وأخفيت وزنتك في الأرض. هوذا الذي لك».

إن هذا الخطاب صريح لامجاملة فيه. ولكن عندما يأخذ العبد على

معلمه أنه «يحصد حيث لم يبذر» فإن نقده سليم: ذلك أن هذا المعلم يستغل عمل الآخرين ويربح فائدة مائة بالمائة. وإن الوزنة التي لم تُستثمر إنما عادت إليه ذاتها على الأقل. وعلى الرغم من ذلك، فإنه يغضب قائلاً: «أيها العبد الشرير والكسلان عرفتَ أني أحصد حيث لم أزرع وأجمع من حيث لم أبذر. فكان ينبغي أن تضع فضتي عند الصيارفة. فعند مجيئي كنتُ آخذ الذي لي مع ربا... والعبد البطال اطرحوه إلى الظلمة الخارجية!» (متى ١٤/٢٥ وما بعد).

يتضح إذن أن أقل ما يترتب على العبد هو أن يضع المال في مصرف: وإذ ذاك يستطيع سيده أن يستردّ ماله مع الفائدة. إننا بمنأى عن الطيور التي لاتحصد، وعن الزنابق التي لاتغزل ولاتنسج.

ولايبقى بعدئذٍ إلا أن نقول إن التلاميذ أنفسهم سيحق لهم تناول أجر ليكرزوا بالإنجيل. إن (يسوع) لايتردد. وعبثاً كان قد قال: «مجاناً أخذتم، ومجاناً أعطوا!». إنه يصرح الآن: «وأي بيت دخلتموه فقولوا أولاً سلام لهذا البيت... وأقيموا في ذلك البيت آكلين وشاربين مما عندهم لأن الفاعل مستحق أجرته» (لوقا ٧/١٠).

وعلى هذا فإن الرسول يذهب على الطريق من دون مال ولامزود. ولكن غرضه لايمثل في ممارسة الفقر، بل ليظهر لامبالاته بالشؤون المادية. ولأن من الواجب أن يُقدّم له الطعام لأنه يعرف أن في مكنته المطالبة به: «لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولانحاساً في مناطقكم، ولامزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا. لأن الفاعل يستحق طعامه» (متى ٩/١٠).

* * *

إننا إذن وسط عالم يُعدُّ الملكية شرعية، وحيث يعمل الناس ويتاجرون ويعيش الكاهن من المذبح وينظر إلى الخادم الذي يدع المال «ينام» عوضاً عن توظيفه نظرته لبائس. هل ثمة حاجة للإدلاء ببرهان أكبر على أن الأخلاق السائدة في جميع هذه المشاغل تقرّ شرعية المصالح المادية؟

كانوا يسخرون من (مرثا) لاهتمامها بالمال: «أية امرأة لها عشرة دراهم

إن أضاعت درهماً واحداً ألا توقد سراجاً وتكنس البيت وتفتش باجتهاد حتى تجده. وإذا وجدته تدعو الصديقات والجارات قائلة إفرحن معي لأني وجدت الدرهم الذي أضعته» (لوقا ١٥/٩).

وأخيراً فإن (يسوع) يوصي بالفقر، يأمر به. ولكن ها هو ذا يعِد بالثروة، ويقدم بيوتاً وحقولاً لمن اتّبعوه: أجل إن الناس سيضطهدونهم ولكنهم سيصبحون أثرياء في آخر المطاف.

وفي إجابته عن سؤال (بطرس) ينهض (المعلم) بهذا الوعد. يقول (بطرس). ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك. وفي إنجيل (متى) نجده يضيف بشيء من الغلظة: «ماذا سنربح؟».

فأجاب (يسوع): «ليس أحد ترك بيتاً أو أخوة.. أو حقولاً.. لأجلي ولأجل الإنجيل إلا ويأخذ منه ضعف الآن في هذا الزمان بيوتاً وأخوة وحقولاً مع اضطهادات. وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية» (مرقس ١٠/٢٨).

وفي إنجيل (لوقا) لايشار حتى إلى الاضطهاد...! «ليس أحد ترك بيتاً... من أجل الله إلا ويأخذ في هذا الزمان أضعافاً كثيرة وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية» (لوقا ١٨/٢٩).

ينجم عن ذلك أن كل من سيتبع (يسوع) يحسن صنعاً بالربح من الناحية المادية. فهو لن تكون له الحياة الأبدية وحسب. بل سيكون له عوضاً عن بيت أو حقل قد يفقده مائة بيت أو حقل. وليس المقصود هنا بيوتاً وحقولاً رمزية، بل بيوتاً وحقولاً سيملكها في الدنيا، «الآن، وفي هذا العالم» كما يقول (مرقس) الذي يلحف في الإيضاح وكأنه كان يشعر بما تنطوي عليه هذه الجملة إذا ما قورنت بغيرها من أثر مذهل ضمن الإنجيل.

* * *

ولكن، سواء أكانت مذهلة أم غير مذهلة فإن العبارة موجودة هناك وهي تنير مباشرة الثنائية الأخلاقية التي طالعتنا في كل صفحة.

هنا يدين (يسوع) الثروة بوصفها أداة دينونة، وهو يأمر بالفقر، الفقر المطلق، الاحتقار التام لكل مايمكن أن يتحلى بنفع مادي. وهناك نجده يقبل العمل والملكية والتجارة والقرض بالربا ويعد مَنْ يتبعه بأنه سينال حقولاً وبيوتاً.

من جهة أولى أخلاق طير السماء الزنابق. ومن جهة أخرى، أخلاق الدرهم العائد بعد ضياعه، والمال الموظَّف، والثروة المكتسبة.

الفصل الثامن

الأسرة

التناقض عين التناقض نجده في الأخلاق المتصلة بالأسرة.

أنبحث أمر الزواج؟ إن الإنجيل يعلن عظمة الوثاق الزوجي وقدسيته ويريد أن يكون متعذر الحلّ. ولكنه يعلن بمثل هذا الوضوح رجحان العزوبة ويبيح الطلاق ويطلب من الزوج أن يترك زوجه ويبغضها.

وإذا تناول الأمر علاقات الآباء بالأبناء؟ إن الإنجيل يبجّل الأسر الخصيبة ويريد أسراً يحب فيها الأب أبناءه ويحترم الأبناء أباهم. ولكنه يعلن مجيء أيام سيقال فيها: طوبى للمقيمين! ويطلب إلى المؤمن أن يبغض أباه وأمه وأطفاله.

ـ ١ ـ

مذهبا الأخلاق المتصلين بالزواج: ١ ـ الزواج مؤسسة إلهية يتعذر حله. ٢ ـ العزوبة أفضل من الزواج، ومن الجائز حل وثاق الزوجية. وينبغي على تلميذ (يسوع) أن يترك امرأته ولن يظل المرء بعد البعث زوجاً أو زوجة.

«من بدء الخليقة ذكراً أو أنثى خلقهما الله. من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته».

هكذا تكلم (يسوع) نفسه وهو يستشهد بنص سفر التكوين وبعدئذٍ يلحف ويكرر قائلاً: «يكون الاثنان جسداً واحداً. إذن ليسا بعد اثنين بل جسد واحد» (مرقس ١٠/٦) و(متى ١٤/٤).

ولايمكننا أن نعلي منزلة الزواج فوق ذلك لأنه يبدو إنجاز الإرادة الالهية وما دام الله ذاته هو الذي أمر بالعلاقة الصحيحة بين الرجل والمرأة.

وبحسب هذا المذهب، يتحدث (يسوع) عن الزواج حديثاً إيجابياً ويبجّله فعلاً وقولاً. ولما دعي إلى عرس (قانا) لم يمتنع عن قبول الدعوة بل شبّه نفسه بالعريس يحيط به أبناء العرس وقال: يشبه (ملكوت السموات) عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس. وهكذا «يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه» (يوحنا ٢/١) و(مرقس ١٢/١٩) و(متى ٢٥/١ و ٢٢/٢) الخ.

ليس الزواج وثاقاً مقدساً وحسب. بل إن الإنسان لايستطيع حلّه. وقد سأل الفريسيون (يسوع) «هل يحل للرجل أن يطلق امرأته؟» ولكنه أجابهم: «ماذا أمركم (موسى)؟» قالوا: «أباح موسى كتاب طلاق فقال لهم (يسوع): «من أجل قساوة قلوبكم أُذن لكم أن تطلقوا نساءكم».

وهكذا أظهر (يسوع)، بعد عدم اعترافه بـ (موسى) أن الوثاق الزوجي إنما أراده الله نفسه. وقد أدان الطلاق إدانة تامة، وفي جميع الأحوال، في الصيغة الشهيرة: «إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لايفرّقه إنسان» (مرقس ١٠/٩).

الكلام دقيق. وعلى الرغم من ذلك فإن (يسوع) يرجع إلى الموضوع وكأنه كان يتحاشى كل سوء تفاهم:

«ثم في البيت سأله تلاميذه أيضاً عن ذلك فقال لهم: من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزني عليها. وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر زنت» (مرقس ١٠/١٢). ومثل هذا التصريح نجده في إنجيل (لوقا): «كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني. وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزني» (لوقا ١٦/ ١٨).

يتضح إذن أن الزواج ليس وثاقاً مقدساً وحسب، بل إنه وثاق لايستطيع الإنسان حلّه بحال من الأحوال. فمن يتزوج يدخل في المقاصد الالهية. ومن يفسد الزواج يتعدى حقوق الله. والأسرة ذات أساس أخلاقي. وهو أساس متين.

ولكن إليكم مايزعزها أو يهدمها.

* * *

الزواج من إرادة الله؟ وهم. إنماالعزوبة هي مايريد الله.

يقول (يسوع) لتلاميذه: «ليس الجميع يقبلون هذا الكلام، بل الذين أُعطي لهم. لأنه يوجد خصيان وُلدوا هكذا من بطون أمهاتهم. ويوجد خصيان خصاهم الناس. **ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات**. مَن استطاع أن يقبل فليقبل». (متى ١٩/١١).

إن الإنذار المتضمن في هذه الجملة يحملنا على أن نفهم دونما عناء كبير: إن (يسوع) لايطلب من تلاميذه أن يخصوا أنفسهم مادياً. بل يطلب إليهم أن يقضوا على كل الرغبات الجسدية لديهم وأن يمارسوا العفة. ولذا لم يبق الزواج هو المقصود في الخطة الإلهية، بل العزوبة.

والواقع أن الزواج يبدو في إنجيل (لوقا) على أنه أحد أسباب عزوف المدعوين عن الخلاص شأنه شأن العمل والتجارة. ولقد أجاب مدعوو (الملك)، كما ذكرنا قائلين: «إني اشتريت حقلاً وأنا مضطر أن أخرج وأنظره.. وقال آخر: إني اشتريت خمسة أزواج بقر وأنا ماضٍ لامتحنها». ولكن الثالث يصرح قائلاً: «إني تزوجت بامرأة فلذلك لا أقدر أن أجيء» (لوقا ١٤/٢٠). وقد قيل عن هذا الأخير كما قيل عن الآخرين إنه سيطرد من الوليمة الالهية: ولم يكن عليه إلا أن يخصي نفسه من أجل (ملكوت السموات).

* * *

الزواج لايُحلّ؟ بلى.

أولاً: يمكن أن يحلّ الزواج بموت أحد الزوجين. ومن المباح التزوج مرة ثانية، وثالثة، وأكثر. ولم يحتجّ (يسوع) على حالة المرأة التي حدّثه عنها الصدوقيون وقد تزوجت سبع مرات (مرقس ١٢/١٩) و(متى ٢٢/٢٤) و(لوقا ٢٠/٥٨).

أضف إلى ذلك أن ثمة نصين شهيرين في إنجيل (متى) يعلنان أن الطلاق مباح عندما تكون الزوجة زانية.

يتكلم (يسوع) قائلاً: «مَن طلق امرأته **إلا لعلة الزنا** يجعلها تزني (حرفياً: لأنها زانية) ومَن يتزوج مطلقة فإنه يزني» (متى ٥/٣٢).

وفي مكان آخر: «وأقول لكم مَن طلق امرأته إلا **بسبب الزنا** وتزوج بأخرى يزني» (متى ١٩/٩).

وبما أن الكنيسة الكاثوليكية انحازت إلى ماجاء في إنجيل (مرقس) أي ضد الطلاق، **حتى في حالة الزنا**، فقد أنفق المفسرون الكاثوليك(*) كنوز براعتهم المرهفة أمام دقة العبارة القاطعة.

إن (يسوع) يعلن في إنجيل (مرقس) أن ليس في وسع الرجل في أية حال

(*) تُعتبر المسألة في نظر الكاثوليك «من أقسى صعاب العهد الجديد» (معجم اللاهوت مادة: زنا ج٢٢٦). فبعضهم يرجعها إلى خلل في النسخ، وآخرون إلى «مجرد تعثر في الأسلوب». بعضهم يرىأن كلمات (متى): «إلا بسبب الزنا» تعني: إلا في الحالة التي يعيش فيها الرجل والمرأة خدنين بدون زواج. وهذا كله ليس بجاد.
أما اليوم فإنهم يلحفون بوجه خاص على دليلين:
١ - يقول (يسوع): «مَن تزوج بامرأة مطلقة يزني». إنه يقول «مطلقة بوجه عام، ولايقول مطلقة **بريئة**. ولذا فإن الرجل الذي يتزوج بامرأة مطلقة **مذنبة يزني**. **فإذا اقترف إثم الزنا فمرد ذلك أن المرأة، على الرغم من أنها مذنبة ومطلقة، تظل مرتبطة بزوجها. ولكن زوجها يظل إذا ذاك مرتبطاً بها. وعلى هذا النحو فإن (يسوع) يقصد أنه حتى عندما تُطلق امرأة مذنبة** ـ وللمرء حق فعل ذلك ـ فإن الرجل يظل زوج المرأة أمام الله، ولذا يمتنع عليه أن يتزوج بأخرى. أترانا نرفض هذا التفسير؟ ←

← ينتج عن ذلك أن الرجل لايستطيع تزوج المرأة المطلقة **البريئة**، بل يستطيع الزواج بمطلقة **مذنبة**، وهذا يعدل تشجيع الزنا.

٢ ـ إذا كانت كلمات «إلا بسبب الزنا» توجد في نهاية الجملة، وبعد عبارة «تزوج بأخرى» فإن الاستثناء الذي يقره (يسوع) يتناول شطري الجملة معاً، وإذ ذاك يجب أن نقرأ على النحو الآتي: إن من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني، إلا إذا كانت المرأة ذاتها زانية. ولكن الاستثناء يوجد في الواقع **قبل** كلمتي «ويتزوج بأخرى». ولذا يجب أن نقرأ على النحو الآتي: مَن يطلق امرأته إلا بسبب الزنا يزني. ومن يتزوج بأخرى يزني (في جميع الحالات).

إن هذا بارع ولكنه واه.

١ ـ إن (يسوع) يمنع الزواج بامرأة مطلقة، بريئة أو مذنبة. ولكن هذا سهل على الفهم. إن مَن يتزوج بمطلقة **بريئة** يزني (والزنا يقع بها) لأن المطلقة البريئة تبقى امرأة زوجها. ومن يتزوج بمطلقة **مذنبة** يزني لأنه يتصل بامرأة ظلت هي ذاتها زانية. ذلك أن خطيئة المرأة تحرّر زوجها ولكن خطيئتها لاتبرئ بالطبع المرأة ذاتها. وإن الزواج بها بعد طلاقها يعدل اقتراف زنا كزناها. (انظر رسالة القديس بولس الأولى إلى كورنثوس ١٦/٦: من التصق بزانية هو جسد واحد).

صحيح أن (يسوع) يقول: «مَن طلق امرأته **إلا بسبب الزنا** وتزوج بأخرى يزني». إن الاستثناء المعني يوجد إذن بعد الشطر الأول من الجملة، وليس بعد الشطر **الثاني**. ولكن لايمكن أن يوجد إلا في هذا المكان. وفي الواقع، لنتخيل أن (يسوع) قال: «مَن طلق امرأته وتزوج بأخرى، إذا لم يكن بسبب الزنا، يزني». فالجملة ستكون مضحكة بدل أن تكون واضحة. فماذا يعني «تزوج بأخرى إن لم يكن بسائق الزنا؟». من الجلي أن (يسوع) يعني مبدئياً أن مَن يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يقترف الزنا ولكن عندما تقع هذه الجملة في حالة أن الطلاق يرجع إلى سبب زنا المرأة. ولذا كتب على نحو منطقي كل المنطق: «من يطلق امرأته (إلا في حالة الزنا) ويتزوج بأخرى يزني». إن هذا جلي، وهو يعني أن لامناص من توافر أمرين حتى يكون ثمة زنا الرجل: إن يطلق بريئة ويتزوج بأخرى. وبالمقابل إن الرجل الذي يتزوج بامرأة أخرى بعد أن طلق امرأة مذنبة ليس زانياً. فإذا قبلنا هذا الدليل الثاني (ويبدو لي أنه دليل مشترك لدى (سوارن) Souarn و(لاكرانج) قلنا بصورة أوضح: لو أن (يسوع) قصد بالقول إن الرجل يقترف **دوماً** الزنا إذ يطلق زوجته لقال: من يطلق امرأته (إلا في حالة الزنا) يزني. ومن يتزوج بامرأة أخرى في جميع الأحوال يزني. ولكنه لم يقل ذلك، إذن...

والحق أن الدليل المتين الوحيد الذي يأخذ به النقد الأرثوذكسي هو أن(يسوع) الذي أكد قبل قليل تعذر حلّ الزواج «لم يشأ أن يناقض نفسه على هذا المنوال» ←

أن يطلق امرأته ويتزوج بأخرى. أما (يسوع) في إنجيل (متى) فإنه يعلن أن هذه القاعدة تبطل عندما يكون سلوك المرأة سيئاً.

ولكن ثمة ماهو أكثر: إن الزواج ينحل بالبعث وبدخول (الملكوت).

وهذه النظرية تمثل إحدى النظريات الأقوى سلطاناً في مجال الوثاق الزوجي. وهي إحدى النظريات التي تصدم الرأي العام أكثر ما تصدم: ذلك أن الرغبة في البعث تصحب في العادة الرغبة في أن تتوافر في حياة أخرى الصلة والحب اللذان عرفناهما في الدنيا. وعلى الرغم من ذلك فإن موقف (يسوع) في هذه النقطة موقف دقيق دقة مطلقة. يقول: «أبناء هذا الدهر يزوِجون ويزوَجون. ولكن الذين حُسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر واتباعه من الأموات لايزوِجون ولايزوَجون». السبب؟ «إذ لايستطيعون أن يموتوا أيضاً لأنهم مثل الملائكة. وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة» (لوقا ٢٠/٣٤) و(مرقس ١٢/٢٥) و(متى ٢٢/٣٠).

إذن إن أبناء هذه الدنيا هم الذين يزوِجون ويزوجَون. أما أبناء الله فإنهم يكفّون عن هذه الصلات التي هي بالنسبة لهم رجسة جداً. إن المرأة التي تبعث «وقد كان لها في الدنيا سبعة أزواج لن يبقى لها أي زوج. وكذلك المرأة التي تبعث ولم يكن لها سوى زوج واحد، لن يكون لها زوج. ولنلاحظ أن (يسوع) لايقول إن المختارين لن يكونوا أزواجاً وزوجات من وجهة النظر الجسدية وحدها، بل إنه يعلن مايعلن بحدود مطلقة: إنهم لايزوِجون ولايزوَجون. وبكلمة واحدة، إن ماجمعه الله يفرّقه الله.

* * *

ولكن إذا كان دخول (الملكوت) يفصم الوثاق الزوجي، أفلا يكون منطقياً فصمه منذ الحياة الدنيا طلباً (للملكوت)؟

← (انظر: لاكرانج: متى ص٣٦٩). وأنا حين أصف هذا الدليل بأنه متين أعني أنه ينبغي أن يبدو متيناً في نظر لاهوتي كاثوليكي. ولكن من البيّن أنه ليس بمتين في نظرنا نحن الذين عثرنا على عشرين تناقض جلي في الإنجيل.

وفي الواقع، ها هو ذا (يسوع) يعلن قائلاً: أن ليس أحد ترك بيتاً... أو امرأة... من أجل الملكوت إلا ويأخذ في هذا الزمان أضعافاً كثيرة وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية (لوقا ١٨/٢٩).

فالمكافأة الزمنية التي تنتظر في هذا العالم الزوج الذي يكون قد ترك امرأته؟ إن الإنجيل لايذكر ذلك. وقد سأل الامبراطور (جوليان)[٢٢٣] هل أنه يُكافأ بمائة ضعف ويكون له مائة امرأة. ولكن الثابت في الأمر، في جميع الأحوال، هو الفوز بالحياة الأبدية.

وكذلك يمكن افتراض أن الزوج، وهو يترك امرأته، أي ينفصل عنها مادياً سيظل زوجها بالروح، بالفكر. ولكن (يسوع) يرفض رفضاً جازماً هذا التفسير. فليس بكافٍ أن يترك الزوج امرأته بل يجب عليه أن يبغضها. وقد صرّح أمام الجموع التي تتبعه ـ مبيّناً أنه يخاطب الجميع ولايخاطب نخبة ـ: «إذا كان أحد يأتي إلي ولايبغض.. امرأته... فلا يقدر أن يكون تلميذاً لي» (لوقا ١٤/٢٦).

المذهب الآن ناجز تام.

وتجيب الأخلاق الأخرى: إن الزواج شيء أدنى، لايعرفه أبناء الله. ومن الممكن حلّه. وما ترك امروء وبغضها إلا استحق مكافأة متخيرة في هذا العالم وحياة أبدية في العالم الآخر.

ـ ٢ ـ

المذهبان الأخلاقيان المتصلان بالأسرة: ١ ـ من جهة أولى، إجلال خصب الزواج. ومن جهة أخرى القول الآتي: طوبى للعقيمين. ٢ ـ من جهة أولى ينبغي أن يرتبط الأبناء والآباء بالحب والاحترام. ومن جهة أخرى، جاء (يسوع) ليفرّق الابن عن أبيه.

«إن طلبتك قد سُمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابناً وتسميه

(يوحنا). ويكون لك فرح وابتهاج» (لوقا ١/١٣).

هكذا قال ملاك الرب. ولذا فإن الرب لم يغضب من دعاء (زكريا). وعلى العكس، قبلها وأرسل رسولاً سماوياً ليحمل «البشرى» للأب (لوقا ١/ ١٩).

وعندما حملت (اليصابات) صاحت: «هكذا قد فعل بي الرب في الأيام التي فيها نظر إلي لينزع عاري بين الناس» (لوقا ١/٢٥). فالعقم إذن عار، وولادة طفل هي نتيجة عطف إلهي.

ويقول (يسوع) في إنجيل (يوحنا): «المرأة وهي تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت. ولكن متى ولدت الطفل لاتعود تذكر الشدة لسبب الفرح لأنه قد وُلد إنسان في العالم» (يوحنا ١٦/٢١).

ولكن (يسوع) يعلن في الأناجيل المتقاربة وهو ينذر بالكوارث التي ستسبق «النهاية» وأيام الغربة والثبور: «ويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام» (مرقس ١٣/١٧) و(متى ٢٤/١٩) و(لوقا ٢١/٢٣).

ماذا نستنتج من هذا التنبؤ المرعب؟ إن نهاية العالم، كما هو معلوم، قريبة. «لن ينقضي هذا الجيل قبل أن يقع كل شيء». يجب على الإنسان أن يحترس. والوسيلة الوحيدة التي يمتلكها هي أن يحترس من هذه الأيام حيث سيقال: ويل للحبالى! وهذا يعني بالبداهة أنه لن يكون لهن أطفال.

وعندما يلتفت (يسوع) إلى النسوة اللواتي يتبعنه وهنّ يلطمن وينحن في مكان عذابه ويقول لهن أيضاً: «يا بنات أورشليم لاتبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن. لأنه هو ذا أيام تأتي يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد، والثدي التي لم ترضع!» (لوقا ٢٣/٢٩). وهنا أيضاً ماذا نستطيع أن نستخلص سوى أن من الواجب منذئذٍ الاحجام عن الإنجاب؟ لقد كان في وسع (اليصابات) أن تفرح من بشارة الملاك وقرب ولادتها. وبنات (أورشليم) لايستطعن النهوض إلا بنذر واحد، وهو أن يبقين عاقرات.

وعبثاً يحاول المفسرون قول (يسوع) يمجّد الأمومة عندما قبل أن يُولد

من امرأة. في اليوم الذي رفعت امرأة صوتها وكانت هذه الفكرة تجول في خاطرها بلا مراء، وصاحت: «طوبى للبطن الذي حملك وللثديين اللذين رضعتهما!» أجاب «بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه» (لوقا ١١/ ٢٨). ومن العسير أن نجد في هذه الجملة إطراء الأمومة.

* * *

يتضح إذن أنه إن كان للإنسان أطفال كان ذلك سعادة هنا، وشقاءاً هناك. لننتقل إلى علاقات الآباء بالأبناء.

يستشهد (يسوع) في مناسبات كثيرة بنص «العهد القديم»: أكرم أباك وأمك. وهو يقسو في لوم اليهود الذين حرّفوا هذا الأمر بإجلال نفاق. فهو يؤيد (الشريعة) القديمة التي تقضي بعقوبة الموت على مَن يشتم والديه (مرقس ٩/٧) و(متى ١٥/٥). فهو يريد ألّا يطيع الأبناء بالقول، بل بالفعل (متى ٢١/ ٢٨). والابن الصالح هو مَن يستطيع القول: «ها أنا أخدمك سنين هذا عددها» (لوقا ١٥/٢٩).

إن حب الآباء أبناءهم هو في نظره الأمر الطبيعي، وحتى الأشرار لايستطيعون الإفلات من مثل هذا الشعور: «فمن منكم وهو أب يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً، أو سمكة فيعطيه حية بدل السمكة؟» (لوقا ١١/١١). إن تسامح الأب معين لاينضب. وعندما رجع الابن الضال صاح الأب: «اخرجوا الحلة الأولى والبسوه واجعلوا خاتماً في يده وحذاءً في رجليه: وقدموا العجل السمين واذبحوه فنأكل ونفرح» (لوقا ١٥/٢٠).

ويتأثر (يسوع) بآلام الوالدين اللذين لهما ابن مريض أو اللذين فقدا ابناً: «يا معلم، أطلب إليك: انظر إلى ابني فإنه وحيد لي». فاستجاب (يسوع) لتضرع الأب (لوقا ٩/٣٨). «ولما جاءه (يائيرس) قائلاً: «ابنتي الصغيرة على آخر نسمة ليتك تأتي وتضع يدك عليها لتشفى فتحيا فمضى معه» وأنقذ ابنة (يائيرس) (مرقس ٥/٢٣). «ولما اقترب إلى باب المدينة إذا ميت محمول ابن

وحيد لأمه وهي أرملة ومعها جمع كثير من المدينة. فلما رآها الرب تحنّن عليها وقال لها لاتبكِ» (لوقا ٧/١٢).

و(المعلم) مرهف الحس بسحر الطفولة البريئة: «دعوا الأولاد يأتون إلي ولاتمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله» (مرقس ١٠/١٤) و(متى ١٩/١٤) و(لوقا ١٨/١٦).

وقد كان (يسوع) يدعو إلى اتخاذه قدوة من حيث علاقاته بأمه وأبيه. وقد أوكل أمه إلى تلميذه الذي كان يحبه (يوحنا ١٩/٢٦). وكان يحرص على أن يخرّ راكعاً أمام أبيه: «يا أبتاه... ليس كما أريد أنا بل كما أنت تريد!» (متى ٢٦/٣٩). فهو يلجأ إليه في ضيقه (المرجع السابق) ويعترف بأن كل شيء جاءه منه (متى ١١/٢٧) الخ.

وهذا كله ينمّ عن أخلاق تعلّم الأبناء احترام آبائهم، والآباء حب أبنائهم.

بيد أن ثمة نصوصاً أخرى.

* * *

لقد بدأ (يسوع) بالشفاء. واختار تلاميذه الاثني عشر. ويقول (مرقس) وقد علم أن أهله جاؤوا يطلبونه: «فجاءت حينئذٍ إخوته وأمه ووقفوا خارجاً وأرسلوا إليه يدعونه. وكان الجميع جالساً حوله فقالوا له: هو ذا أمك واخوتك خارجاً يطلبونك. فأجابهم قائلاً مَن أمي واخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها أمي وأخوتي. لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي» (مرقس ٣/٣١).

ومن الجائز، عند الاقتضاء، تفسير موقف (يسوع) بملاحظة أن أمه وأخوته جاؤوا بحسب رواية (مرقس) يطلبونه لعرقلة رسالته. ولكن سائر الأناجيل المتقاربة لاتعزو لهم هذا القصد. وعلى الرغم من ذلك فإن جواب (المعلم) هو هو بجوهره: أمي وأخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله (لوقا ٨/ ١٩) و(متى ١٢/٤٦). والظاهر أن (يسوع) يعني أن القرابة الجسدية في نظره

ليست ذات أهمية: وإنما المهم هي القرابة الروحية. ولذا فإنه يرفض رؤية أمه وإخوته ويجيب بتهكم رهيب (في إنجيلي مرقس ومتى): ومن أمي؟

والموقف ذاته في إنجيل (يوحنا)، في عرس (قانا). وعلى الرغم من ذلك فإن (مريم) لايمكن أن توصف هذه المرة باللاإيمان. ويبدو تماماً أنها تتكل على ابنها ليحقق معجزة. وعلى الرغم من ذلك فقد أجاب (يسوع): «مالي ولكِ يا امرأة» (يوحنا ٢/٤).

وبعد المثل، يأتي الأمر.

ولما كان يتهيأ للمسير قال له أحد تلاميذه: «يا سيد ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي. فقال له (يسوع): «اتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم» (متى ٨/٢١) و(لوقا ٩/٥٩).

وقال آخر: «أتبعك يا سيد ولكن ائذن لي أولاً أن أودع الذين في بيتي».

ويبدو أن مثل هذا الرجاء جد مشروع. فلئن وجب في الحق من أجل (الملكوت) أن يفصم الإنسان صلته بكل من يحبهم، أفلا يقتضي العطف البشري أن يوّدع المرء من يظلوا والديه وأخوته وإن لم يؤمنوا؟ ولكن (يسوع) يجيب، على الرغم من ذلك، جواباً خشناً: «ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله» (لوقا ٩/٦٢).

أترى (يسوع) إذن يستهدف تمزيق الأسر وبتر الروابط التي تصل الآباء بالأبناء مثل فصم صلات الزوج بزوجته؟ أجل، وهو ذاته يقول ذلك بوضوح.

لقد ذكرنا سابقاً هذه الجملة التي تعلن الحرب الأهلية، ولامناص من اندلاعها، بموعظته: «أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض. كلا، أقول لكم، بل انقساماً. لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة. ينقسم الأب على الابن، والابن على الأب، والأم على البنت، والبنت على الأم، والحماة على كنتها، والكنة على حماتها» (لوقا ١٢/٥١).

وينجم عن ذلك أن على تلاميذ (يسوع) أن يتركوا أسرهم كما ترك هو ذويه. فليس مَن يترك فقط حقولاً وبيوتاً، وليس مَن يترك فقط زوجته هو الذي

ستكون له حياة أبدية. بل مَن يترك «اخوة وأخوات أو أباً أو أماً أو أولاداً» لأجل (يسوع) ولأجل الإنجيل (مرقس ١٠/٢٩) و(متى ١٩/٢٩) و(لوقا ١٨/٢٩).

ما السبب؟ يجيب (يسوع): «من أحبّ أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني. ومن أحب ابناً أو ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني» (متى ١٠/ ٣٧). ولكن الواقع أن ليس بمباح أن يُحب المرء أولاده أو والديه حتى ولو أحبهم بأقل من حبه (يسوع): فمن الواجب أن يبغضهم:

«إن كان أحد يأتي إلي **ولايبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وأخوته وأخواته** حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي» (لوقا ١٤/٢٦).

* * *

الخلاصة

يقول لنا الإنجيل في نصوص دقيقة: إن الزواج أمر مقدس ويتعذر حلّه. فالله يبارك الزواج الخصيب. والله يريد أن يحب الأب ابنه وأن يكرم الابن أباه.

ولكن ثمة نصوصاً ليست بأقل دقة يقول لنا الإنجيل فيها: الزواج أدنى من العزوبة. وعلى الرجل أن يترك امرأته ووالديه وأبناءه. وإنما تركه إياهم شيء قليل. بل يجب أن يبغضهم. وستأتي الأيام التي سيقال فيها: طوبى للعواقر، وللأحشاء التي لم تنجب، والثدي الذي لم يرضع!

إن أحد هذين المذهبين الأخلاقيين يقيم الأسرة، والآخر يهدمها.

الفصل التاسع

المجتمع والكنيسة

لننتقل من الحياة الخاصة إلى الحياة العامة: إن الأخلاق تظل متناقضة. فالإنجيل يريد مواطنين خاضعين (لقيصر). ولكنه يقرر أن سلطة (قيصر) شيطانية.

إنه يمنع الناس منعاً باتاً من إطلاق حكم، ولكنه يقيم محاكم.

إنه يلغي بحذف الثروة كل الترتبات الاجتماعية القديمة. ولكنه يقبل أن يكون للمرء خدم، بل وعبيد.

إنه يريد ألّا يسعى أحد في الكنيسة ليكون هو الأول. ولكنه يقدّم (بطرس) و(الرسل).

ـ ١ ـ

السلطة السياسية: ١ ـ ينبغي الرضوخ للسلطة القائمة، ودفع الضرائب، حتى ولو كانت ظالمة. ٢ ـ ولكن ممالك هذا العالم هي من (الشيطان) ولو كانت شرعية. وسيقضي عليها انتصار (المسيح).

«إنسان شريف الجنس ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكاً ويرجع.

وكان أهل مدينته يبغضونه فأرسلوا وراءه سفارة قائلين: لانريد أن هذا يملك علينا. ولما رجع بعدما أخذ الملك قال: أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي» (لوقا ١٩/١٢).

أترى (يسوع) الذي حكى هذه القصة كان يقدّم ذلك الملك السامي على أنه طاغية بشع؟ إن الأمر أنأى عن ذلك. فالملك الغاضب يمثل في هذه القصة ملك السماء. والثورة على الأمير هي إذن، في المجال الزمني، كالثورة على الله في المجال الروحي.

الطاعة واجبة ـ والإنجيل يحدثنا عن طغاة: (هيرودوس)، الرومانيون؛ إن (يسوع) لم ينبس ببنت شفة، ولم يلمح لحثّ اليهود على أن يثوروا على هؤلاء الحكام السيئين. إنه يعرف أنه سيُعدم بقرار من (بونس بيلاطس). وعلى الرغم من ذلك فإنه مابرح يدعو إلى دفع الضرائب لـ (قيصر).

سأله الفريسيون مرة: «أيجوز أن نعطي جزية لـ (قيصر) أم لانعطي؟» ولكنه أجابهم وهو يعرف رياءهم: «لماذا تجربونني. ايتوني بدينار لأنظره. فأتوا به. فقال لهم: لمَن هذه الصورة والكتابة؟ فقالوا له: لـ (قيصر). فأجاب (يسوع) وقال لهم: أعطوا مالـ (قيصر) لـ (قيصر) وما لله لله» (مرقس ١٢/١٤) و(متى ٢٢/١٥) و(لوقا ٢٠/٢٠).

أما إذا بدا الظلم من عمّال (قيصر)؟ وطلبوا أكثر مما يحق لهم؟ لنعطهم أيضاً أكثر مما يطلبون، بدلاً من الاحتجاج: «ومَن سخرّك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين» (متى ٥/٤١).

وهذه الأقوال الشهيرة، مهما قيل في شأنها، تنطوي على برنامج سياسي كامل. ذلك أن ما لـ (قيصر) ليس بالبداهة الدينار وحده. بل إن الدينار ليس لـ (قيصر) إلا من حيث أن (قيصر) سكّه على صورته. إنه ليس ملكه بالمعنى المألوف للكلمة، وإنما هو رمز سيادته. وعلى هذا فإن تصريح (يسوع) يدل بجلاء على أن للحكام حقوق سيادة وأن من الواجب احترام هذه الحقوق.

ان (قيصر)، في نظر اليهود كافة، وفي نظر (يسوع) ذاته يمثل سلطة فرضت نفسها بالقوة وحدها على أبناء اسرائيل. ولكنها، بهذا الاعتبار، هي سلطة قائمة. ولذا فإن من الواجب إطاعة السلطة القائمة، أية سلطة. بل ليس بذي شأن أن يكون (قيصر) وثنياً.

وقد نتساءل عن الحد الفاصل بين مالـ (قيصر) وما لله. إن (يسوع) يكتفي في هذه النقطة بقول إن مملكته «ليست من هذا العالم». وقد أجاب (بيلاطس) قائلاً: «أنت تقول إني ملك. لهذا قد وُلدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لاشهد الحق» (يوحنا ١٨/٣٣).

إذن، ينبغي إطاعة الملوك، إطاعة (قيصر) في شؤون «هذا العالم» ويجب إطاعة الله في شؤون «الحقيقة». وليس من السهل تطبيق هذه الجملة على الدوام. ولكن التمييز جلي بين الروحي، وهو مجال الله، والزمني، وهو مجال السلطة القائمة.

* * *

نخلص من ذلك، بالطبع، إلى أن السلطة السياسية هي سلطة شرعية.

ولكن (يسوع)، من ناحية أخرى، يصف بلاط الملوك بأنه مقام الترف والميوعة.

«هو ذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك» (متى ١١/٨) و(لوقا ٧/٢٥).

أما العشّارون، وهم جباة الضرائب، فإنهم حقيرون من حيث وظيفتهم يقال: «العشّارون والزواني» (متى ٢١/٣١).

ولكن، أخيراً، وبوجه خاص، إن ممالك هذا العالم كلها من عمل الشيطان.

إن في هذا الرأي غلواً كبيراً. ولكن الإنجيل يعرب عنه بوضوح تام. ويكفي أن نعيد قراءة مشهد غواية (المسيح). «ثم أصعده ابليس إلى جبل عالٍ

وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان وقال له ابليس: لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن لأنه **إليَّ قد دُفع وأنا أعطيه لمن أريد.** فان سجدت أمامي يكون لك الجميع» (لوقا ٤/٦) و(متى ٤/٨).

ومن الطبيعي أن يرفض (يسوع) عرض (ابليس) ولكنه لم يشك لحظة في مقال (الغاوي): أعني أن سلطان الممالك والمجد قد أُعطي لـ (ابليس) وأن في وسعه أن يعطيهما لمن يشاء. ومن ناحية أخرى، لايتحلى مشهد الغواية بمعنى لو أن (ابليس) قال الحقيقة وقدّم عرضاً واقعياً. إذن، إن السلطة السياسية شيء شيطاني. وأن الملوك والرؤساء وأي قابض على هذه السلطة هما عملاء (ابليس)، أتباعه: وهم يمتحون منه العزة والروعة. ولذا نجد (يسوع) يصرح عندما جاء قواد الجند لاعتقاله باسم السلطة القائمة: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة» (لوقا ٢٢/٥٣). فالسلطة السياسية التي توجّه الحوادث منذئذٍ توجههم باسم (ابليس، مادامت شيطانية).

ويتأكد هذا الرأي بقوة في إنجيل (يوحنا): إن (ابليس) هو «رئيس هذا العالم» (يوحنا ١٢/٣١ و ١١/٦). وهو أعظم عدو (للمسيح)، سيد العالَم، وهو مصدر كل سلطة سياسية»[٥].

وعندما يخاطب (بيلاطس) (المسيح) بقوله: «ألست تعلم أن لي سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلقك؟» أجاب (يسوع): «لم يكن لك علي سلطان البتة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق. لذلك الذي سلّمني إليك له خطية أعظم» (يوحنا ١٩/١١).

وقد أبان الأستاذ (دولافوس) بجلاء أن هذا الجواب يتضمن تأكيدين: الأول يخبرنا أن (بيلاطس) يستمد سلطته من **علٍ**، أي من كائن يعلو على البشر، من كائن وكيل، وأن من الواجب إطاعته. والثاني يخبرنا أن هذا الكائن الذي هو من علٍ هو الذي سلّم (يسوع) إلى (بيلاطس)، وكيله[٦].

إن هذا الكائن «من علٍ» ليس هو الله: فمن يجرؤ على أن ينسب لله

خطيئة؟ وهو ليس (يهوذا): مَن سيقول أن (يهوذا) هو «مِن علٍ»؟ إنه الشيطان، رئيس هذا العالم، صانع موت (يسوع) (يوحنا ١٤/٣٠).

يتضح إذن أن الشيطان هو القابض على السلطة السياسية في نظر الإنجيل الرابع ونظر مؤلفي قصة غواية (المسيح). أما (بيلاطس) و(قيصر) والآخرون فإنهم ليسوا سوى وكلاء (ابليس).

وإذ ذاك لامناص من النتيجة الآتية: أتكون إطاعة (بيلاطس) وإطاعة (قيصر)، وإطاعة أي رئيس زمني آخر، إطاعة (ابليس)؟

ما سبيل الإفلات من أسر هذه الطاعة البشعة؟ بطرد الشيطان من هذا العالم، بتنظيم عالَم خالٍ من الملوك ومن سائر الرؤساء. وقد أعلن (يسوع) في إنجيل (يوحنا) عن هذه الثورة الضخمة بكلمات حازمة سينجزها: «الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يوحنا ١٢/٣١). إن طرد رئيس هذا العالَم خارجاً يعني إلغاءاً فورياً لجميع السلطات السياسية الصادرة عنه: (قيصر)، (بيلاطس)، وسائر وكلاء الشيطان الذين سيشاهدون انهيار نفوذهم.

ويقتصر الإنجيل (الرابع) على إعلان هذا الإنقلاب المعجز من دون أن يقدم عنه أي وصف دقيق. ونحن نجد في إنجيلي (لوقا) و(متى) إشارة عملية: لن يكون بين تلاميذ (المسيح) ملوك ولارؤساء.

يقول (يسوع): «ملوك الأمم يسودونهم». ثم يضيف بتهكم خفي: «والمتسلطون عليهم يُدعون محسنين»(*). ولكن مثل هذا التنظيم ينبغي ألّا يوجد بين التلاميذ: «وأما أنتم فلستم هكذا» (لوقا ٢٢/٢٥). «أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم فلا يكون هكذا فيكم» (متى ٢٠/٢٦).

(*) إن التهكم بديهي. فلو أن يسوع كان ينظر إلى الملوك وإلى رؤساء الأمم نظرته إلى محسنين حقيقيين لامتنع فهم قوله بعدئذٍ: «وأما أنتم فلستم هكذا». أو إنه كان من الواجب القول بأنه يحظر على تلاميذه أن يكونوا محسنين.

* * *

إن أحد مذهبي الأخلاق الماثلين في الإنجيل كان يعطي الله أمور الروح، ويعطي لـ (قيصر) أمور الدنيا. وهذا المذهب يريد خضوع المسيحيين في شؤون الروح لله، لأن ما يتصل بهذا العالَم هو لـ (قيصر).

والمذهب الآخر يعلّم أن كل سلطة سياسية هي من الشيطان، وأن(قيصر)، بالتعريف، هو عميل الشيطان. وهذا المذهب يدعو لثورة ضخمة ويعلنها وهي ستطرد الشيطان من هذا العالَم وتخلع (قيصر) عن عرشه.

فمن جهة أولى روح الخضوع، ومن جهة أخرى روح الثورة.

ـ ٢ ـ

العدالة الإنسانية: ١ ـ يعترف (يسوع) بالمحاكم القائمة ويقيم محكمة جديدة. ٢ ـ يقول (يسوع) للناس: لاتصدروا حكماً!.

يؤيد (يسوع) في «الموعظة على الجبل» وجود المحاكم القائمة من حوله.

«وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومَن قال رَقاً يكون مستوجب المجمع» (متى ٥/٢٢).

وفي إنجيل (لوقا) أمثولة تفضح الحاكم الصالح الذي يدفعه الكسل إلى رفض الحكم بالعدل ـ ولذا فإن (يسوع) يريد أن ينهض القاضي بواجبات منصبه (لوقا ١٨/٤).

ولكن يوجد أكثر من ذلك. ففي إنجيل (متى) نجد (يسوع) ينشئ هو نفسه أصول مرافعة ومحكمة خاصة بالمسيحيين.

«وان أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما إن سمع منك فقد ربحت أخاك:

«وإن لم يسمع فخذ معك ايضاً واحداً أو اثنين لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة.

«وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة، وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشّار» (متى ١٨/١٥).

إذن، إيضاح بالحسنى، ثم احتكام، وأخيراً حكم رسمي تطلقه الطائفة. وبذا تنتظم عدالة مسيحية.

* * *

ولكن من ذا الذي سيقف أمام هذه المحكمة؟

لقد رأينا أن على المسيحي الذي لطمه أخوه على خده ألّا يشكوه إلى المحكمة بل أن يمدَّ له الخد الآخر.

والمسيحي الذي يريد أحد اللصوص أن يسرق ثوبه عليه أن يترك له الرداء أيضاً بدل تقديم شكوى ضده.

وعلى المسيحي الذي يشتمه أحد الناس ألّا يعفو عنه سبع مرات، بل سبعين مرة سبعاً.

وإذا كان الحاكم مؤمناً لم يكن له الحق في أن يدين أحداً: لأن من الواجب أن يكون بلا خطيئة من يرمي الحجر الأول.

لمَ نتحدث عن حجارة؟ إن من أراد أن يكون مسيحياً وجب عليه أن يمتنع عن إصدار حكمه على أي شخص: «لاتدينوا لكي لاتدانوا. لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم. ولماذا تنظر القذى في عين أخيك وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها. أم كيف تقول لأخيك دعني أخرج القذى من عينك وها الخشبة في عينك. يا مراءي! اخرج أولاً الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك» (متى ١/٧).

إذن، مثلما يجب أن يكون المرء بلا خطيئة حتى يدين، كذلك فإن من الواجب ألّا يكون في عينه خشبة ولاقذى حتى يحكم.

يقول (يسوع) في إنجيل (لوقا) بإيجاز: «لاتدينوا فلا تدانوا» (لوقا ٦/ ٣٧).

وعلى هذا النحو نجد من ناحية أولى الأمر الآتي: ادينوا! ومن ناحية أخرى: لاتدينوا!

ـ ٣ ـ

المراتب الاجتماعية: ١ ـ إن المسيحي الملزم ببيع جميع أمواله لايستطيع أن يشغل سوى أدنى منزلة في الترتب الاجتماعي. ٢ ـ ولكن الإنجيل يقبل أن يكون للمرء خدّام، وأن يعاملهم بهذه الصفة.

«بعْ ما تملك وأعطه للفقراء». إن تطبيق هذا الأمر يحول على الفور دون قيام ترتب اجتماعي بين المسيحيين.

أجل، إن النسب لايمكن بالبداهة أن يكون مصدر تمايز بين الناس. والولادة الوحيدة التي يمكن اعتبارها هي الولادة الروحية التي تجعلنا، بالنار والماء، أبناء الله.

وعلى الصعيد السياسي لامجال للترتب. وليس في مكنة (قيصر) وعملاء (قيصر) أن يرقوا فوق عامة البشر، بل إنهم يسقطون إلى ما دونهم لأنهم من الشيطان.

والثروة وحدها يمكن أن تنجب بعض الفوارق بين الناس: ولكن الثروة بما أنها وزر ظالم يجب الإفلات من أسره، فإن المسيحي، بدل أن يتطلع لأي سمو، لن يستطيع أن يشغل إلا المنزلة الأدنى في المجتمع.

ويصرح (يسوع) تصريحاً منطقياً: «إذا أراد أحد أن يكون أولاً فيكون آخر الكل وخادماً للكل» (مرقس ٩/٣٥). وكذلك: «من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن لكم خادماً، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم عبداً» (متى ٢٠/٢٧).

إذن، في عالَم سيكون الناس فيه كلهم مسيحيين، لايمكن أن يستمر أي ترتيب اجتماعي. إن أحداً لن يطلب «المتكأ الأول في الولائم» ولا «التحيات في الأسواق» (متى ١٣/٦). ولما كان الجميع فقراء على قدر سواء، فلن يكون ثمة رؤساء ولا تابعين، أسياد ولاخدّام. وعوضاً عن أن يرقى كل واحد فإنه سيسعى للإنحدار. لن يكون على الأرض إلا وضعاء، يخدمون وضعاء.

* * *

ولكن إلى جانب هذه الأخلاق القائلة بالمساواة في الزهد، ينطوي الإنجيل على أخلاق أخرى تقرّ كل الإقرار الترتب الاجتماعي القديم، بل وتقرّ الأفكار المبيّتة عن الطبقات الحاكمة.

ففي كل خطوة نجد في الأناجيل المتقاربة إشارة إلى أسياد وخدم. الزارع يخاطب عبيده (متى ١٣)، والمسافر يوزع على عبيده أعمالهم (مرقس ١٣/ ٣٤) والكرّام يرسل «عبيده» ليأخذ أثماره (متى ٢١/٣٤).

ولايقتصر الإنجيل على الإحجام مطلقاً عن لوم هؤلاء الأسياد لأن لهم خدماً وعبيداً وعلى استخدامهم، بل إنه يعترف بأن ثمة واجبات تقع على عبيد رجل تجاهه. فمن الواجب أن يكونوا أمناء، وأن يكونوا متيقظين: طوبى لذلك العبد الأمين الذي سيجده معلمه ينهض بعمله بأمانة (لوقا ١٢/٤٣). وتعساً للعبد الخبيث الكسول، «للعبد البطّال»: إن معلمه سيطرحه إلى الظلمة الخارجية (متى ٢٥/٣٠).

لاريب في أن السيد، السيد الصالح، سيحسن معاملة عبده. وفي البيت الذي غادره الابن الضالّ يلقى الأجراء «خبزاً» أكثر مما يحتاجون إليه (لوقا ١٥/

١٧). ولكن ثمة نقطة مهمة لأنها تنمّ عن سلطة الأخلاق الطبقية، وهي أن (السيد) لايحسب نفسه ملزماً بعرفان فضل العبيد الذين يجيدون عملهم. انهم أتباعه. ومن البسيط كل البسيط أن يخدموه قبل أن يخدموا أنفسهم.

يقول (يسوع): «ومن منكم له عبد يحرث أو يرعى يقول له ادخل من الحقل، تقدم سريعاً واتكئ؟ بل ألا يقول له: إعدِد ما أتعشى به وتمنطق واخدمني حتى آكلٍ وأشرب وبعد ذلك تأكل وتشرب أنت؟ فهل لذلك العبد فضل لأنه فعل ما أمر به؟» (لوقا ١٧/٧).

كيف نقيم اتساقاً بين هذه الأخلاق «البرجوازية»، بل الأكثر من برجوازية، وبين تلك التي رأيناها سابقاً؟ هناك، كان السيد يتخذ من نفسه خادم خادمه حتى يحظى بالسماء. وهنا نجده يجلس ويتكئ إلى مائدته ويقول لعبده: اخدمني! وعندما يخدمه لا «يقرّ له بالعرفان» فمَن خدمه إنما قام بما يمليه عليه منصبه.

وهذا الطراز من الفكر يظهر في الإنجيل غير مرة: ليس «العبد أفضل من سيده» (متى ١٠/٢٤) «ليس عبد أعظم من سيده» (يوحنا ١٥/٢٠).

وهناك سمة «مباغتة» على نحو أعظم: ليس العبد صديقاً. وعندما شعر (يسوع) بدنو نهايته خاطب تلاميذه قائلاً: «لا أعود أسميكم عبيداً لأن العبد لايعلم مايعمل سيده. لكنني قد أسميكم أحبّاء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يوحنا ١٥/١٥).

وأخيراً، يمضي (يسوع) حتى إلى اتّهام عبيده الملتزمين بوجه عام بأنهم يعوزهم الإخلاص. يقول: «الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف. وأما الذي هو أجير وليس راعياً الذي ليست الخراف له فيرى الذئب مقبلاً ويترك الخراف ويهرب فيخطف الذئب الخراف ويبدّدها. والأجير يهرب لأنه أجير ولايبالي بالخراف» (يوحنا ١٠/١٢). وقد أصاب الأستاذ (لوازي) في قوله: «من الثابت أن تلك ليست حال جميع الأجراء» (الإنجيل الرابع ص ٣٢٤). ولايمكننا أن نرى في هذا التصريح سوى صدى تلك الجمل الجاهزة التي يأخذ فيها الأسياد،

بوجه عام، على خدّامهم فقدان إخلاصهم.

ولنلاحظ أخيراً أن الإنجيل لايذكر جملة احتجاج واحدة على الرق: إن العبد المذكور سابقاً والذي يتمنطق ينظر إلى سيده وهو يأكل، هذا العبد ليس بإنسان حرّ، بل إنه عبد.

ـ ٤ ـ

الكنيسة: ١ ـ يشغل (بطرس) و(الرسل) منزلة بارزة في الكنيسة. ٢ ـ إن أحداً من المسيحيين لايمكن أن يكون «أول»، لا المعلم، ولا العليم.

كما يوجد ترتب في المجتمع حيث يكون إنسان سيداً والآخر عبداً، كذلك سيكون ترتب في الكنيسة: إن (بطرس) والرسل سيكونون رؤساء.

يقول له (يسوع) في إنجيل (لوقا): «ثبّت اخوتك» (لوقا ٢٢:٣٢). ويكرر في إنجيل (يوحنا) القول ثلاث مرات: «إرعَ عني... إرعَ غنمي.. إرعَ غنمي» (يوحنا ٢١/١٦ ومابعد). ولذا فإن (بطرس) سيغدو راعي تلاميذ المسيح. ومن العسير أن نتصور أن الراعي ليس ذا سلطان على قطيعه.

ومن ناحية أخرى، إننا جميعاً نعرف المقطع الشهير من إنجيل (متى): «وأنا أقول لك أيضاً أنت (بطرس) وعلى هذه الصخرة إبن كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات. وكل ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السموات» (متى ١٦/١٨).

صحيح أن النص لايذكر أن سيكون لـ (بطرس) خليفة، وأن هذا الخليفة سيتمتع بامتيازاته ذاتها. ولكن من الثابت جداً أن النص يقول إن الكنيسة ستبنى على (بطرس)، وأن (بطرس)، من ثم، سيشغل بين المؤمنين منزلة رفيعة لايمكن

أن يطمح إليها أي شخص آخر.

ثم يليه (الرسل) الذين سيشغلون هم أيضاً مكانة متميزة في الكنيسة. فهم لن يكونوا «مكرّسين بالحقيقة» و«مزودين بقوة عليا» وحسب، بل إنهم سيتمتعون بسلطات خاصة: سيكون لهم أن يغفروا الخطيئة أو يبقوها (يوحنا ٢٣/٢٠) وقد قال لهم (يسوع) كما قال إلى (بطرس): «كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء» (متى ١٨/١٨).

يتضح من هذه النصوص أن الكنيسة التي أسسها (يسوع) هي كنيسة من النمط الملكي والأرستقراطي: ففي الأعلى: (بطرس) و(الرسل). وفي الأدنى سواد المؤمنين.

* * *

بيد أن التلاميذ كانوا يتبادلون الحديث وهم في الطريق إلى (كفر ناحوم). ولما وصلوا البيت سألهم (يسوع): «بماذا كنتم تتكالمون بينكم في الطريق؟». ولكنهم سكتوا لأنهم «تحاجّوا في الطريق بعضهم مع بعض في مَن هو أعظم. وإذ ذاك جلس (يسوع) ونادى الاثني عشر وقال لهم... ماذا؟ أن يكون (بطرس) هو الأول، هو الأعظم؟ أن يكون هو الذي يرعى القطيع؟ كلّا... قال لهم: «إذا أراد أحدكم أن يكون أولاً فيكون آخر الكل وخادماً للكل» (مرقس ٣٣/٩ وما بعد).

من المحال إذن أن تتوافر بين **الاثني عشر** أية أولوية. ولاريب في أن عبارة (يسوع) ذات مدى عام. إنه لايقول: إذا أراد أحد **منكم** أن يكون الأول، بل اكتفى بالقول: إذا أراد أحد... وعلى هذا فإن الصيغة تنطبق على جميع المؤمنين. ولكن من الجلي، بالاستناد إلى ماسبق، أن (يسوع) قد فكرِ في الاثني عشر أولاً، وفيما كانوا يتحدثون عنه في الطريق.

ومرة أخرى أيضاً، عندما طلب (يعقوب) و(زبدي) إلى (يسوع) أن يجلس أحدهما عن يمينه في (الملكوت) والآخر عن يساره قال: «أنتم تعلمون

أن رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم فلا يكون هذا فيكم. بل من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن خادماً، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم عبداً» (متى ٢٠/٢٥) و(لوقا ٢٢/٢٥).

إن العبارة دقيقة هذه المرة: لارؤساء بين التلاميذ، لا أولوية. أيريد (بطرس) أن يكون هو الأعظم؟ إن عليه ألا يطلق أوامر، بل أن يطيع، أن يخضع للآخرين خضوع عبد لسيده، أن يكون نعجة، لاراعياً.

لارئيس في الكنيسة: ويتسق مع هذا المذهب ألّا يريد (يسوع) عرض حالة المسيحي المتَّهم على (بطرس) و(الرسل)، ولا على أي رئيس، بل على الطائفة بأسرها. فجملة الأخوة المتساوين هي وحدها التي ستدين المتّهم أو تبرئه، تغفر خطيئته أو تبقى عليها.

أنقول هل ينتج عن امتناع حق إصدار حكم أو أمر أن يباح لبعض المسيحيين على الأقل أن يكونوا «سادة» بالمعنى الروحي للكلمة، ويعلّمون الآخرين فقه دينهم؟

إن (يسوع) يحرص على تنبيهنا للاحتراز من هذا اللبْس. وقد خاطب الجموع وتلاميذه بقوله: «وأما أنتم فلا تدعوا **سيدي** لأن معلمكم واحد (المسيح) وأنتم جميعاً أخوة. ولاتدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات.

ولاتدعوا معلمين لأن معلمكم واحد (المسيح) » (متى ٢٣/٨ ومابعد).

وبما أن الكاثوليك يستعملون اليوم ألقاب «أب» و«دكتور»، فإن مفسرّيهم يلقون عناءاً كبيراً في تمويه معنى كلمات (يسوع). ولكن كيف يمكن حجب البداهة الدقيقة؟ إن(يسوع) لايريد «معلمين» ولا«دكاترة» ولا «آباء» مثلما لايريد في كنيسته رئيساً يأمر. ومن يأخذ هذه الألقاب أو يقبلها يتخطى حقوق الله: ذلك أن ليس لنا سوى معلم واحد، ونحن جميعنا دونه أخوة، أي متساوون.

لقد شادت الأخلاق الأولى كنيسة ملكية وأرستقراطية. وأسست

الأخلاق الأخرى كنيسة ديمقراطية قوامها المساواة.

* * *

يتضح إذن أن الأخلاق المتصلة بالمجتمع وبالكنيسة ليست بأقل تناقضاً من الأخلاق المتصلة بالأسرة.

إن (يسوع) يدعو للخضوع إلى السلطات القائمة، ويقبل وجود محاكم، ويؤيد ضروب الترتب الاجتماعي القديم، ويعطي كنيسته رؤساء. ولكن (يسوع) يدعو للثورة التي ستقلب السلطات القائمة، وتحظر على المسيحيين إصدار حكم، وتمنعهم من أن يكونوا سادة ورؤساء سواء في السماء أو في الكنيسة.

فهو يدعم البناء الاجتماعي العتيق بيد، ويسعى لهدمه باليد الأخرى.

الفصل العاشر

لاتوجد أخلاق إنجيلية

لنوجز حصيلة ما تقدم من دراستنا.

إنها حصيلة بسيطة

لا أخلاق إنجيلية

فمن جهة أولى، توجد في الإنجيل أفكار متناقضة تتصل بما ندعوه اليوم الأخلاق النظرية.

ومن جهة أخرى يوجد مذهبا أخلاق عملية.

إن الأفكار المتناقضة لايمكن إرجاعها إلى مذهبين متعارضين، ولكن متسقين: فهي تصدر في نقطة من النقاط عن نظريتين وتصدر في نقطة أخرى عن نظريات ثلاث.

ولكن التعاليم العملية تتوزع بدقة بين فئتين: وهي تشكل مذهبين لكل منهما مبدؤه الخاص: الأول يدعو إلى الفزع من العالَم، والآخر يحترم العالَم.

التناقضات النظرية: ١ ـ نظريات متناقضة في موضوع الطقوس والإيمان والحرية والجزاء الأخلاقي. ٢ ـ هذه النظريات المتناقضة لاترجع إلى مذهبين.

هناك مذاهب ثلاثة في مجال علاقات الأخلاق بالطقوس: الأول يؤكد

استقلال الأخلاق عن الطقوس ولايقرّ سوى الرجس الأخلاقي. والثاني يؤيد طقوس التطهير الواردة في (الشريعة) الموسوية القديمة دون أن يدخل عليها أي تعديل. والثالث يقيم طقوساً جديدة.

وفي مجال علاقات الأخلاق بالإيمان يوجد مذهبان: الأول يؤكد رجحان الأخلاق ويقرّ خلاص اليهود ويعلن أن الإيمان لايقود إلى الخلاص إلا بالأعمال. والمذهب الآخر يؤكد رجحان الإيمان، ويدين اسرائيل، ويعلن أن مَن يؤمن يخلص، ومَن لايؤمن يهلك.

وثمة فيما يتصل بالمسؤولية والحرية مذهبان: الأول يعلن أن الناس أحرار، وأنهم يسمعون الكلام جميعاً، وأن في وسعهم وحدهم العمل به، وأن اختيارهم سيجعلهم أبرياء أو آثمين. والمذهب الآخر يعلن أن الناس كافة لايسمعون الكلام، وأن الله يقصد عمى بعضهم، وإنارة بصيرة الآخرين، وأن المختارين ليسوا هم الذين اختاروا الله، بل إنهم مَن أختارهم الله.

وفي ميدان الجزاء توجد ثلاث مذاهب: الأول يعد المؤمن بالخلاص ويمجّد اسرائيل الناجية من أعدائها. والثاني يعلن بعث الأجساد، والسعادة الجسمانية، أو العذاب الجسماني. والثالث يقتصر على وعد ببعث روحي محض ينجز منذ الحياة الدنيا، وهو الانتقال من الخطأ إلى الحقيقة.

أترانا نستطيع توزيع هذه المذاهب كلها في منظومتين كبيرتين؟ لاريب في أن قليلاً من المهارة يجعل من اليسير الاضطلاع الناجح بذلك. ولكن النتيجة الناجمة على هذا النحو لاتساوي في العادة أكثر من تكلفتها. فمن الأفكار السابقة مايمكن جمعه جمعاً متناسقاً: مثال ذلك تأييد الطقوس اليهودية، وخلاص اليهود الموعود، والنظرة اليهودية لهذا الخلاص. ولكن هذه الأفكار الثلاثة لاتتضمن اختيار الله المسبق بأكثر من تَضَمُّنها فكرة الحرّية. وكذلك يمكن قبول رجحان الإيمان لدى قبول ضرورة الطقوس، أو دون هذا القبول. ومن الجائز الإيمان ببعث الأجساد دون الإيمان بالحريّة الإنسانية، أو على العكس، مع الإيمان بها.

وينجم عن ذلك أن سيكون من العبث الإدعاء بإرجاع جميع هذه الأفكار إلى منظومتين متسقتين. فهي تصطدم بعنف بعضها مع بعض على أرض كل مشكلة نظرية. ولكن المعارك الخاصة التي تضطرم في ميدان الطقوس والإيمان والحرّية لاتشكل، بمثل هذا القدر، حلقات من صراع عام بين طريقتين متعارضتين في تصور الأخلاق.

ـ ٢ ـ

مذهبا الأخلاق العملية: ١ ـ هناك طائفة أولى من التعاليم تشكل أخلاقاً متسقة تنطلق من مبدأ الفزع من العالم. ٢ ـ وطائفة أخرى تشكل أخلاقاً مبدؤها احترام العالم.

وإذا ما تصورنا التعاليم المتصلة بالممارسة ألفينا، على العكس، كأنها تتوزع من تلقاء ذاتها بين فئتين.

الفئة الأولى: لاتقتل أبدا، لا من أجل العقوبة، ولا حتى من أجل الدفاع عن النفس. ومن لطمك على خدك فحوّل له الآخر. وإذا أُخذ ثوبك؟ فأعط رداءك. لاتستل سيفك أبداً. ما فائدة ذلك؟ وإذا ما اضطُهدت فهلّل فرحاً. وإن انقاذك حياتك يعدل هلاكها. بعْ جميع أموالك وأعط ثمنها للفقراء. ليس لك كيس ولامزود. إن كنتَ فقيراً فابق فقيراً، وعش مع الفقراء، حيث تجعلون كل شيء مشتركاً بينكم. لاتعمل لكسب رزقك: إن الزنابق لاتعمل. إن كنتَ عزباً فلا تتزوج: اخصِ نفسك من أجل (ملكوت السموات). وإن كنتَ متزوجاً فامتنع عن الإنجاب: ها هي ذي الأيام التي تأتي ويقال فيها: طوبى للعواقر! احتقر أسرتك الجسمانية. اترك والديك وأبناءك. أبغضهم. انظر إلى السلطات السياسية نظرتك إلى الشيطان. لاتكن ملكاً، ولاقاضياً، ولاسيداً. ترقب الثورة الكبرى التي سترى انهيار العروش، وهي ستجعل الأغنياء فقراء، والأواخر أوائل. لا تَدْعُ أحداً «أباً» ولا «دكتوراً»، حتى داخل الكنيسة ذاتها: فـ (يسوع)

وحده هو الدكتور والمعلم، وجميع الناس دونه اخوة ومتساوون.

ألا نرى جميعنا أن كل هذه التعاليم يتسق بعضها وبعض وتشكل «كلاً» يدعو أحدها الآخر. كل شيء جلي. المبدأ: الفزع من العالم.

العالَم؟ إنه (المجتمع) الذي ننتمي إليه ونضطلع بمصيره. إنه الأسرة التي يربطنا بها ألف وثاق متين أو ضعيف. إنه الثروة التي تغذي حياة البشر حتى ولو كان توزيعها ظالماً. وهو أخيراً الحياة ذاتها والتي كل ما عداها لاشيء. إن بغض العالَم هو إذن، من الناحية المنطقية، بغض (المجتمع)، والأسرة، والثروة، والحياة بالذات.

وهذا البغض للعالم عذب بحركاته، وبصورة موقوتة. والمسيحي لن يندفع نحو غزو العالم الملعون. إنه، على العكس، سيتحمل أسوأ صنوف المعاملة دون أن يجأر بالشكوى. ولكن حقده، وإن لم يكن حقداً فاعلاً منذ الآن، يظل على الرغم من ذلك، حقداً قوياً: إن من يجسدون هذا العالم، الشيطان، الأغنياء، الملعونون قاطبة، سيُعذبون عندما يحين الوقت. وإنما يتفجر الفزع من العالم، منذ اليوم، صيحات وحشية هنا وهناك: تعساً لكم أيها الأغنياء! تعساً لَمن ستكنّ حبالى!... وأيضاً: أبغض امرأتك، وأباك، وابنك!.

لذا ينبغي الاحتراس، كل الاحتراس، من الاعتقاد بأن هذه الأخلاق، وهي وادعة وحائلة، هي أخلاق زهد صابر. ولاريب في أن الإنسان الذي سيتحلى بها في هذه الدنيا سيتميز في أعماله باحترام القريب، والعذوبة حيال أعدائه، وأنه ضحيةٌ متأهبٌ دوماً للصفح والمغفرة. ولكنه، بدل الصبر، يترقب، على العكس، رعشة عنيفة، يترقب نهاية هذا العالَم الذي يمقته، وينتظر الانقلاب العظيم الذي سيكنس المجتمعات، والأسر، والأغنياء، وأولي النفوذ، ويتيح ـ أخيراً ـ (للمسيح) أن يقول: «انتصرت على العالَم». وبذا ستزدهر فوق الأطلال ما لانعرف من أعاجيب.

طائفة ثانية من التعاليم: ابتع سيفاً. اعدم المجرمين. إذا هدّد الموت حياتك

فاهرب إلى الجبل. إذا اضطُهدت في مدينة فاهرب إلى أخرى. ـ خذ كيساً ومزوداً. اشتغل لتكسب رزقك. استثمر أموالك بتوظيفها لدى أصحاب المصارف. تصدق: ولكن أحداً لايطالبك باعطاء كل ماتملك. دع حقلاً لتفوز بمائة حقل، وبيتاً لتلقى مائة بيت. ـ تزوج وكن مع امرأتك جسداً واحداً. افرح إن أنجبت زوجتك ابناً. أكرم أباك وأمك. أحب أطفالك، وكن متسامحاً معهم. ـ اخضع للسلطات القائمة. أعط ما لقيصر لقيصر. أحكم على اخوتك. وإذا كانوا عصاة اطردهم. ليخدمك أتباعك. وليجلب لك عبدك وهو متمنطق طعامك. احترم في الكنيسة الرؤساء ورعاة القطيع الذي وهبوا أنفسهم للحقيقة، وهم سادة يحطون عنك خطيئاتك، أو يبقونها عليك.

هنا أيضاً، كيف لاندرك أن التعاليم تترابط، وأن مبدءاً مشتركاً يسودها؟ وهذا المبدأ يعارض كل المعارضة مبدأ الأخلاق الأخرى، وقوامه بوجه الدقة احترام العالَم؟

إن السلطات الدينية موجودة. وقد ظلت موجودة منذ القدم والرؤساء السياسيون موجودون. والمحاكم موجودة. وصنوف الترتب الاجتماعي موجودة. والأسرة موجودة: وبدل الثورة على هذه الوقائع، علينا أن نحترمها. وإن العالم يحيا بمن هم مواطنون صالحون، ومعلمون صالحون، وعبيد صالحون، وآباء صالحون، وأبناء صالحون: فلنكن هؤلاء كافة. والعالَم يحيا كذلك بلا ريب، يحيا بالجهد الدؤوب الذي ينفقه مَن يعملون ويكسبون رزقهم: فلنعمل لكسب رزقنا. أجل، إن عالماً آخر سيأتي بلا ريب، وهو عالَم أعدل، وأعذب، وأفضل: ولكن الذين سيسهمون فيه هم الذين يحترمون في هذا العالم النظام ويعملون للحفاظ عليه.

والحق أن هذا المذهب الأخلاقي الثاني هو الذي يمكن أن ندعوه، بوجه من أوجه الاعتبار، أخلاق الصبر، لأنه يتكيف والمسيرة العامة للعالَم الذي يتعلق به. ولكن هذا الصبر صبر فاعل مادام يجعل الإنسان مواطناً نافعاً، رب أسرة، عاملاً.

وفي الأحوال كلها، يبقى ثمة واقع لايطاله الشك: إن هذه الأخلاق تعارض بدقة معارضة عنيفة الأخلاق المرتعدة التي حدّدناها قبل هنيهة. فإذا ما اصطدمت التعاليم، فذاك يرجع إلى أن المبدأين يتناقضان.

نخلص إذن إلى أن تعارض النظريات يؤدي إلى مذهبين أخلاقيين متناقضين. فهل يمكن رفع هذا التناقض؟ وإن امتنع ذلك فهل يمكن تفسيره؟

الفصل الحادي عشر

بعض محاولات إقامة الوحدة

على الرغم من أن الباحثين يتحدثون، بوجه عام، عن «أخلاق إنجيلية» فإن التناقضات النظرية والعملية التي يحفل بها الإنجيل قد لاتستحوذ على انتباه القرّاء المتعجلين، وبالحري اللاهوتيين والمؤرخين والمفسرين.

لذا بذل الباذلون، منذ بعيد، جهودهم للتخفيف من هذه التناقضات، إن لم نقل لحذفها.

وهذه الجهود قمينة بالاحترام. وهي في الغالب بارعة ونافعة. ولكنني أود أن أظهر خلوها من القيمة على الصعيد العلمي.

ـ ١ ـ

طريقة اللاهوتيين: ١ ـ بعض أساليب حذف التناقضات. ٢ ـ صعابها. ٣ ـ إنها خالية من القيمة من وجهة النظر العلمية.

يعتنق اللاهوتيون المرغمون على أن يقدموا للمؤمنين قاعدة جلية بارجاع النصوص إلى الوحدة، يعتنقون الطريقة التالية: حينما تتناقض النصوص تناقضاً حرفياً يبحثون عن الروح التي يقولون إنها واحدة.

فماذا تراهم فاعلون لبلوغ مأربهم؟ إنهم يضعون على المستوى الأول النصوص المؤيدة لمذهبهم تاركين لها ملء معناها (أي الأخلاق التي تعلمها الكنيسة آنئذٍ) ويتملصون من النصوص الأخرى بـ «شرحها».

وهم في سبيل هذا الشرح يستعملون سبلاً واثقة.

إما أن يفسروا معنى كلمة، أو جملة، ويوضحوا دلالتها الخام وكلما مضوا في بيانهم استولى الغموض على البداهة ذاتها وفرّ المعنى الذي كان يفرض نفسه.

وإما أن يعلنوا أن في النص الذي تبدو دقته، في بادئ الأمر، مزعجة، أن فيه «معنى مضمراً وبديهياً»، وأن هذا المعنى المضمَر (وهم يملكونه) يجعل النص يقول عكس مايبدو من دلالته.

وإما أن يذهبوا إلى أن من الواجب الإحجام عن فهم الصيغة المزعجة فهماً «حرفياً»: فهي عندهم مجاز، طراز من طراز التعبير، صورة مضخّمِة، غلو.

وإما، أخيراً، أن يفترضوا، في حالات اليأس، أن الكاتب الإنجيلي لم يعرف كيف يعبّر، وأنه «تعثر» قليلاً في إنشائه، ولذا نجدهم يتفضلون هم بالرجوع إلى المصدر الذي استقى منه وإذ ذاك يستعيضون هم عما تعثر فيه بما كان عليه أن يذكره.

وعندما يبرع أحدهم باللعب باثنتين أو ثلاث من هذه السبل تتلاشى التناقضات، وتخفّ التعارضات، وترجع الوحدة للظهور.

* * *

أتريدون بعض الأدلة على ذلك؟

إنني لن أسأل مفسري عصر الآباء أو العصر الوسيط، وهم غرباء عن مناهجنا الإنتقادية. بل أسأل كتّاباً كاثوليكيين معاصرين، وبعضهم، مثل الأب (لاكرانج)، من العلماء الأفذاذ البارعين.

إليكم الجملة الشهيرة التي تؤيد (الشريعة) الموسوية: لايفنى حرف ولانقطة من (الناموس). وقد سأل الأب (لاكرانج): كيف نوّفق ذلك مع إلغاء الشريعة الموسوية؟ والحق أن الأمر يبدو عسيراً. ولكن الأب (لاكرانج) يجيب بهدوء لايفوقه هدوء: «ذلك أن (يسوع) لم يكن يستهدف القانون الأخلاقي الذي لايزول» (القديس متى ص٩٤). فكيف تسنى للمفسّر أن يعرف قصد (يسوع) وأنه حين يقول (الناموس) إنما يعني جزءاً من (الشريعة)، الجزء الأخلاقي؟ إن المعنى المضمَر الرهيب أمر بديهي.

وفي إنجيل (متى) يعلن (يوحنا المعمدان) أن عماد (يسوع) لن يكون بالماء. وعلى العكس، يطرد إنجيل (يوحنا) من الملكوت كل من لايولد ولادة جديدة بالروح و«بالماء». فكيف نحذف هذا التناقض؟ وبما أن الكنيسة قد اعتنقت في الواقع العماد بالماء، فإن الأب «ابلامي» Abbe Bellamy يكتب بهدوء: «لاشيء يمنع الاعتقاد بأن الله لمّا يكشف النقاب بعد عن جميع الطقوس المقوّمة للعماد للقديس (يوحنا المعمدان) الذي كان في وسعه آنذاك أن يتكلم كلاماً لايخلو من الغموض». وبعبارة ثانية، من «المضمَر» أن (متى)، وهو يذكر قول (المعمدان)، يستشهد به على أنه مَثَل عما لاينبغي الإيمان به.

ألا يكفي هذا التفسير؟ إليكم تفسيراً آخر: عندما يقارن (المعمدان) عماده وهو بالماء بعماد (يسوع) وهو الذي سيكون بالنار وبالروح، فهذه المقارنة لاتتناول **قوام الطقس، بل نجوعه** وحسب: ذلك أن (يوحنا) يعني أنه «بقدر ما أن تأثير النار يبذّ تأثير الماء، فإن عماد (يسوع) سيكون أعلى من عماده لتطهير الروح من رجسها»(*). وبكلمة وجيزة، النار هي الماء، وإذ ذاك يتضح كل شيء.

(*) معجم اللاهوت (مادة: العماد/ث ١٧٠). أننا نعلم بصدد مسألة العماد جملتي إنجيل (يوحنا) المتناقضتين أشد التناقض: «وبعد هذا جاء (يسوع) وتلاميذه إلى أرض اليهودية ومكث معهم هناك وكان يعمد» (يوحنا ٢٢/٣)، و«مع أن (يسوع) ←

إن إنجيل (يوحنا) يفسر تفسيراً مادياً طقس الأوخارستيا (القربان المقدس): «جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق» (يوحنا ٦/٥٥) ولكن هذا الإنجيل ذاته يجعل (يسوع) يقول بعد قليل: «الجسد لايفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يوحنا ٦/٦٣). أيبدو ذلك متناقضاً؟ لنطمئن: إن تفسيراً أول كاثوليكياً يتقدم ويعلّمنا: إن كلمة جسد في الجملة الأولى تعني الجسد. ولكن كلمة جسد في الجملة الثانية تدل مجازاً على «عواطف الطبيعة الإنسانية». وبهذا يزول التناقض(*). ويأتي مفسر كاثوليكي آخر وهو الأب (كالم) Calmes ويقول: «عندما يعلن (يسوع): «الكلام الذي أقوله لكم روح وحياة» فإن لفظ (كلام) لايدل، (كما قد يخطر في البال)، على كلام (المسيح) بل على «الأشياء المقولة»(**). وكل شيء يصبح نظامياً.

إننا نعرف، عن ظهر قلب، الجملة الجميلة في الإنجيل الرابع: «تأتي الساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق». (يوحنا ٤/٢٣). إن هذه الجملة وحدها تلغي كل الطقوس، فكيف نوفقها مع الجمل التي تقيم في الإنجيل الطقوس أو تؤيدها؟ يجيب الأب (كالم): إن كلمات «بالروح والحق» إنما تهدف إلى الدلالة على «كلية الطقس». والجملة الشهيرة تعني إذن أن خصوصية (الشريعة) القديمة ينبغي أن تفسح المجال أمام العبادة الكلية». ولكن من المعلوم أن هذه العبادة الكلية قد يكون لها «معابدها، وقرابينها، وحفلاتها». ويكفي لذلك أن نقرأ أن «العبادة الروحية» تدل على «عبادة مادية كلياً»(***).

← نفسه لم يكن يعمّد بل تلاميذه» (يوحنا ٤/٢). وربما بدا أن التوفيق محال بين القولين. خطأ. فالأب (كالم) يكتب بكل تؤدة بصدد الجملة الأولى: «إن فعل العماد المعزو نحوياً إلى (يسوع) إنما يرجع في الواقع إلى تلاميذه» (ص١٩٤) وهكذا!..

(*) معجم اللاهوت مادة أوخارستيا ج ١٠٠٧ .

(**) كالم: ص ٢٦١ .

(***) انظر كالم ص ٢٠٩ .

يقول الإنجيل الرابع: «إن اليهود لم يقدروا أن يؤمنوا لأن (اشعيا) قال أيضاً: «قد أعمى عيونهم وأغلظ قلوبهم لئلا يبصروا بعيونهم ويشعروا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم» (يوحنا ١٢/٤٠). فكيف نوفق هذه النصوص مع تلك التي تقول إن اليهود إن لم يهتدوا فذلك نتيجة خطيئتهم؟ يقول الأب (كالم) حرفياً: «ينبغي تلطيف هذه العبارات على نحو يمكّننا من أن نعزو لها معنى يقبل الإنسجام مع مذهب الإنجيل». وعلى هذا فإن السبب الوضعي لهذا العمى هو كله لدى اليهود. وما الله سوى سببه السلبي من حيث أنه لم يمنعه. (القديس يوحنا ص٣٦٢).

وبقول وجيز: «لم يقدروا أن يؤمنوا» تعني «لم يريدوا أن يؤمنوا» وتدل إن الله أعمى اليهود، يعدل قول: إن اليهود أعموا أنفسهم. وعندما «نلطّف» العبارات على هذا المنوال تتلاشى كل صعوبة.

* * *

أيود القارئ بعض أمثلة عن «التفسيرات» المتصلة بالأخلاق العملية؟

يقول (يسوع): «وأي ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر لايجلس أولاً ويتشاور هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف الذي يأتي عليه بعشرين ألفاً» (لوقا ١٤/٣١). أجل، يبدو من الغريب أن يتحدث (يسوع) بمثل هذه البساطة عن ملك «يذهب للحرب» في إثر تلك الجمل الكثيرة التي تتحدث عن صانعي السلام وعن الودعاء. فماذا يفعل الأب (لاكرانج)؟ إنه يقول: «يبدو أن بلاد هذا الملك بلاد محتلة» (القديس لوقا ص٤١١). والجملة تبدو نابية عن الكلمة المشهورة: «كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون» (متى ٢٦/٥٢). صبراً! يقول الأب (لاكرانج): «إذا قبلنا أن (يسوع) يرسم هنا، بوجه عام، سمات وضع شديد القتام حيث يكون القول الفصل للسيف على الدوام، دون أن ينصح (رسله) باستخدامه بحال من الأحوال، فإنه قد استطاع بيان أن مما يتميز به هذا الوضع هو ضرورة اللجوء إلى السيف من أجل الحياة، إذا لم يكن للمرء مال ولامؤن». ليفهم من يقدر على الفهم! ويردف الأب (لاكرانج) قائلاً

دون أن يضحك (أو على الأقل دون أن نراه يضحك): «إن الجملة حين نفهمها على هذاالنحو واضحة كل الوضوح» (القديس لوقا ص٥٥٧).

وعندما دعت أم (يسوع) ابنها لم يلحق بها وقال: «ومن أمي وأخوتي؟» (مرقس ٣٣/٣). وقد يقول قائل: إنها شتيمة خطرة. ولكن الأب (لاكرانج) (وهو يستند هذه المرة إلى سلطة القدامى) يقول: «إن (الآباء) قد لاحظوا أن هذا الجواب لاينطوي على أية شتيمة لذويه، ولا على ما ينافي الواجبات التي تفرضها شريعة الله» (القديس مرقس ص ٧٠).

يقول (يسوع): «لاتدينوا». ونجده في أمكنة أخرى يؤيد وجود المحاكم، أو يقيم محاكم. تناقض؟ كلا. إن الأب (لاكرانج) يكتب بصدد الأمر الأول: «ليس الأمر بالبداهة أمر أحكام يطلقها المرء داخل نفسه، أو في نطق دون تفويض» (القديس لوقا ص١٩٧). فإذا قبلنا هذا التحديد «البديهي» زال التناقض.

يقول (يسوع): «وأما أنتم فلا تُدعوا سيدي لأن معلمكم واحد (المسيح) وأنتم جميعاً أخوة. ولاتدعو لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات ولاتُدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح» (متى ٨/٢٣ وما بعد). وهذا القول يعارض النصوص التي توجب أولوية (بطرس) و(الرسل) (وهذا يغاير العرف الكاثوليكي الماثل في دعوة البابا «الأب المقدس جداً» وإقامة دكاترة). وعلى ذلك فإن البروتستانت يستشهدون طوعاً بهذا النص في مناقشتهم الكنيسة الرومانية. يقول الأب (لاكرانج): «إنه لوم فريسي يطرح حالات حرفية بأكثر من حالات الروح». إن المسيحيين الأوائل «فهموا حق الفهم أنه ينبغي ألّا نأخذ هذه الآراء على علّاتها مأخذاً حرفياً» (القديس متى ص٤٤٠).

في وسعي أن أضيف إلى هذه الأمثلة عدداً لايحصى من أضرابها. ولئن مضيت إلى كتب «اللاهوت الأخلاقي» ألفيت، دون عناء، مؤلفين متميزين بالبراعة. من ذلك عبارة: «أحب قريبك كما تحب نفسك» تعني: «أحب

قريبك بأقل مما تحب نفسك» (لأن كلمة كما إذا فهمنا حق الفهم دلت على معنى المشابهة دون المساواة). ومن الممكن أن نفطن للجمل التي تصعق الرياء وهي تبيح التضييق العقلي، ونجد الأمر القائل: «أعط ما لقيصر لقيصر» وهو يبيح الغش الضرائبي(*).

إن المؤلفين الذين ألمحت إليهم هم باحثون وقورون ومعتدلون، وأنا أشعر لدى المقارنة بأنني أسيء إليهم إذا قارنتهم بأصحاب الفتاوي. زد على ذلك أن الكاثوليك ليسوا وحدهم الذين يستعملون هذه الطريقة اللاهوتية. وإن البروتستانت ليلجأون إليها عند الاقتضاء. أما المفكرون الأحرار فإنهم بلا ريب لايفسرون النصوص لينتزعوا منها معنىً مباغتاً، بل لم يتفق لهم في أغلب الأحيان الاستشهاد بالنصوص التي تروقهم وإهمال سواها.

* * *

إن مثل هذه الطريقة لاتبقي على أي تناقض. ومن الممكن التوفيق بين (أبيقور) و(أفلاطون)، وبين كتابي «المحاكاة» Imitation و«كاركانتوا» (Gargantua)، وعلى هذا النحو يصار إلى توفيق جميع النصوص المتناقضة في الإنجيل لاستخلاص أخلاق كاثوليكية ومحافظة، أو لاستخلاص أخلاق ديمقراطية، أو أخلاق اشتراكية، بحسب الرغبة. فمنذ اللحظة التي يمنح المرء فيها نفسه الحق في اختيار بعض الجمل والتملص من جمل أخرى، إما

(*) أجيز لنفسي إحالة القارئ على دراستي عن «الفتوى المسيحية المعاصرة» (دار نشر الكلمة ١٩١٣) ولاسيما ص ٣٨ وما بعد وص ١٣٦ ومابعد.
وعلى هذا النحو فإن الأستاذ (كوكول) Goguel صاحب الدراسات المتينة جداً في الغالب يكتب، بالرغم من ذلك: لايمكننا أن نفهم فهماً حرفياً تصريحاً من طراز ما يلي: «إن كان أحد يأتي ولايبغض أباه وأمه... الخ (مرقس ٢٦/١٩) لماذا؟ لايمكن الفهم الحرفي؟ «لايتسق» والانطباع العام الناجم عن تعليم (يسوع) ومع (مرقس) (٦/٧ - ١٣). ولاريب في أن «اللااتساق» يضمحل بفضل مثل هذه الطريقة (كوكول: «ملاحظات على أخلاق يسوع» في المجلة الفلسفية ١٩٢٣ ج٢ ص ٢٧٨ ومابعد).

بتجاهلها، وإما بتفسيرها، لاشيء يغدو أيسر من إقامة الوحدة بين المذاهب.

بيد أن من يعتنق وجهة نظر العلم يدرك أن هذا الطراز من الجهود يمثل تحدياً لكل طريقة علمية سليمة، وهل يحتاج ذلك إلى بيان؟

إن شارح الإنجيل إنما يختار، باسم تفضيله الشخصي، تصريحاً معيناً ليتألق في النور، ويختار نصاً آخر ليغرقه في الظلام، فيحفظ للنص الأخير معناه، ولكنه يقلب عن التصريح الأول معناه. فالشارح هو إذن صانع وحدة المذهب الوحيد الذي يقيمه إذ ذاك ويروق له أن يعمده بنعت الإنجيل: وهو في الواقع من صنعه.

أجل، إن لهذا المذهب شأوه بهذا الوجه من أوجه الاعتبار:

أخلاق (القديس أوغسطين)[٢٤م] Augustin، أخلاق (القديس توما)[٢٥م] الاكويني St. thomas D'Aquin، أخلاق (بوسويه)[٢٦م] Bossuet، أخلاق (روسو)، أخلاق (لامنه)، أخلاق (سان سيمون)، وهي كلها أبنية جميلة. ولكن مجرد ادعائها كلها أنها إنجيلية يكفي ليحمل على القول إن أياً منها ليس كذلك تماماً.

إن القاعدة الكبرى التي تسود الطريقة العلمية هي احترام الحادث احتراماً رهيفاً. وهو في دراستنا احترام النصوص. وهذه القاعدة الأساسية المطلقة إنما يخالفها كل من يسلخ عن جملة من الجمل أدنى قدر من معناها الجلي ليجعلها ترضخ لمذهب مبيّت. وليس في مكنة أي حرص على الوحدة أن يسوّغ غير ذلك. وما قيمة وحدة كاذبة تُنال على حساب الوقائع؟ إن أنبل رغبة أخلاقية لاتجيز لأي عالم أن يمس معنى نص من النصوص.

إنني أفهم أن هذا القانون، قانون العلم، لايمكن أن يقيد اللاهوت. وأن الأهداف المختلفة تقابلها طرائق مختلفة. ومن البديهي أن العلم بالمعنى الذي نقصده هو أمر ثانوي جداً في نظر مَن يملك الحقيقة سلفاً بطرق أخرى. وعلى هذه فلست أرمي إلى نقد اللاهوتيين الذين يمضون، باسم يقين أعلى من كل يقين علمي، إلى توحيد الأخلاق الإنجيلية بإثارة حدة النصوص أو بتشويهها.

ولهم الحق بذلك من وجهة نظرهم. ولكن طريقتهم من وجهة النظر العلمية لايمكن حتى أخذها بعين الاعتبار. فلا شيء يسوّغ الإساءة إلى واقع هو واقع الإساءة إلى النص.

ومن هنا يتضح سبب أنني لن أتمهل فترة أطول أمام الجهود التي بذلها اللاهوتيون بغية القضاء على التناقضات الأخلاقية في الإنجيل. فمن يشعبذ بمعنى النصوص يجد أن التصريحات التي أشرنا إليها سرعان ما تكفّ من التناقض: أما في نظر العلم فإنها متناقضة.

ـ ٢ ـ

محاولات أخرى لإقامة الوحدة: ١ ـ القول إن للمذهبين الأخلاقيين مبدءاً مشتركاً. ٢ ـ أحد المذهبين الأخلاقيين يخاطب النخبة والآخر جميع المواطنين. إن هاتين النظريتين تصطدمان بالنصوص.

ولقد حاول الباحثون إقامة الوحدة بطرق أخرى.

قالوا: لنوقف المناقشة. لاريب في أن الإنجيل ينطوي على أكثر من تناقض. ولكنه في الوقت ذاته ينطوي على مبدأ مشترك يسوده كله: ولما سأل أحد (الدكاترة) (يسوع) عن أعظم أمر في (الشريعة) أجابه قائلاً: «تحب الله من كل قلبك، وقريبك كنفسك». وإذ ذاك ما شأن التناقض في هذه المسألة أو تلك من المسائل العملية؟ فذاك هو الأمر الأعظم. وهو أمر مطلق. وينبغي الرجوع إليه كلما ظهرت حالة ريب: إنه وحده هو القانون.

هذه النظرية ذائعة اليوم كل الذيوع. ولكن ما قيمتها؟

لنفرض أننا نتخذ «مبدأ مشتركاً» جواب (يسوع) «للدكتور» (على الرغم من أن في وسعنا، بمثل هذا الاعتبار، أن نتخذ صيغاً إنجيلية أخرى، ومثلاً الصيغة القائلة: «مَن يؤمن له الحياة الأبدية» أو «مَن يأكل جسدي ويشرب دمي له حياة أبدية») فعندما نعتنق هذا الإختيار نحصل على وحدة لفظية. وبعدئذٍ؟

إن الصيغة القائلة ذاتها: «أحب الله وقريبك» قد توائم الأخلاق الفيثاغورية[٢٧م]، وأخلاق (فولتير) Voltaire، وأخلاق (روسو): أفنقول: إن هذه المذاهب الأخلاقية كلها متماثلة؟ وعلى ذلك نجد أن الجملتين اللتين تتألف منهما هذه الصيغة إنما متحهما (يسوع) من «العهد القديم»: أترانا نقول لاتوجد أخلاق إنجيلية وأن «العهد القديم» قد قال سلفاً كل شيء؟

الحق أن هذه الجمل العامة يمكن أن توجد متشابهة في منطلق مذاهب أخلاقية متباينة كل التباين. «أحب الله»: حسن جداً! ولكن أي اله؟ إن المسألة كلها هنا. «أحب قريبك»: رائع! ولكن كيف أحبه؟ تلكم هي المشكلة. وإن روح المذهب الأخلاقي بأسره لتتبع الإجابة عن هذين السؤالين.

لقد اتفقت لنا الإشارة إلى أن في الإنجيل، من الناحية الأخلاقية، إلهين: اله الوداعة والمغفرة الذي لم يرسل ابنه ليدين العالم، بل ليخلص العالم معه، الإله الرحيم الذي يجعل شمسه تشرق على الأبرار والأشرار، إله التواضع الذي يتأنس ويدير خده للطمه ويحيا في الفقر ويموت على الصليب. وهناك الاله الغني والقادر الذي يحكم عبيده ويخشوه، وهو يبيد أعداءه، ويبشّر الأمم بمصائب وبهدم (أورشليم)، وهو يدين الخاطئين ويرسلهم إلى الظلمة الخارجية حيث الدموع وصرير الأسنان.

يقولون لنا: تشبّهوا بالإله. ولكن بأي هذين الإلهين؟ إن جملة سلوكنا الأخلاقي تتبدل تبع محاكاتنا هذا الإله أو ذاك.

والحال ذاتها فيما يتصل بالأمر الآخر: «أحب قريبك»... هذا قول سريع، ولكن كيف نحبه؟ أيجب علينا بسائق الحب احترام حياة اخوتنا ونجدتهم والعفو عن الأشرار وتقديم خدّنا لهم ومنحهم أموالنا كلها، أم يجب علينا بسائق الحب، إعدام المجرمين، واستلال السيف، وحمل عبيدنا على التمنطق لخدمتنا؟ أيجب علينا، بحافز الحب، أن نحب، بالمعنى المألوف للكلمة، الزوجة، والأبناء، والأخوة، والأخوات، والوالدين؟ أم أن علينا، بدافع الحب، أن نتركهم و«نبغضهم»؟ إن أحد مذهبي الأخلاق الماثلين في الإنجيل يدفعنا في اتجاه، والآخر في الاتجاه الآخر.

إنني أفهم تماماً أن قليلاً من البراعة يجعل من اليسير تبيان أن بغض المرء ذويه هو حبه إياهم حباً حقيقياً، وأن هجر الرجل زوجه هو الوسيلة المثلى ليكون وإياها جسداً واحداً، وأن اعدام المجرمين هو في الواقع إسداء خدمة لهم. ولكن هذه المفارقات الصغيرة المستعملة لاتقدر على أن تجد محلاً لها في نطاق بحث جاد. ولذا ليس في مكنة الوحدة الخادعة لصيغة من الصيغ أن تخفي عن أنظارنا التناقضات الأخلاقية التي يحفل بها الإنجيل.

نظرية أخرى: لئن كان في الإنجيل مذهبان أخلاقيان فذلك لايرجع إلى أن (يسوع) يناقض نفسه بل إلى أن ثمة فارقاً بين ما يوصي به ومايُلزم به. فالأخلاق التي تنشد الامتناع التام والإحجام هي أخلاق يقترحها الله على النخبة، ولكنه لايلزم بها عامة البشر. أما الأخلاق الأخرى، وهي أقل رفعة وسمواً، فإنها لاتمثل المثل الأعلى، بل الحد الأدنى: إن واجباتها مقتضبة، وتنازلاتها تبلغ الحد الأقصى.

وهذه النظرية تلقى ذيوعاً مذهلاً في تاريخ الشعوب المسيحية: فقد طُلب من رجال الدين، ولاسيما من الرهبان، التقيد بأخلاق الامتناع تقيداً صارماً. وطُلب من السواد مراعاة الأخلاق الأخرى. فمن جهة أولى، وُجد بعض مؤمنين متميزين امتنعوا عن كل قتل، ولم يملكوا شيئاً، وتركوا أسرهم، وأحجموا عن تأسيس أسر جديدة، وظلوا بمنأى عن المعارك السياسية. ومن جهة أخرى، وُجد أناس ثابروا في إثر (المسيح) على العيش كما ينبغي لهم من خوض معارك، وإعدام مذنبين، ومن العمل والكفاح في سبيل المال وتأسيس أسر وتنظيم المجتمع.

ولكن لسوء حظ أنصار هذه النظرية من المحال دعمها بأي نص من نصوص الإنجيل.

ولو أن(يسوع) الإنجيل أراد أن يقدم للناس مذهبين في الأخلاق، أحدهما خاص بالنخبة، والآخر بالجمهور، لكان أبان ذلك بوضوح. «ليس في

هذه الفكرة أي إرهاف يتعذر تفسيره: وهل أبسط من أن يقول مثلاً للشاب الغني: بعْ كل ما تملك، أو يقول، على الأقل، بعْ نصف ما تملك، أو ربعه، أو عشره؟ وما أبسط أن يقول لغيره: إبغض أباك وابنك ـ أو يقول، على الأقل: لاتدع العواطف الشهوية تستولي على روحك بأسرها.

بيد أن (يسوع) لايقول شيئاً من هذا القبيل.

فهو لايحرص حين يطلق أمراً ينطوي على بعض قسوة، لايحرص على أن يضيف، كما في «الاشعار الذهبية» للفيثاغوريين: «... إذا استطعت لأن الممكن يجاور الضروري». بل إنه يعلن بصراحة مطلقة أن من الواجب التقيد بإطاعة الأمر، وأن من لايطيع ذلك يطرد من (الملكوت): لاتستل السيف لئلا تهلك به. لاتحاول إنقاذ حياتك حتى لاتفقدها. إغفروا وإلّا فلا يُغفر لك. لاتقل لأخيك: يا معتوه! وإلا أصبحت مداناً بنار جهنم. لاتكن غنياً، وإلا فإنك «ستجوع». بعْ كل ما تملك وإلا حرمت من ملكوت السموات. ابغض امرأتك ووالديك وأطفالك، وإلّا فلن تكون «للمسيح» تلميذاً. لاتحاول أن ترفع من نفسك حتى لاتصبح الأدنى.

إن هذا واضح كله: فالأمر ليس أمر مثل أعلى ينبغي التطلع إليه، بل مثل أعلى لسنا ملزمين ببلوغه. إن الأمر أمر تعاليم موجهة للجميع دون أن تتسع أية كلمة منها لقبول أي تضييق. من قاوم فإنه سيُدان. ولايقتصر ذلك على مخالفة أكثر النصوص دقة ومخالفة روحها معاً، بل إنه يسلخ عن الأخلاق الرفيعة كل ما يجعلها رفيعة.

لننتقل إلى المذهب الآخر، المذهب الذي يعلّم احترامَ العالَم. فأين يقدم (يسوع) هذا المذهب على أنه أخلاق من الدرجة الثانية، نوع من الحل الأسوأ الجدير بالعامة؟ إنني أفهم أن هذا المذهب لايتجلى في صيغ مبهرة كالصيغ السابقة لأنه هو ذاته مذهب أقل إبهاراً. ولكنه لايخجل البتة في أن يكون على نحو ماهو عليه. إنه يأمر، ويتوقع إطاعة أوامره. بل إنه يوحي بصفحات ممتعة.

لنأخذ مشكلة الحياة الإنسانية؟ إن (يسوع) يعرب عن رأيه بعبارة

صريحة: اشتروا سيوفاً. وبعبارة صريحة أيضاً يؤيد قانون قتل الناس بعضهم بعضاً. ينبغي قتل كل من يشتم أباه أو أمه. وبعبارة صريحة كذلك يقول: إذا اضطهدتم في مدينة فاهربوا إلى مدينة أخرى. وليس الأمر أمر تنازلات. بل هي أوامر.

وعلى صعيد الثروة؟ إنها جملة قوية معزوة إلى الله، وهي تتصل بحق التملك. «أليس مباحاً لي أن أفعل ما أريد بما أملك؟» إنه حكم مبرم يقضي بطرد العبد المذنب الذي لم يضع أموال سيده في المصرف وقذفه إلى الظلمة الخارجية. وهذا تصريح رسمي يعد التلاميذ بربح مادي، بيوت وحقول، لقاء هديهم.

أما في مجال الأسرة؟ فإن الله نفسه هو الذي أمر بالزواج، وأمر بإكرام الأب والأم. وفي دنيا المجتمع؟ إنها جملة بارعة، ولكنها قاطعة، تلك التي تأمر بدفع الضرائب. وإنه بأمر دقيق من(يسوع) تقام المحاكم المسيحية ويقام الحرمان. وهذا الأمر يجعل (بطرس) رئيس القطيع.

وأخيرا، إذا كانت أخلاق الامتناع توحي بخواطر قوية تظل منقوشة في الذهن، فإن الأخلاق الأخرى تحسن الإعراب عن ذاتها بحكايات عذبة مؤثرة: أجل إن (أب) الابن الضال لا «يبغض». إنه يجهل الأخلاق الجافة التي تجعل هذا الحقد قانوناً. وعلى الرغم من ذلك فمَن يجسر على الزعم بأن قصته، حتى ولو نظرنا إليها من وجهة النظر الإنسانية وحدها، لاتنمّ إلا عن رأي أخلاقي وضيع جدير بالعامة، عن شيء ما عادي لايحظى باهتمام النخبة؟

هذا «التفسير» الثاني، كما ترى، لايستطيع مواءمة الحوادث فليس في الإنجيل بالفعل مبدأ يسود مذهبي الأخلاق. وكذلك لاتوجد أخلاق خاصة بالنخبة وأخرى خاصة بالعامة. (وإلى جانب الفوارق النظرية) يوجد مذهبان يتجهان كلاهما إلى الجميع، ولكنهما يتناقضان.

ـ ٣ ـ

محاولة تفسير أخيرة: إن التناقض يتلاشى إذا نظرنا إلى كل إنجيل وحده. ١ ـ التناقضات في الإنجيل الرابع. ٢ ـ التناقضات في الأناجيل المتقاربة.

يبقى اعتراض من نوع آخر.

سيقال: من البراعة المسرفة أن ننظر إلى الأناجيل الأربعة على أنها كل، وأن نمتح من هنا وهناك، ونرصف الصيغ المختارة بعضها إلى جانب بعض. ألا تنبثق التناقضات بكل بساطة عن أن لكل مؤلف إنجيلي مايفصل من الناحية الأخلاقية؟ أفلا تضمحل هذا التناقضات إذا درسنا هذه الأناجيل فنفصل أحدها عن الآخر بدل اعتبارها جملة واحدة.

لاشيء أكثر معقولية، بصورة مسبقة، من مثل هذا الاعتراض.

قلت فيما سبق لماذا كنت أنظر في القسم الأول من هذه الدراسة إلى الأناجيل الأربعة نظرتي إلى كتلة واحدة. ولكن قد يتفق أننا نرى التناقضات تتلاشى عندما نفرّق هذه الجملة.

بيد أن فحص النصوص لايؤيد مثل هذا الاتجاه.

إن الإنجيل الرابع يتميز عن الأناجيل المتقاربة بصبغته العامة، ويمتد ذلك إلى وجهة النظر الأخلاقية. إنه من صنع كاتب نظري يعنى بالمشكلات الفلسفية أكثر من عنايته بالمشكلات العملية. ولذا فإنه يعلّمنا أسوأ تعليم عن المذهب بالمعنى الصحيح، عن التعاليم المتصلة بالحياة، وبالملكية، وبالأسرة. ولكن مؤلف الإنجيل الرابع يناقض نفسه في كل لحظة أشد التناقض في المجال النظري الذي يقتصر عليه.

وينفرد إنجيل (مرقس) عن الأناجيل المتقاربة بأنه يحدث الانطباع، بادئ ذي بدء، بأنه واحد غيرها، ولكن ذلك يرجع بكل بساطة إلى أنه يضم عدداً أقل جداً من الصفحات المتصلة بالأخلاق. لاتوجد «موعظة على الجبل»

والأمثال المضروبة قليلة. وبوجه الإجمال، صورة فقيرة جداً عن الأخلاق المعزوة إلى (يسوع). ولكن ذلك لايمنع من أننا نجد تناقضات خطرة في التعاليم التي يذكرها (مرقس).

وهذه التناقضات تنفجر في كل صفحة من صفحات إنجيلي (متى) و(لوقا) وفي كل نقطة. فالتعاليم، كما نعرف، كثيرة. وكذلك الأمثولات. ولكن كلما كثرت المعلومات كثر اصطدام بعضها ببعض.

وهذا ما سيظهر من اللائحتين التاليتين. الأولى تحتوي نصوصاً متناقضة في الإنجيل الرابع تتصل ببعض مشكلات الأخلاق النظرية، والثانية تحتوي نصوصاً متناقضة في الأناجيل المتقاربة مما يتصل ببعض مشكلات الحياة العملية.

١ ـ تناقضات إنجيل (يوحنا):

١) مع «العهد القديم» وضده

جميع الذين أتوا قبلي هم سرّاق ولصوص (١٠/٨)	... الخلاص هو من اليهود (٤/ ٢٢).

٢ ـ الأخلاق والطقوس

الله روح. والذين يسجدون له في الروح والحق ينبغي أن يسجدوا (٤/٢٤).	إن كان أحد لايولد من الماء والروح لايقدر أن يدخل ملكوت الله (٣/٥)
تأتي الساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب والحق (٤/٢٣)	إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم (٦/٥٣).
أما الجسد فلا يفيد شيئاً (٦/٦٣)	من يأكل جسدي ويشرب دمي له حياة أبدية (٦/٥٤).

الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة (٦٣/٦)

لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق (٥٥/٦).

٣) الأخلاق والإيمان

وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً (٣٤/١٣)

هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله (٢٩/٦).

٤ ـ الحرية والمسؤولية

لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطيئة (٤١/٩)

لأنكم لاتقدرون أن تسمعوا قولي. أنتم من أب هو ابليس... (٤٣/٨ ، ٤٤)

لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطيئة (٢٢/١٥)

لم يقدروا أن يؤمنوا لأن (أشعياء) قال أيضاً.. «قد أعمى عيونهم وأغلظ قلوبهم لئلا يبصروا (١٢/ ٣٩ ، ٤٠).

٥) الدينونة

لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم (٣/ ١٧)

الآب لايدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن (٥/٢٢).

٦) البعث الروحي والبعث الجسدي

من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية. قد انتقل من الموت إلى الحياة (٢٤/٥)

... وأنا أقيمه في اليوم الأخير (٥٤/٦)

يتضح إذن أننا حين ننظر إلى الإنجيل الرابع وحده نجده أكثر الأناجيل رفضاً قاسياً للـ «العهد القديم»: «جميع الذين أتوا قبلي هم سرّاق ولصوص». ولكن هذا الإنجيل هو أيضاً الذي يؤكد أن «الخلاص هو من اليهود» وهو الذي يعلن في صيغة متألقة ظهور ديانة روحانية محضة. ولكنه هو كذلك الذي يعلن أن من دون العماد بالماء ودون أكل الجسد يمتنع الخلاص. ويبدو أنه يرجع الشريعة الأساسية إلى شريعة المحبة.

ولكنه في الوقت ذاته يبدو أنه يرجع المحبة إلى الإيمان. وهو يبين أن لاخطيئة حيثما يوجد عمى. ولكنه يدين اليهود الذين لايقدرون على الإيمان لأنهم عميان. وهو يقول إن ستكون دينونة وسوف لاتكون ويصرح أن مَن يؤمن فقد بُعث سلفاً وأن له سلفاً الحياة الأبدية ويصرح أنه سيبعث في اليوم الآخر.

لننتقل إلى التناقضات الأخلاقية في الأناجيل المتقاربة: وقد رأيت اجتناب الإطالة بالاقتصار على ذكر بعض الجمل المتصلة بالأخلاق العملية.

٢ ـ التناقضات الأخلاقية في الأناجيل المتقاربة

١) ـ الحياة الإنسانية

آ ـ القتل

أنت تعرف الوصايا.. لاتقتل (مرقس ١٠/١٩)

ماذا يفعل صاحب الكرم. يأتي ويهلك الكرّامين (مرقس ١٢/٩)

ابن الإنسان لم يأت ليُهلك أنفس الناس بل ليخلّص (لوقا ٩/٥٥)

لأنه يكون ضيق عظيم على الأرض وسخط على هذا الشعب ويقعون بفم السيف (لوقا ٢١/٢٣)

ب ـ الحرب

طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون (متى ٥/٩)

لاتظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ماجئت لألقي سلاماً بل سيفاً (متى ٥/٩)

ردّ سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون (متى ٢٦/٥٢)

يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً صنع عرساً... (وهذا الملك) أرسل جنوده وأهلك أولئك القاتلين وأحرق مدينتهم (متى ٢٢/٢ ، ٧)

أحبو أعداءكم... (لوقا ٦/٢٧)

ومن ليس له (سيف) فليبع ثوبه ويشتر سيفاً (لوقا ٢٢/٣٦)

جـ ـ عقوبة الإعدام، الدفاع المشروع عن النفس

لاتقتل (مرقس ١٠/١٩)

موسى قال... من يشتم أباً وأماً فليمت موتاً (مرقس ٧/١٠)

لاتدينوا لكي لاتدانوا (متى ٧/١)

وأنا أقول لكم إن كل مَن يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم (متى ٥/٢٢)

وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً (متى ٥/ ٣٩)

يأتي سيد ذلك العبد في يوم لاينتظره فيقطعه (متى ٢٤/٥٠)

د ــ الرأفة

ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما رآه تحنّن فتقدم وضمّ جراحاته وصبَّ عليها زيتاً وخمراً (لوقا ١٠/٣٣)

قال يا أبي (ابراهيم) ارحمني وأرسل (لعازر) ليبلّ طرف اصبعه بماء ويبرّد لساني.. ولكن (ابراهيم) يقول.. بيننا وبينكم هوة عظيمة قد ثبتت... (لوقا ١٦/٢٤ ، ٢٦).

هــ ــ احتقار الحياة

لاتخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لايقدرون أن يقتلوها (متى ٥/١١)

ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى (متى ١٠/ ٢٣)

وسوف تسلّمون... ويقتل منكم (لوقا ٢١/١٦)

ولكن شعرة من رؤوسكم لاتهلك (لوقا ٢١/١٨)

٢ ــ خيرات هذا العالم

آ ــ الثروة وملكوت الله

إن مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غني ملكوت الله (متى ١٩/٢٤)

جاء رجل غني من الرامة اسمه (يوسف) وكان هو أيضاً تلميذاً لـ (يسوع). (متى ٢٧/٥٧).

ب ــ الصدقة

بعْ كل مالك ووزع على الفقراء (لوقا ١٨/٢٢)

أنا يا رب أعطي نصف أموالي للمساكين.. فقال له (يسوع): اليوم حصل خلاص لهذا البيت (لوقا ١٩/٨ ، ٩).

جـ ـ النزاهة

فمدح السيد وكيل الظلم إذ بحكمة فعل... وأنا أقول لكم اصنعوا لكم اصدقاء بمال الظلم (لوقا ٩/٨)	أنت تعرف الوصايا: ... لاتسرق (لوقا ١٨/٢٠)

د ـ الاهتمامات المادية

لاتحملوا شيئاً للطريق، لاعصا ومزوداً ولاخبزاً ولافضة (لوقا ٩/٣)	لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك... (لوقا ٢٢/٣٦)
ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله (مرقس ١٠/٢٣)	ليس أحد ترك بيتاً أو اخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو... إلا ويأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتاً... وحقولاً.. (مرقس ١٠/٢٩)
اعملوا لكم أكياساً لاتغنى، وكنزاً لاينفذ في السموات (لوقا ١٢/ ٣٣)	أو أية امرأة لها عشرة دراهم إن أضاعت درهماً واحداً لاتوقد سراجاً وتكنس البيت وتفتش باجتهاد حتى تجده (لوقا ١٥/٨)

هـ ـ العمل

انظروا إلى طيور السماء إنها لاتزرع ولاتحصد... تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو لاتتعب ولاتغزل (متى ٦/٢٦ ، ٢٨)	لماذا وقفتم ههنا كل النهار بطّالين؟ اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم (متى ٢٠/٦ ، ٧)

وأما (مرثا) فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة.. قال لها الرب: (مرثا)، (مرثا)، أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة! (لوقا ٤٠/٢٠ ، ٤١)

طوبى لأولئك العبيد إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين!... (لوقا ٣٧/١٢)

و ـ التجارة

دخل (يسوع) إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل... وقال لهم: مكتوب بيتي بيت الصلاة وأنتم جعلتموه مغارة لصوص (متى ١٢/٢١ ، ١٣)

... ومضى الذي أخذ الخمس وزنات وتاجر بها فربح خمس وزنات أخرى... فقال له سيده نعماً أيها العبد الصالح والأمين... (متى ١٦/٢٥ ، ٢٣)

ز ـ الإقراض بفائدة

وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأي فضل لكم؟ فإن الخطاة أيضاً يقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المثل (لوقا ٦/ ٣٤)

أيها العبد الشرير... لماذا لم تضع فضتي على مائدة الصيارفة؟ فكنت متى جئت استوفيها مع رباً (روقا ٢٢/١٩ ، ٢٣)

ح ـ التكريز بالإنجيل والمال

مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا (متى ٨/١٠)

لأن الفاعل مستحق طعامه (متى ١٠/١٠)

٣ ــ الأسرة

آ ــ الزواج

يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات (متى ١٢/١٩)

يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته (متى ٥/١٩)

لأنهم متى قاموا من الأموات لايزوِجون ولايزوَجون (مرقس ٢٥/١٢)

ولكن من بدء الخليقة ذكراً وأنثى خلقهما الله (مرقس ٦/١٠)

إن كان أحد يأتي إلي ولايبغض أباه وأمه وامرأته.. فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً (لوقا ٢٦/١٤)

كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني (لوقا ١٨/١٦)

ب ــ الأمومة

هو ذا أيام تأتي يقولون فيها: طوبى للعواقر وللبطون التي لم تلد (لوقا ٢٩/٢٣)

امرأتك (اليصابات) ستلد لك ابناً... ويكون لك فرح وابتهاج (لوقا ١٣/١ ، ١٤)

جـ ــ الوالدان والأبناء

فأجابهم قائلاً: من أمي وأخوتي؟ (مرقس ٣٣/٣)

أنت تعرف الوصايا... أكرم أباك وأمك... (مرقس ١٩/١٠)

إن كان أحد يأتي إلي ولايبغض أباه وأمه... لايقدر أن يكون لي تلميذاً (مرقس ٢٦/١٩)

أنت تعرف الوصايا... أكرم أباك وأمك (لوقا ٢٠/١٨)

إن كان أحد يأتي إلي ولايبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده... فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً (لوقا ٢٦/١٤)

قدموا العجل المسمَّن واذبحوه فنأكل ونفرح لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش (لوقا ٢٣/١٥)

٤ ــ المجتمع والكنيسة

آ ــ السلطة السياسية

ملوك الأمم يسودونهم... وأما أنتم فلستم كذلك (لوقا ٢٥/٢٢ ، ٢٦)

أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فاتوا بهم إلى هنا اذبحوهم قدامي (لوقا ٢٧/١٩)

وأراه ابليس جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان: وقال له ابليس لك أعطي هذا السلطان كله وبعدهن لأنه إلي قد دُفع (لوقا ٤/٥ ، ٦).

أعطوا ما لقيصر لقيصر، ومالله لله.. (لوقا ٢٥/٢٠)

ب ــ السلطة القضائية

لماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك؟ (متى ٣/٧)

لاتدينوا لكي لاتدانوا (متى ١/٧)

وإن أخطأ أخوك فاذهب وعاتبه.. (متى ١٥/١٨)

وإن لم يسمعك فخذ معك أيضاً واحداً أو اثنين (متى ١٦/١٨).

أما أنا فأقول لكم: لاتقاوموا الشر... وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم (متى ٥/٣٩ ، ٤٤)	وإن لم يسمع منهم (الجماعة) فليكن عندك كالوثني والعشّار (متى ١٨/١٧)
وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لايغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم (متى ٦/١٥)	كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم (متى ٥/ ٢٢)

جـ التـرتب الاجتماعي

من أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم عبداً (متى ٢٠/٢٧)	ليس العبد أفضل من سيده (متى ١٠/٢٤)
بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدم كالخادم... ولكني أنا بينكم كالذي يخدم (لوقا ٢٢/ ٢٦ ، ٢٧)	ومن منكم له عبد يحرث أو يرعى يقول له إذا دخل من الحقل: تقدم سريعاً واتكئ؟ بل ألا يقول له: أعدد ما أتعشى به... واخدمني (لوقا ١٧/٧ ، ٨)

د ـ الترتب الكنسي

وأما أنتم فلا تُدعو سيدي... ولاتُدعوا معلمين (متى ٢٣/٨ ، ١٠)	ليس التلميذ أفضل من المعلم (متى ١٠/٢٤)
لأن معلمكم واحد... وأنتم جميعاً أخوة (متى ٢٣/٨)	أنت (بطرس) وعلى هذه الصخرة ابنِ كنيستي (متى ١٦/١٨)

* * *

يتضح إذن أن الأناجيل المتقاربة لاتناقض إنجيل (يوحنا) وحسب، بل إن هذا الإنجيل الأخير يناقض بعضه بعضاً، ولكن في جميع النقاط الأساسية يناقض (مرقس) (متى)، ويناقض (متى) (لوقا)، و(لوقا) يناقض (لوقا). ومن الجدير بالملاحظة أن التناقضات ليست خفية، بل جلية. وكثيراً ما تقف النصوص التي يمتنع التوفيق بينها جنباً إلى جنب.

هذه التناقضات الحقيقية، والعميقة، والجلية في كل إنجيل، أترى من المحال تفسيرها؟

الفصل الثاني عشر

محاولة تفسير تاريخي

إن تفسيراً أول يتقدم إلينا: إذا كان الإنجيل يحفل بالتناقضات فمردّ ذلك أن مؤلفيه وضعوا فيه، كيفما اتفق، أخلاق (يسوع) وطائفة من الأفكار والتعاليم الغريبة عن هذه الأخلاق.

لقد وعظ (يسوع). ولاريب في أننا لانملك أية مجموعة صحيحة عن خطبه لأن واضعي الإنجيل لم يكترثوا بقواعد الطريقة التاريخية وقد ذكروا إلى جانب أقواله ألفاً من الجمل التي ظهرت بعد موته وعزوها له بطمأنينة. ولكن لنفصل القمحة عن القشة! فنحصل من جهة أولى على أخلاق واحدة بسيطة هي أخلاق (يسوع)، ومن جهة أخرى على أخلاق مختلطة ومتنوعة وهي الأخلاق التي أنتجتها المجتمعات المسيحية بعد موت (المعلم). وليس بمستغرب البتة أن يتناقض هذان المذهبان الأخلاقيان في نقاط كثيرة.

بيد أن هذه النظرية البارعة تتكشف عن نقطة ضعف: فهي تستند إلى فرضية أن (يسوع) قد وُجد، وأنه قد وعظ. ونحن نعرف أن هذه الفكرة موضع نقاش شديد اليوم. وعلى الرغم من ذلك فإذا ثبت أن الأجزاء الأقدم من الإنجيل تحوي أخلاقاً، وأخلاقاً واحدة، فإن الأخلاق تنمّ بوحدتها عن يد صانع واحد، الأمر الذي يشكّل دليلاً جاداً يؤيد وجود (يسوع) وجوداً تاريخياً.

ولكن فحص النصوص لايكشف عن ذلك أبداً.

فمن جهة أولى، يتعذر في حال معرفتنا الحاضرة عزل أخلاق «أولية» داخل الإنجيل واعتبارها أخلاق (يسوع).

ومن جهة أخرى، إن المحاولات التي جرت في هذا المنحى تثير أمام المؤرخ صعاباً بأكثر مما تحلّ من صعاب.

ـ ١ ـ

أخلاق (يسوع): ١ ـ الصورة التي يقدمها الأستاذ (لوازي) ٢ ـ الصورة التي يقدمها الأستاذ (كينيبر) ٣ ـ اعتراضات على الطريقة المتَّبعة.

يجمع الأستاذ (لوازي)، في كتابه الجميل عن «(يسوع) والتقليد الإنجيلي»، يجمع نتائج بحثه التفسيري العليم ويقدم لنا لوحة إجمالية عن تعاليم (يسوع)، ولاسيما عن تعليمه الأخلاقي[٧].

إن أخلاق (يسوع) لاتزعم الاعتزاء إلى تقاليد مدرسة، بل ولا إلى (الشريعة) بالمعنى الدقيق: وهي تعارض تقاليد (الدكاترة) بإبراز صوت الوجدان. «إن (يسوع) يمتح أفكاره من الكنز المشترك في بيئته وعصره. ولكننا لانرى أنه يأخذ عن أي إنسان فيما يتصل بالمراد الذي يمتحه».

إن الأمر الأساسي هو قانون المحبة. فالله يشرق شمسه على الأبرار والأشرار. وعلينا أن نقتدي به ونحب الأشرار كما نحب الأبرار. علينا أن نمدّ خدنا الآخر، ونبيع كل مانملك ونعطي ثمنه للفقراء، وأن نتحرر من كل رباط أرضي ونفلت من «المحاذير الأخلاقية التي قد تنجم عن الاهتمام بالمصالح المادية ومن مضايقاتها»، وألا نبالي باللباس ولا بالشراب ولا بالطعام، وأن ننتظر ظهور (مسيا)[٢٨م]: إذ ذاك ينتقل العادلون المعجبون بالله إلى محل الغبطة المسيحية بينما سيُترك الآخرون بلا ريب في حالة موت لاينفي الألم.

ويخلص الأستاذ (لوازي) إلى القول: «إن هذه الأخلاق مصنوعة إذن من شعور عميق بالثقة بالله، ومن تكافل إنساني وحماسة دينية. وهذه المنظومة

منطقية جداً في مثاليتها». وإن ما تنطوي عليه من «مطلق، ومثل أعلى، وممتنع عن التطبيق» إنما يُفسر بمحايثة ظهور (مسيا).

ويذهب الأستاذ (كينيبر) إلى أن (يسوع) «يبدو وهو يلعب بالـ (شريعة) كيف يشاء». وإن تعليمه يدور حول أمرين أساسيين هما: تحب الله من كل قلبك، وكل روحك، وكل عقلك» و«أصلحوا أنفسكم، غيّروا قلوبكم».

لنفهم من ذلك: ابذلوا جهداً شخصياً قوياً شطر الخير حتى تنالوا العدالة، وقد تصورها (يسوع) على أنها جماع أخلاق رفيعة جداً، أخلاق ملأى بالحنان والاحسان. وهذه الأخلاق تطرح مثلاً أعلى للكمال هو الإقلاع عن كل أشياء الدنيا ارتكاساً على حب المال الذي يصرف الإنسان عن الله ويشدّه إلى الأرض»[٨].

* * *

يتبين لنا أن الخلاصة التي جاء بها الأستاذ (كينيبر) هي أكثر غموضاً وحيطة من خلاصة الأستاذ (لوازي). وهذا واقع هادف. يقول الأستاذ (كينيبر): «إن كل محاولة للوصول إلى دقة أعظم تتعرض لإقحام أفكار في فكر (المعلم) ليست هي من أفكار تلاميذه المباشرين»[٩]. ولكن هذين المؤلفين يتفقان في نقطة واحدة: إن الأخلاق العملية لدى (يسوع) هي أخلاق وزهد وتقشف. وهي التي قلنا نحن عنها فيما سبق إن مبدأها هو الفزع من العالَم.

ولكن ماهي الطريقة التي اتبعها الأستاذ (كينيبر) والأستاذ (لوازي) حتى انتهيا إلى أن هذه الأخلاق هي أخلاق (يسوع)؟

إن النقد السليم يوجب لتسويغ ما انتهيا إليه أن تكون أخلاق الزهد شاملة، في حال قوة ونقاء، إما في إنجيل (مرقس) أو في الـ (لوجيا) Logia الشهيرة، وهما في نظر عدد كبير من المفسّرين كانا مصدراً متح منهما (متى) و(لوقا)؟ ولو أن أقدم أجزاء الأناجيل المتقاربة كانت كلها لاتحتوي إلا على وصايا زهد لأمكن بالبداهة أن نخلص من ذلك إلى أن الحركة المسيحية تستمد أصلها من إنسان دعا إلى هذه الوصايا، وإليها وحدها.

ولكن مَن ذا الذي يجرؤ على الزعم بأن أخلاق زهد وتقشف تسطع في إنجيل (مرقس)؟ أولاً،إن الأخلاق بالمعنى الصحيح تشغل في هذا الإنجيل منزلة أدنى منها في سائر الأناجيل المتقاربة. ومن العبث أن نبحث عن تلك الوصايا الشهيرة التي تتألق في كل صفحة من صفحات إنجيل (لوقا) و(متى). إن أقدم الأناجيل هو ذاك الذي يعرب بقدر أقل من القوة والجمال عما كان يجوز اعتباره أخلاق (يسوع).

زد على ذلك أن التناقضات المبدئية الماثلة سلفاً في نص (مرقس) توجد كذلك في سائر الأناجيل. ولاريب في أن (يسوع) يقول: «من أراد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني»، ويقول أيضاً: «إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» ويعلن أن الناس عند البعث لايزوجون ولايزوَجون، وقد قال: تعساً للحوامل واللاتي يرضعن في تلك الأيام، وهو لايريد أن يكون بين أتباعه رؤساء ولاملوك: مَن أراد أن يكون عظيماً فليكن خادماً، ومَن أراد أن يصبح أوّلاً فليكن عبداً. وأخيراً تنبأ لتلاميذه بأنهم سيبغُضون ويُضطهدون.

وهذا كله يعني، بدقة تكثر أو تقل، أن من الواجب الإنصراف عن الثروة، والأسرة، والسلطة السياسية، والوجاهة الاجتماعية، والحياة ذاتها.

بيد أن (يسوع) ذاته، في إنجيل (مرقس)، لايطلب العفة ولا الخصاء الروحي، بل يعلن أن الله هو الذي يريد الزواج، وأن بطل إحدى الأمثولات يتحدث عن ابنه «الحبيب».

ولئن طرد الأغنياء من السماء فإنه لم يتردد في إظهار أحد الملّاك وهو يؤجر كرمه لعمل ويطالب بحصته من الثمار بوصفها حقاً له.

ولئن لم يرد ملوكاً ولا رؤساء، فإنه لايمتنع عن القول: أعط ما لقيصر لقيصر.

ولئن رفض أن يكون المرء سيداً، وطلب إلى تلاميذه جميعاً أن يكونوا خدماً وعبيداً فإنه بقي يمثل (ابن الإنسان) في إهاب معلم يوزع على خدمه أعمالهم.

ولئن أعلن لأتباعه أنهم سيضطهدون فإنه أوصاهم في الوقت ذاته بالفرار: الذين سيكونون في اليهودية يهربون إلى الجبال!

لم يبق من أخلاق الزهد الزواج، وإنجاب الأولاد، ومحبتهم، والإضطلاع بدور في المجتمع، واستخدام عمال، وقبض دخول، والاستمتاع بالخدمة، والاحتراس من الخطر.

وأخيراً، لئن تحدث (يسوع) في إنجيل (مرقس) عن إله العفو والوداعة، فإنه يتحدث أيضاً، في الأمثولة، عن إله حانق سيأتي ليهلك الكرّامين.

إذن؟ أنستطيع غض الطرف عن الأخلاق الثانية للإبقاء على الأخلاق الأولى؟ إن الطريقة ستكون جريئة. وإذا قرأنا نص (مرقس) دون انحياز وجدنا أنه لايجيز، بحال من الأحوال، أن نعزو إلى (يسوع) مذهباً دون الآخر.

تبقى الـ (لوجيا).

فإذا رجعنا إليها وجدنا بالبداهة جميع الصيغ الشهيرة التي يشير إليها الأستاذ (لوازي) والتي تأمر على نحو دقيق بالزهد التام والمطلق. ولكننا نجد ثمة كذلك، كما رأينا، تصريحات مضادة في كل النقاط. وهذه العناصر المتعارضة في جميع المسائل الرئيسية تتوازن. ولذا بأي حق يمكن إعلان أن الصيغ الأولى وحدها أولية، وأنها وحدها من (يسوع)[*]؟

* * *

ولعل هذا ما جعل الأستاذ (كينيبر) الذي كان يحتاج في سنة ١٩٠٦ إلى سبعة عشر سطراً لعرض أخلاق (يسوع)، وإذا به يلخصها، بعد مرور ثلاث عشرة سنة في أسطر ثلاثة: «الملكوت يقترب، والتحول العظيم الذي سيطرد من الدنيا الظلم والشر: اصبروا، إذا أردتم أن يكون لكم مكان بين المختارِين»[١٠].

(*) يلمح الأستاذ (لوازي) إلى وجود رباط بين أخلاق الزهد والفكرة (التي يعزوها إلى يسوع) (القائلة أن «رجعة المسيح» قريبة. انظر في هذه النقطة فيما بعد (الفقرة الرابعة من الفصل الثالث عشر).

لنفرض أن تلكم هي في الواقع الأخلاق الأقدم في الإنجيل. إن من العسير أن نذهب إلى القول إنها تؤلف مذهباً آسراً، وأن وحدتها المتينة تفترض وجود (يسوع).

ففي مثل هذه الصيغة المبهمة لايمكن القول بالزهد. ولكن ماذا؟ ان الأستاذ (كينيبر) لايعزو إلى (يسوع)، هذه المرة، أخلاقاً مشبعة بالعذوبة والحنان والإحسان بل يستعيض عن ذلك بقوله: «إن شيئاً لايكفل لنا أنه لم يلمّح، بادئ ذي بدء، إلى العنف (المسياوي)، إلى الحرب التي ينبغي على (مسيا)، بحسب أكثر الآراء ذيوعاً، أن يجلبها إلى العالم»(١١)

ـ ٢ ـ

فرضية «أخلاق يسوع» فرضية يصعب البرهان عليها من الناحية العلمية: ١ ـ إن الأسباب الداعية لقبولها أسباب عاطفية. ٢ ـ هذه الفرضية تطرح صعاباً جسيمة بدل تفسيرها كل شيء.

والواقع أننا إذا صرنا، باعتماد بعض النصوص، إلى تخيل (يسوع) من دم ولحم فلا شيء يكون أسهل من أن نتصور نبياً متحمساً يدعو لخلاص إسرائيل ويعلنه. وعوضاً أن يحضّ الناس على أن يحيوا حياة وداعة عذبة نجده لايكفّ عن التنبؤ بحروب رهيبة وببشاعة الدمار، ويخاطب تلاميذه قائلاً: بيعوا أرديتكم واشتروا سيوفاً. فهو رسول الله القوي الذي سيخضع الأمم على أقدام إسرائيل.

ولما أثار هذا الكلام قلق (بونس بيلاطس) عمل على صلبه. وكان تلاميذه في بادئ الأمر ينتظرون نوعاً من رجوعه رجوعاً معجزاً. ثم تغير كلامهم شيئاً بعد شيء عندما مرّت الأيام: كلا، إن نبيهم لم يكن رجل عنف، بل كان رسول عذوبة وسلام. كلا، إنه لم يكن يدعو الناس إلى حرب التحرر، بل كان يدعوهم إلى الإفلات من الشر بالتوبة.

قد تقولون: إنها قصة؟ وأنا أفهم ذلك على هذا المنوال. إنها قصة محضة تماماً، ولكنها ليست أكثر سدىً من تلك التي تقدم لنا (يسوعاً) حقيقياً جالباً للبشر مذهب زهد مطلق. وإن ألعاب الفكر هذه ألعاب يسيرة كلها، وفاتنة. ولكن إذا شئنا أن يكون للعلم نصيب وجب علينا أن نعزل الأجزاء الأقدم من الإنجيل وأن نكتشف فيها، شيئاً بعد شيء، وبدقة مطرّدة، أخلاقاً واحدة وقوية تفرض فكرة وجود مؤلف وحيد. ولكننا في الحالة الراهنة من معرفتنا لانكتشف شيئاً من هذا القبيل.

وإذن، لماذا يجامل رجل علم وفكر علمي متميز من طراز الأستاذ (لوازي) ويرسم صورة عن «أخلاق (يسوع) »؟ ولماذا لايرفض الأستاذ (كينيبر) رفضاً باتاً أن يرسم أية صورة عن هذه الأخلاق وهو نفسه يمثل الروح الانتقادية مجسَّدة في رجل؟

ذلك أن للقلب أسباباً لايعرفها العقل. فـ (يسوع) عزيز علينا كلنا. وليس من باب العبث أن جعلته القرون موضوع حب الناس. فإذا رفضنا وجوده بالمعنى التاريخي للكلمة، شعرنا بانطباع أننا نسيء إلى أنفسنا بأنفسنا. وإذ ذاك يحملنا حفاظنا عليه على أن نجعله إنساناً حقيقياً، وأية أخلاق ونعزوها له عندئذٍ سوى الأخلاق التي تفوز بإعجابنا الأعظم؟

إن مايروقنا هو هذه الأخلاق المضطرمة ضد الظلم، أي ضد الثروة والجشع في الربح، وضد العنف، وضد السلطة السياسية، وضد ضروب التفاوت الاجتماعي، الأخلاق التي تقود، على منوال جنوني، ولكنه سامٍ، إلى إعلان الحرب على العالم. إن مايثير حماستنا في عصور كانت القوةٌ فيها شرسة، وكان السيف منتصراً، هو الجملة التي تدين استعمال السيف إدانة حاسمة. وإن مايسحرنا في زمن كانت الثروة فيه تتحدى وتسيطر دونما احتشام هو نداء: ويل للأغنياء! (Vae Divitibus!). ولأننا نرى من حولنا الغني اللانافع في قصره المسرف البذخ وابن الطفل الفقير يموت في كوخه، نشعر بسحر الحلم بإنسانية أخوة تضع الأموال كلها وضعاً مشتركاً، ونهلّل لهذا المجتمع الذي ينسج على منوال الزنابق والطيور، وهو يفلت من أسر المشاغل

المتواضعة أو القذرة التي تواكب في ظهورها في نفوس العامة مطلب الوفرة والبذخ.

ينتج عن ذلك، بالاستناد إلى أن العلم والنقد البارد كليهما لايتيحان لنا أن نعزو إلى (يسوع) أخلاقاً دون الأخلاق الأخرى، فإننا ننسب إليه الأخلاق الأجمل ليحميها وينقذها.

* * *

أتراني أحتاج إلى تأكيد أن مثل هذه الاعتبارات ليست غريبة عني. وقد يكون من شأنها أنها تروقني، ربما أنا كذلك، إذا ما اعتقدت أن في وسع العقل أن يسيء إلى المثل الأعلى، وأن من الجائز أن تضلّ الحقيقة.

ولكن كيف نقبل أن يستطيع العلم، والعلم طلب الحقيقة، وإذن طلب أحد أشكال الأخلاق، أن يرجع الإنسانية إلى صغار النفس؟ من الجلي أن العلم هو الذي يقول لنا بدقة صافية إن من المحال، في حال معرفتنا الراهنة، أن نتحدث بصورة جدية عن «أخلاق (يسوع) ». وفي وسعنا أن نتصور أننا لانشاهد وجود هذه الأخلاق. إنها فرضية مجانية: وإن الوقائع لاتفرضها ولاتوحي بها.

ولكن لنمض إلى مدى أبعد: ولنفرض أننا قبلناها. فأي واقع تغيره؟ وأية مشكلة تحلّها؟

علينا أن نذكر أن الأمر هو أمر تفسير التناقضات الأخلاقية التي يذخر بها الإنجيل. يقال: لقد بشَّر (يسوع) بأخلاق زهد نقي مطلق، وأن تلاميذه دعوا شيئاً بعد شيء إلى أخلاق أخرى. إذن لم يبق ثمة لغز ـ وعلى العكس، إنني أجد لغزاً آخر، وهو يمتنع على الحل. كيف نفسّر أن الذين فتنهم مذهب (يسوع) سرعان ما أخذوا يجعلونه بصورة قاسية يقول عكس ماكان قد قال.

تقولون: لقد بشرّ بأخلاق سامية، أخلاق مجنونة إذا شئنا النظر إليها من الزاوية العملية، ولكنها «منطقية من حيث مثاليتها». ومن شأن هذه السمة المنطقية أن تجعل هذه الأخلاق تشكل «كُلاً» وأن تجعلها أعظم مقاومة ـ فيما يبدو ـ لمحاولات تشويهها. وإن إتسامها بالسمو ليجعلها تثير في القلب والخيال

أعمق التأثير: تصوروا الأثر الذي لايزال الإنجيل يطبعه في نفوسنا لو أن مذهب الزهد كان وحده هو الذي يُذكر فيه، وفي حال النقاء! وفي الواقع، هناك من يقول إن تأثير هذه الأخلاق المضطرمة، والسيدة، والمطلقة، هو الذي جعل التلاميذ متحدين إبان أسوأ مصائب المصير. وما أن مضى على موت (المعلم) خمسون عاماً حتى تنكروا لهذا كله!

أقول بدقة: تنكروا. فالأمر ليس أمر نسيان: إن الجمل المتألقة عن الزهد والتقشف لاتزال ماثلة، إن لم يكن في إنجيل (مرقس)، فعلى الأقل في الـ (لوجيا). ولابد من قول إن المسيحيين كانوا يقرأونها سلفاً وعلى وجوههم بسمة التسامح والإرتياب! ومن الواجب قول إنهم حين لم يكتفوا بتخفيف حدة المذهب قلبوه رأساً على عقب، وجعلوا (يسوع)، بصفاقة، يقول، عكس ماكان قد قال، عكس مايعلمون أنه قد قال!

كان (المعلم) يصيح: بيعوا كل ما تملكون، وكونوا فقراء. وإذا بهم يظهرونه وهو يتحدث عن المصارف والفوائد! كان يقول: لاتستلوا سيفا! وإذا بهم يجعلونه يقول: اشتروا سيوفاً! كان يقول: لاتتزوجوا، اتركوا زوجاتكم ووالديكم وأطفالكم. وإذا بهم يجعلونه يقول: الزواج أمر يريده الله، لاتكونوا إلا جسداً واحداً مع زوجتكم، أحبوا أبناءكم! كان يقول: لاتدينوا! وإذا بهم يجعلونه يقيم محاكم. كان يقول: لارئيس بينكم! وإذا بهم يظهرون أنه يؤيد سلطة (بطرس) المطلقة!

كيف نفسّر مثل هذا التنكر؟ أنقول إن رجالاً شعروا بجاذبية ضئيلة نحو مذهب الزهد وحاولوا مكافحته؟ لاشيء طبيعي أكثر من ذلك! ولكن ماهي المعجزة التي جعلت أعداء الزهد يعتنقون ديانة إنسان لم يدع، كما يقال، إلا إلى الزهد؟

ولايجدي فتيلاً أن ندّعي أن التقاليد، كل تقاليد، كانت تشوّه في تلك الأزمنة الغابرة ما تحتفظ به.

أولاً: من شأن التقاليد أن تضخم بصورة جد مألوفة السمة البارزة بدل تخفيفها. إنها تغلو في زهد (فيثاغورس)، ولكنها لاتجعل

(فيثاغورس) أستاذ الضحك والحياة المرحة. وهي تعزو إلى (أبولونيوس التياني)[٢٩م] Apoll onios de Tyane علماً لم يكن هو نفسه بلا ريب يدّعيه أبداً: ولكنها لاتجعل (أبولونيوس) مُنَظِّر الجهل. ولو أن (يسوع) كان، كما يزعمون، داعية الزهد المطلق لأمكننا أن نفهم مبالغة التقاليد في نسكه شيئاً بعد شيء: ونحن أقل فهماً لِمَ جعلته التقاليد إنساناً يتحدث عن الأسرة، والثروة، والمصارف، والدراهم، والسيوف، والمحاكم؟

ولكنني أكرر أن الأمر لايمكن أن يكون هنا أمر نسيان. فالجمل التي تدعو للزهد لم تفقد. وهي موجودة في الـ (لوجيا) كما لانزال نقرؤها إلى اليوم. وهي تتألق وضوحاً. ولها صوتها العالي. ويريد مريدون أن يلهو التلاميذ وهم يعرفون أنها من صنع (المعلم)، يلهون بمناقضتها دونما اكتراث. وهم يزعمون أن أمام أعينهم صيغ (يسوع)، وإذا بهم يضعون حيال هذه الصيغ على نحو منهجي صيغاً أخرى لفّقوها بأنفسهم وهي تقول تماماً العكس: وهم مسيحيون، مسيحيون بحرية! فمَن الذي يملك مفتاح هذا اللغز؟

ولو أن نصاً غير معروف ظهر على نحو غير متوقع وهو يؤكد أن (يسوع) قد وُجد بالمعنى الذائع والإنساني لكلمة وجود، لاضطرنا فحص الأناجيل إلى القول إن (يسوع) لم يقدم أية فكرة محدّدة تماماً من الناحية الأخلاقية: وإذ ذاك يجب لتفسير الاختلافات المباشرة بين تلاميذه القول إنه لم يقدم لهم سوى بضعة جمل غير ذات لون وهي تقبل تفسيرين متعارضين في جميع نقاطها. وبكلمة واحدة، يجب لدى اعترافنا بأن (يسوع) قد عاش أن نرفض أي تأثير أحدثه في تشكل الأخلاق المسيحية؟

ولكن الزعم، في الحال الراهنة للمسألة، أنه قد وُجد، وأنه قد علّم أخلاقاً، وأن هذه الأخلاق كانت أخلاق زهد، وهي أخلاق مضطرمة ومنطقية، إنما يعدل مباينة النصوص دون حلّ أية صعوبة: بل، على العكس، إن ذلك يعني طرح صعاب. وما فرضية (يسوع ـ إنسان) يعلّم أحد المذهبين الأخلاقيين الإنجيليين بفرضية مجانية وحسب: بل إنها فرضية نافلة.

الفصل الثالث عشر

التفسير السوسيولوجي

لنأخذ الفرضية التالية، فيتضح كل شيء.

كيف ينظر العلم إلى فكرة أخلاقية، إلى أمر، إلى صيغة مثل أعلى؟ إنها حادث اجتماعي، أي حادث مرتبط بوجود جماعة.

لنفرض أن جماعة جديدة ظهرت ضمن مجتمع. ولنفرض أن أشخاصاً منبثقين عن جماعات متباينة، بله متعارضة من بعض أوجه الاعتبار، شرع بعضهم يلتقي بعضاً: فماذا نجد في ملتقاهم؟ أخلاقاً مختلفة، إن لم نقل متعارضة.

وهذه هي الظاهرة، وهي جد بسيطة، وسوية، وقد حدثت في الكنائس الأولى: وإنما عملت الأناجيل التي ولدت في هذه الكنائس على تسجيلها.

ففي القرن الأول من التاريخ الميلادي، في آسية واليونان وإيطالية، وفي أمكنة أخرى أيضاً، بدأ رجال بالتكتل يجمع بينهم إيمان وأمل: إيمان بإله اسمه (يسوع) (وقد تصوروه من جهة أخرى على أنحاء جد متباينة) وأمل في خلاص (وقد تصوروه كذلك في أشكال ليست أقل تبايناً).

اجتمعوا. ولكن كل واحد منهم جلب وإياه بالضرورة الأفكار والعواطف والأعراف، وبكلمة واحدة جلب أخلاق الجماعة الاجتماعية التي

كان يعيش فيها قبلئذٍ. ومن شأن المعطيات الأخلاقية المجلوبة أنها تأكدت داخل الكنيسة، وصُبت في قصص، وسُبكت في صيغ.

غير أنها، وقد صدرت عن أوساط متباينة غاية التباين، بل ومتعارضة، متناقضة، بمثل تناقض الخواطر والوصايا والأمثال: ولما احتوت الأناجيل كل ذلك، فقد باتت ملأى بالتناقضات.

ـ ١ ـ

تنوع الأوساط الاجتماعية ممثلة في الكنيسة زمن كتابة الأناجيل: ١ ـ تاريخ التحرير. ٢ ـ اليهود، اليهود ـ الاغريق، الأمميون. ٣ ـ فوارق من النوع العقلي، والديني، والاقتصادي، داخل كل جماعة.

كُتب إنجيل (مرقس) بعد السنة (٧٠) بقليل. وفي الوقت نفسه انتشرت سلفاً مجموعة (لوجيا)، أي «أقوال» (يسوع) محرَّرة باللغة الإغريقية.

وقد ظهر إنجيلا (متى) و(لوقا) بين سنتي (٧٥) و(٩٠). وقد أفادا من إنجيل (مرقس) والـ (لوجيا).

وفي النصف الأول من القرن الثاني، خضعت أناجيل (مرقس) و(متى) و(لوقا)، بلا ريب، لتنقيحات يعسر، مع الأسف، تمييزها وتحديد تأريخها.

إن إنجيل (يوحنا)، في شكله الأول، يستوحي نظريات (مرقيون) وقد كتبت حوالي فترة سنة ١٣٥ ـ ١٤٠ .

وبعد إدانة (مرقيون)، أي بعد عام (١٤٤) خضع لتنقيحات مهمة غرضها إسباغ حلة أرثوذكسية عليه(*).

(*) التواريخ المذكورة مقبولة كلها بوجه عام فيما يتصل بالأناجيل المتقاربة. أما بالنسبة لإنجيل (يوحنا) فأنا أعتنق نظرية الأستاذ (دولافوس).

ينتج عن ذلك أن تأليف الأناجيل المتقاربة قد جرى بوجه الاجمال بين سنتي (٧٠) و(٩٠). وأما إنجيل (يوحنا) فقد كُتب ثم «صُحّح» قبل عام (١٤٤) وبعده.

فما هي الأوساط الاجتماعية الممثلة في تلك الحقبة داخل الكنائس المسيحية(*)؟.

* * *

إننا نعلم أن هناك يهوداً، ويهوداً تثقفوا باليونانية، وأمميين. ومن الجلي أن كل فئة من هذه الفئات لاتضم عناصر متجانسة. بل إن كل فئة تضم أوساطاً تتمايز تمايزاً دقيقاً ببعض سمات فكرية ودينية وسياسية واقتصادية.

لننظر من الزاوية الفكرية.

هناك لدى يهود فلسطين جماعتان، ويذهب الأستاذ (كينبر) إلى تمييز «شعبين» لدى اليهود يختلفان من الناحية الفكرية. فمن جهة أولى، أولئك الذين بسائق الزواج المختلط يفتحون الباب لتلقي التأثيرات الصادرة عن الشعوب المجاورة؛ ومن جهة أخرى المتزمتون الذين يريدون (وإن لم يستطيعوا الافلات من أسر الفكر الهليني) أن تنطوي اسرائيل على ذاتها وهم يقفون امكانات فكرهم على دراسة (الشريعة). وأخيراً، توجد خارج الجماعات اليهودية فرق منشقة أشهرها فرقة (الاسينيين)[٣٠م].

ومن الطبيعي أن يكون تأثير الفكر الإغريقي أقوى لدى يهود **الشتات**. فقد كان من المحتوم أن يعتنقوا، جزئياً، طرائق تفكير الإغريق لشدة ما عاشوا بينهم. وقد حاول الذين تفلسفوا منهم أن يوفقوا طوعاً أفكارهم الوطنية مع الحكمة القديمة، وكان من الطبيعي أن توجد ثمة ألف طريقة لمحاولة هذا التوفيق. أضف إلى ذلك أنه كان لـ (فيلون)[٣١م] Philon الشهير عشرين طريقة أخرى غامضة.

(*) ليتفضل القارئ باعتبار أن مايلي ليس سوى بدء برهان اعتزم الرجوع إليه بالتفصيل في مكان آخر.

ففي العالَم الاغريقي وُجدت المدارس الفلسفية اللانهائية التنوع. وقد طغت الأبيقورية[٣٢م] والرواقية[٣٣م] والفيثاغورية والأفلاطونية[٣٤م].

وأخيراً، يوجد لدى الإغريق، كما يوجد لدى اليهود، خلف نخبة المفكرين الذين يثيرون المشكلات الفلسفية، كتلة أكثر عدداً بما لايحصى من الأميين أو أشباه الأميين. وقد كان هؤلاء الأشخاص غير المتعلمين كثيرين جداً في صفوف الطوائف الأولى.

لننظر من الناحية الدينية

إن من اليهود من يحرصون على الحفاظ على الديانة القومية القديمة بحذافيرها وهم يلتزمون بالطقوس التزامهم بالعقائد ويرهفون النظر في التعاليم الموسوية. ولكن في فلسطين ذاتها جماعات ذات نفوذ تحتج على الموقف الشرعي المسرف الضيق. أما يهود الشتات فإن بينهم «الورعين» الشهيرين الذين لايأخذون إلا بجزء من تعاليم (الشريعة). بل أن هناك أخيراً ضروباً من التفاعل التلفيقي تمثله جماعات من طراز الـ (هيبستيان) Hypsistiens والـ (سابازيان) Sabaziens و(الناصريين)[٣٥م] Nazoreens.

وكذلك نجد تنوعاً أعظم لدى الإغريق: فالعبادات الرسمية القديمة كانت ماتزال تحدّد بعض الحركات. ولكن الريبيين كانوا كثرة. وكثيرون أيضاً أتباع الديانة الفلسفية في الأوساط المثقفة. وأخيراً، كانت الحركة الدينية الكبرى الوحيدة التي تأسر النفوس حقاً وتجمع شمل الناس بقوة هي تلك التي كانت تذيع كل هذه الأسرار وكل هذه الديانات القائلة بالخلاص والتي يكتشف البحث العلمي الحالي كل يوم مزيداً من تأثيرها الضخم. ونظراً لسيادة هذه الأسرار في العالم القديم بدا من الثابت أن الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية إنما تركوا، على نحو أقل جداً من أجل (المسيح)، تركوا (تزوس)[٣٦م] Zeus و(أفروديت)[٣٧م] Aphrodite أو (بالاس)[٣٨م] Pallas من تركهم (ديونيزوس)[٣٩م] Dionysos و(آتيس)[٤٠م] Attis و(ايزيس)[٤١م] Isis أو (ميثرا)[٤٢م] Mithra.

أضف إلى ذلك ماكان يترسب تحت قاع الديانات بالمعنى الصحيح من آلاف العقائد والممارسات الخرافية ذات الطابع السحري، وكلها تنشط في الجماهير الشعبية، إن لم نقل فوقها.

لننظر من الزاوية السياسية

بين يهود فلسطين أناس قوميون شرسون يناصبون السيطرة الرومانية ألد العداء وهم متأهبون على الدوام لحمل السلاح بغية طرد العدو خارج (أورشليم). ولكنْ ثمة أيضاً فريق أكثر تساهلاً وهو يحاول أن يجني من العدو ثمار تعايش مقبول. وكذلك حال يهود الشتات. ويتضح لمن يتتبع تاريخ اليهود في الإمبراطورية الرومانية أن دعاة الاتحاد مع رومه هم الأرجح كفة بوجه عام. والجهد كل الجهد يرمي إلى نوال وضع محتمل أو مفيد. بيد أن من الحق أن نذكر من ناحية أخرى اندلاع ثورات محلية عنيفة بين الفينة والفينة، وقد كان العالم اليهودي كله تقريباً في حال ثورة عارمة في عهد (أدريان)(١٤٤م) Hadrien.

وعلى العكس من ذلك كانت حال الاغريق الذين قبلوا بوجه العموم السيطرة الرومانية. ولاريب في أن تطلعاً إلى الاستقلال ظل ماثلاً في بعض الأوساط حتى أن (نيرون)(٥٤م) Neron اضطر إلى منح الحرية إلى (اشاي)(٦٤م) Achaie ولكن الاغريق لم يعمدوا للثورة حين ألغيت هذه الحرية بعد فترة وجيزة. ولم تخلف احتجاجات (ابولينوس اليتاني) سوى أصداء ضئيلة. والحق أن اليونان تكيفوا مع النظام الامبريالي بوجه الاجمال. وقد كان إخلاصهم قليل الحماسة فيما يبدو لأنهم لم ينصرفوا إلى السياسة إلا لماماً.

لننظر أخيراً من الناحية الاقتصادية.

إننا نجد بالطبع أغنياء وفقراء بين اليهود، واليهود المتأثرين بالإغريقية، كما نجد لدى اليونان. ويرى (هرتزبرغ) Hertzberg أننا نشاهد هوة تزداد عمقاً بإطراد بين الطبقة المالكة والطبقة البروليتارية في (اشاي). وقد تكدست الملكية العقارية والرأسمال بين أيدي عدد صغير من الأسر التي كانت تزهو ببذخ مسرف. بينما نزح الفقراء الذين انتهبهم أصحاب مصارف (بترا) Patrae

و(كورنثوس) و(اثينه)، وقد امتص هؤلاء دماءهم حقاً، نزحوا إلى المدن وعاشوا فيها عيش الرعاع[١٢]. ولنذكر أخيراً أن دون هذا البروليتاري البائس يوجد من هو أشد منه بؤساً، يوجد عالَم العبيد، وهو عالَم وسيع.

يهود متزمتون، يهود أكثر تساهلاً، يهود متأثرون بالإغريقية، يهود تلفيقيون، وثنيون متخلفون، مريدون، متحمسون، ريبيون، فلاسفة أوأنصاف فلاسفة من جميع المدارس، موظفون مستقيمون، وربما متمردون، أغنياء وفقراء، سادة وعبيد: ذاكم هو هذا العدد من الأوساط المختلفة، وهذا العدد من التطلعات، ومن القواعد السلوكية والعادات، وبكلمة واحدة، هذا العدد من المذاهب الأخلاقية المختلفة.

وهذه المذاهب الأخلاقية هي التي تصب في الكنيسة الناشئة في عصر نضج فيه الأدب الإنجيلي.

لنعرض هذه النظريات المتناقضة كلها واحدة تلو أخرى، ولنعرض كل هذه القواعد المتنافية التي ألمعنا إليها في هذا الأدب: وسنرى أنها كلها تصدر عن أحد هذه الأوساط الاجتماعية أو بعضها، ومنها متحت المسيحية أول أتباعها، من إحدى الجماعات أو من بعضها، وقد جاءت لتتحد وتتصادم بآن واحد في الكنائس الأولى.

ـ ٢ ـ

النظريات المتناقضة والأوساط الاجتماعية: ١ ـ النظريات المتصلة بعلاقات الأخلاق والطقوس. ٢ ـ بعلاقات الأخلاق والإيمان. ٣ ـ بمشكلة الحرية. ٤ ـ بمشكلة الجزاء.

هناك ثلاثة مذاهب متعارضة في الإنجيل، وهي تتصل بعلاقات الأخلاق بالطقوس: الأول يحتفظ (بالشريعة) الموسوية. والثاني يعلن سدى الطقوس. والثالث يقيم طقوساً جديدة.

ومن السهل تحديد مواقع هذه المذاهب الثلاثة.

المذهب الأول يصدر عن اليهود المتزمتين والذين لم يتأثروا بالإغريقية إلا قليلاً. وهذا المذهب ينطلق في الأساس من كنيسة (أورشليم) الشهيرة التي تناضل ضد (بولس) في مسألة التمسك باليهودية. «فالورعون» أو أكثرهم تزمتاً على الأقل، يريدون الحفاظ على (الشريعة) بأسرها. وإذن فإنهم يجعلون (يسوع) يقول: لم آت لإلغاء (الشريعة) بل لإكمالها. ويقول أيضاً: إن حرفاً واحداً لن يسقط من (الناموس).

المذهب الثاني ينطلق من جزء أساسي من الفكر الاغريقي. فمن البديهي أن أتباع (أبيقور) و(زينون) يرون أن من الخطل طلب الخير الأسمى في ممارسة طقوس مادية. وقد أصاب الأستاذ (برهيه)[٤٧م] Brehier في ملاحظة أن خارج العالم الفلسفي بالمعنى الدقيق، وفي الأدب ولدى الشعراء توجد حركة نقد ديني تؤدي إلى اتخاذ الاستعداد الباطني للإنسان المتدين العنصر الأساس في العبادة». فهناك «إرجاع العبادة إلى التخلق»[١٣]. وهذه الفكرة ذاتها نجدها لدى بعض المدارس الحاخامية. يقول الحاخام (هيلل)[٤٨م] Hillel: «مالا تحب لنفسك لاتصنعه لغيرك، وهذا هو مطلب (الشريعة) بأسرها، ومابقي ليس سوى شرح». ويقول الأستاذ (كينيبر) بعد أن يستشهد بهذه الجملة: إن «الشخص الذي جاء بها كان متحرراً سلفاً من الشكلية». ولذا فإن بعض تلاميذ (هيلل) سيجعلون (يسوع) يقول: «افعلوا للناس بأنفسكم كل ماتحبون أن يفعل الناس لكم، لأن ذلك هو (الشريعة) والأنبياء». ويمضي كاتب إنجيل (مرقس) وهو متأثر بالاغريقية على نحو أكبر فيرفض (الشريعة) كلها: أتت ساعة عبادة (الآب) بالروح والحق.

وأخيراً فإن المذهب الثالث الذي يطالب بطقوس جديدة يرتكز إلى نقاط استناد قوية أيضاً في بعض الأوساط الاجتماعية. فالعماد موجود في فرقة (يوحنا)، وسط العالم اليهودي. ولكنه يضطلع بدور مهم في مجتمعات المريدين بوصفه طقساً للتطهر لازباً للخلاص. كان المريدون يعمدون ويغسلون

من أدرانهم بالغطس في مياه البحر في عبادة (الايلوزيين)[٤٩م] Elusiniens وكان عماد أتقياء (سيبل)[٥٠م] Cybele و(ايتس) بالدم بتضحية ثور أو كبش. وكان جندي (ميثرا) يطهّر من أدرانه بغطسه في الماء، وقد أضيفت إلى هذا الطقس المعمداني إشارة على الجبين تومئ إلى نذر المؤمن لإلهه. ومَن تطلع إلى أن يصبح مريداً لـ (ايزيس) غُطس في الماء وغسله الكاهن الأعظم وهو يدعو الآلهة. وجميع هذه الأنواع من العماد طقوس خلاص. وهي تجدد المريد، وتهبه حياة جديدة. وقد لاحظ الباحثون منذ زمن بعيد أن للعماد هذا المعنى ذاته، والقيمة ذاتها في مذهب (بولس). وسيجعل اذن المسيحيون القادمون من عالَم الأسرار[*] (يسوع) يقول إن العماد يهب الحياة: فإذا لم يولد المرء من «الماء» فلن يدخل ملكوت الله.

وما يصح بصدد العماد ليس بأقل صحة في مجال الأوخارستيا. إنها طقس «الأسرار» بالمعنى المتميز. فإذا لم نتكلم عن تناول اللحم النيِّئ الديونيزي فإننا نعرف أن مريدي (اتيس) يحتفلون بعشاء صوفي قوامه طعام صلب وشراب. وأن مريدي (أوزيريس)[٥١م] «يأكلون لحم»[١٤] الله. وأخيراً فإن الأوخارستيا (الميثرية) هي عشاء يأكل فيه المريد جوهر (ميثرا)[١٥] ذاته في

(*) لوازي: الأسرار ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ إن مسألة علاقات الأسرار الوثنية بالمسيحية من حيث هي ديانة خلاص قد أثارت مناقشات حادة لما تدن من نهايتها. وكلما توغلت الدراسات الحديثة المتعمقة في إظهار المشابهات الغريبة بين عقائد المريدين وطقوسهم وبين عقائد وطقوس المسيحيين الذين يرون أن (يسوع) مخلّص، بذل العلماء الكاثوليك قصارى جهدهم لحجب هذه المشابهات ومحو السمات المشتركة. ومن أبرز الجهود التي أنفقت في هذا الاتجاه محاولة الأستاذ (بولانجه) Boulanger في كتابه «الأورفية»(باريز ـ ريدر ١٩٢٥). وأما كتاب الأستاذ (لوازي) بعنوان: «الأسرار الوثنية والسرّ المسيحي» فإنه دراسة أكثر حياداً بكثير. ومن الطبيعي أن ليس في وسعي الإسهام هنا في هذا الخلاف. ولذا فإنني أقتصر على ذكر الوقائع التي يعرفها الجميع والتي هي، إن صح القول، خارج المناقشة. وليس في مكنتي إلا أن أرشد القارئ المستزيد من المعرفة إلى الكتب «المدرسية» التي وضعها (سالمون ريناخ) Salomon Reinach و(كومون) Cumont و(كرايو) Graillot و(موريه) Moret وغيرهم مكتفياً بذكر البحوث الفرنسية.

إهاب خبز وشراب مقدسين. وقد ترتب على الديانة الجديدة أن تقدم معادلاً لجميع هذه الاستحالات السرّية. ولما كان (يسوع) مطواعاً في نظرهم فقد أعلن: من سيأكل جسدي ويشرب دمي له حياة أبدية. إن الخبز الذي أقدمه لكم هو جسدي.

* * *

ومن الجائز تحديد موقع النظريات المتصلة بعلاقات الأخلاق بالإيمان بيسر مماثل.

هل يتيح الإيمان الإسرائيلي العتيق أن يصنع الإنسان خلاصه؟ هل الخلاص يستلزم إيماناً مسيحياً بالمعنى الصحيح؟ لقد أجاب الإنجيل هذين السؤالين المتناقضين. الجواب الأول هو الذي لايطلب سوى الإيمان بـ (الآب)، ويصدر بالطبع عن الأوساط اليهودية المتمسكة بفكرة الوحدة الإلهية: ويرى أولئك الذين يعيشون في هذه الأوساط أن (يسوع) لم يأت بديانة، بل بإيمان جديد. ولكن المريدين الوثنيين كافة يرون، على العكس، أن (يسوع) اله الخلاص، شأنه شأن (اتيس) أو (ايزيس) أو (ميثرا): ولذا فإن من لايؤمن لايخلص. بل إن المريد القديم الذي نشأ على الوثنية يميل إلى إبراز (يسوع) ليشغل منزلة الصدارة في عقيدته، ويدعو إلى حبه حباً مباشراً على نحو أعظم، حباً صميمياً على نحو أعظم. ولذا نجد الجماعة اليهيودية تجعل (يسوع) يقول: أطع ما يأمر به (الآب)، فتحيا. والجماعة الأخرى تجعله يقول: إن اليهود لايعرفون (الآب). ومن لايؤمن بـ (الابن) لايستطيع أن يؤمن بـ (الآب).

وليس هذا كل مافي الأمر. ففي الأوساط الاغريقية الخالصة يوجد لاساميون. ومن المألوف في الغالب اندلاع أحقاد قوية ضد التكتلات اليهودية القائمة وسط العالم الوثني: ولايقتصر الواقع على الإكثار من الهزء الرخيص بطقس السبت والختان، بل يُعامل اليهود معاملة عبيد أشقياء فارين من مصر، معاملة أعداء النوع البشري، وأن إلههم هو إله برأس حمار، وأن رئيسهم (موسى) ساحر حقير[١٦]. وما أن تمايزت الطائفة المسيحية بوضوح عن الطائفة

اليهودية حتى استيقظت هذه اللاسامية القديمة بالضرورة لدى بعض الجماعات المسيحية. وقد ازدادت هذه اللاسامية بازدياد أهمية الأمميين. ولذا كان من المحتوم أن يأتي يوم يطلب فيه الاغريق إلى (يسوع) إنكار صلاته بالإيمان اليهودي السابق. ونحن نشاهد (يسوع) ـ الأمميين، يطيعهم، يدين إذن جميع عظماء «العهد القديم»، دون أن يستثني (موسى) نفسه: «جميع الذين أتوا قبلي هم سرّاق ولصوص».

أما فيما يتصل برجحان الأخلاق على الإيمان، فإن هذا الرجحان يستند إلى أولئك الذين عرفوا الفلسفة المسماة هلنستية. وهذه الفلسفة، كما يقول الأستاذ (روبان)[٥٢م] Robin تتسم «بروح ذرائعية خالصة». أجل، إنها لاتزال تنطوي على منطق، وعلى علم طبيعة، أو على لاهوت ولكن «شيئاً من هذا كله لاشأن له إلا بالإضافة إلى تنظيم السلوك». فكأن هناك مايشبه أن يكون «استقطاباً أخلاقياً للتأمل الفلسفي»[١٧]. فمن الأوساط الاغريقية أو المتأثرة بالاغريقية تخرج إذن، بصورة سوية، (وبتصريحات من طراز تصريحات هيلل) الصيغ الإنجيلية التي ترقى بالأخلاق إلى المنزلة الأولى: عامِل الآخرين كما تحب أن يعاملوك، هذه هي (الشريعة) والأنبياء. ولكن جمهرة اليهود، على العكس، تتخذ إيمانها منذ قرون العنصر الأساس لأصالتها. ويرى المريدون الوثنيون أن عقائدهم هي الشرط الأول للخلاص. وأخيراً، فإن امتلاك الحقيقة هو الخير الأعظم في نظر المدارس المنبثقة عن الحركات الفيثاغورية أو الأفلاطونية. ومن هنا جاءت الصيغ المتعارضة: من يؤمن له حياة أبدية؛ ومن لايؤمن مُدان سلفاً.

ثم إن الأفكار المتصلة بالحرية وبالقدر المسبق ذات إتصال، هي كذلك، بمختلف الجماعات الاجتماعية.

يحسب اليهود، منذ الأصل، أنهم شعب الله المختار. وإذن فإن من البسيط جداً أنهم يحتفظون وسط الكنائس الأولى بهذه الفكرة الملأى بالعزاء والإنتفاج. فالخلاص، أي خلاص، وقف عليهم: إذن يقول (يسوع) إنه جاء من أجل خرافة في إسرائيل. وإن اليهود أطفال أما الأمميون فإنهم «كلاب».

وبالمقابل، إن فكرة مثل هذه لايمكن قبولها في الطوائف التي يكثر فيها الأمميون. وإن مجرد وجود إغريق آتين من الوثنية يبرهن وجودهم في الكنيسة برهاناً كافياً على أن (يسوع) يخاطب الجميع وأن الجميع أحرار في الاستجابة لندائه. ومن ناحية أخرى، إن الذين صقلتهم الرواقية ليميلون للجهر عالياً بقدرة الإنسان على صنع خلاصه بإرادته الصراع وبحرية اختياره. وإذن فإن (يسوع) يعلن: «إنني سأجتذب الناس كافة» وأيضاً: «اقرعوا يفتح لكم».

ولكن من الحق أن الاغريق ليسوا كلهم أنصار الحرية. وعلى الرغم من احتياطات (أفلاطون) المتعلقة بحرية الاختيار فإنه يقرر أن أحداً لايكون شريراً عن عمد، وأن الشرير سيعاقب. ومن جهة أخرى، أخذ اللاساميون يقولون كلما زاد افتراق اسرائيل عن (المسيح) دقة ووضوحاً غدا الشعب المختار الشهير هالكاً ملعوناً في الواقع: إن أحداً من المدعوين لن يذوق العشاء الرباني، وإن القدر المسبق يعود للظهور، ولكنه يعمل في الاتجاه المعاكس.

وأخيراً، هنا أيضاً، توجد (أسرار). ففي نظر (الأورفية)[٥٣م] القديمة يحمل كل إنسان وزر الخطيئة الأصلية ومآله مبدئياً إلى الشر. ولذا فإن في وسع الديانة، بوجه الدقة، أن تمنحه وسيلة غسل هذا الرجس. ولكن (السرّ) لايعرض في وضح النهار أسباب العلاج التي يقترحها وإنما يصار إلى إدراك هذه الأسباب فيما بعد وهي مغلّفة بالظلال. وفي قصة (أبوله)[٥٤م] Apule الشهيرة أن (ايزيس) نفسها هي التي تنادي المختار الذي اصطفته وهي تنذر، في الحلم، (لوسيوس) Lucius كما تنذر على النحو ذاته الكاهن الذي سيعلّمه ويطلعه. وهي التي تحدّد يوم الإطلاع على الأسرار ويتمّ ذلك في «هيأة موت إرادي وخلاص يتحقق بالنعمة». فهي التي تمسك بيدها بمفاتيح الجحيم، وهي التي تدعو أتباعها «بعنايتها» إلى حياة جديدة[١٨].

ويلاحظ الأستاذ (لوازي) أن في وسع (لوسيوس) أن يقول كما يقول القديس (بولس): «عندما راق للتي اختارتني سلفاً لخدمتها أن تتجلى لي فقد كشفت لي اسمها وأنا أقاوم نداءها»[١٩].

وحيثما كانت تسود مثل هذه القيم وجب بالضرورة توافر (يسوع) يصطفي بنفسه مختاريه ويناديهم. ولذا فإن (يسوع) يعلن: لستم أنتم الذين اخترتموني، بل أنا الذي اخترتكم.

وعندما يخاطب (يسوع) الجموع بأمثولات لكي لاتفهم، وهو يخص بالشرح بعض تلاميذه الذين يحبهم نجد المحدثين لايقدرون على فهم مثل هذا الموقف. ولكن اللغة التي يتكلمها (المخلّص) هي مما يوحي إليه بها بلا ريب المريدون الذين أصبحوا مسيحيين. ذلك أن عملية الإطلاع في الأسرار تجري بالتدريج. ومن النادر أن نلفى، حتى بين المؤمنين الذين باحت لهم (ايزيس) بأسرارها الدينية الكبرى، أن نلفى صمت الديانة العظيم[٢٠]. وبعد أن ألمح (لوسيوس) بكلام معمّى إلى هذه الحقائق السامية الخفية خاطب القارئ بقوله: «إن ما حكيته لك، فإنك، على الرغم من سماعك، ستظل له جاهلاً». وما أشبه الذين سمعوا (يسوع) بقرّاء (ابوله): إن لهم أذاناً ولكنهم لايفهمون شيئاً[٢١].

* * *

لننتقل أخيراً إلى مشكلة الجزاء: إن تحديد الموقع الاجتماعي للنظريات المطروحة يتميز بدقة أعظم.

ترى نظرية (يوحنا) وعد الإنسان البرّ بمكافأة وحيدة هي امتلاك الحقيقة. فالبعث، وهو روحي كله، إنما هو انتقال من الخطأ إلى الحقيقة. و«الحياة الأبدية» هي أن يعرفوك أنت، الرب الحقيقي الوحيد، ومَن أرسلك، وهو (يسوع ـ المسيح) ». ومن الجلي أن مثل هذه النظرية تصدر مباشرة عن أسمى ما تنطوي عليه الأفلاطونية: جاء في المأدبة: إذا وجب أن يخلد امرؤ أفلا تراه ذاك الذي نعم بتأمل الجمال الإلهي في نقائه؟[٢٢].

ولكن هذا المذهب الرهيف لم يؤيده في الكنيسة تأييداً حقيقياً إلا نفر جد قليل من الفلاسفة الخلّص. وعلى العكس، نجد فكرة خلود الروح، والدينونة، والجنة والنار، من الأفكار التي تمتد جذورها المتشعبة في الروح

الإغريقية. وهي مألوفة كذلك في بعض المدارس الفلسفية ولدى جميع المريدين، بما في ذلك أقلّهم إطلاعاً، أولئك الذين يقفون في أدنى الدرجات.

إننا جميعاً نعرف الصفحة الشهيرة من «فيدون»: إن الأموات، بقيادة مارد، يصلون إلى مكان الدينونة. والذين ليسوا مذنبين تماماً وليسوا بأبرياء تماماً ينقلون إلى بحيرة (اشيروزياس) ويألمون بعض الوقت من عقوبات تتناسب وخطيئاتهم. والذين جعلتهم آثامهم يستعصون على البرء يلقون إلى الأبد في الجحيم Tartare. أما الذين عاشوا عيشة القداسة فإنهم يستقبلون في مساكن رائعة. ولايغفل (أفلاطون) الإشارة إلى أن على الإنسان العاقل ألا يقبل هذا الوصف على علاته[٢٣]. ولكن من البيّن أن المريدين لايأبهون باتباع هذه الوصية الحذرة. وعندهم أن الدينونة والسماء والمطهر والجحيم كل ذلك ليس عَرَضاً يجمل بالمرء نشدانه والفرح به. فالـ (أورفية) تعلّم بدقة كل ما لا نجد عنه في (فيدون) سوى لمحة أسطورية. وهي تصف للمريدين مقام القديس، أي القسم الأعلى من السماء، أو في مرج (برسيفون)[٥٥م] المقدس. وهي تصف بدقة أيضاً في «النزول إلى الجحيم» العذاب الذي يلقاه الأشرار[٢٤] ومثل هذه المعاملة تفترض بالبداهة وجود عدد كبير من الناس الذين يحتمل أنهم يؤمنون بسائق الحيطة من الدينونة الممكنة ومن عذاب الجحيم. وكل إنسان ينطوي على أفكار مماثلة، سواء أكان إغريقياً أم يهودياً، لابد أن يعده (مسيا) بدينونة وأن يبشّر الملعونين بالعقاب مثلما يبشّر المختارين بالثواب: وإذن فإن (يسوع) يعلن أن (ابن الإنسان) سيفرّق النعاج عن التيوس، وأن الأبرار سيدخلون (الملكوت)، وأن الآخرين سيُقذفون في الظلمة الخارجية ويلقون عذاباً شديداً.

ومن الجلي أن (أفلاطون) والمثقفين المستنيرين لايؤمنون ببعث الأجساد: إنما الأرواح وحدها هي التي ستثاب أو تعاقب. ولكن الأستاذ (لوازي) يلاحظ أن ذلك لايمنع مريدين كثيرين من تصور أن المختارين يسهمون في مائدة[٢٥]. وذلك لايمنع حاجة الموت إلى نقع غلته[٢٦]، ولايمنع أن يكون عذاب الجحيم مهيأً على نحو إيلام الجسد[٢٧]. وقد كان من المحتوم أن تأتي فكرة بقاء الجسد

وتضاف في نظر البسطاء إلى فكرة خلود الروح، وأن «أسرار (ميثرا) » تعلّم أن الجسد سيبعث[٢٨]. وحيثما تسود هذه الفكرة يراد من (يسوع) تأييدها. و(يسوع) في الواقع يتحدث عن المختارين وهم يشاركون في وليمة، ويشربون الخمر، في حين أن المدانين يألمون في جسدهم ويطلبون عبثاً نقطة من الماء.

مفهوم إنجيلي أخير: المكافأة ستكون سيادة اسرائيل على هذه الأرض، مملكة عدل وسعادة. أما أن تكون لهذه الفكرة نقطة استناد لدى الجماعات اليهودية الخالصة فذاك مما لايحتاج إلى دليل. ولكن لنلاحظ جيداً أن هذه الفكرة ذاتها، إذا سلخنا عنها ماهو يهودي بالمعنى الدقيق، قد تسحر عدداً من الوثنيين. فجميع الذين يعانون من صنوف الجور الاجتماعي، وقد كانت جد قاسية في القرن الأول، ينجذبون بيسر عظيم لتخيل ثأر العدالة في هذه الحياة الدنيا ذاتها، وتخيل قرن من السلام العادل.

وقد أعلن (فرجيل)[٥٦م] Virgile قبل أربعين سنة من التاريخ الميلادي مجيء زمن تنبأت به العرّاقة (سيبيل)[٥٧م] Sibyle: عهد جديد هو في سبيله للظهور، طفل يهبط من السماء، ابن الاله الأعلى. وبه ستمّحي آثار الخطيئة الأصلية، وستسود به العدالة. ومرة أخيرة ستحدث حروب؛ ثم ستليها الوفرة والسلام. وسيحتل العرق الذهبي الأرض المتجددة وسيحكم ملك الآلهة العالَم المطمئن.

وبالفضيلة يحكم المسالم الأرض[٢٩].

إذن ليس بين جميع النظريات الأخلاقية الماثلة في الانجيل أية نظرية من النظريات التي ذكرناها إلا وهي مرتبطة بجماعة، بوسط اجتماعي. ولئن تناقض بعضها وبعض فمردّ ذلك أن هذه الجماعات التي جاءت لتتحد بجامع الإيمان بـ (يسوع) جلبت معها أخلاقاً ناشئة في تلك الأرضين وفي مناخات اجتماعية متفاوتة.

ـ ٣ ـ

مذهبا الأخلاق العملية والأوساط الاجتماعية: ١ ـ إن للأخلاق التي تنادي بالفزع من العالَم نقاط استناد في بعض المدارس الفلسفية وبعض جماعات المريدين والطبقة الفقيرة ٢ ـ الأخلاق التي تدعو لإحترام العالَم تستند إلى جماعات فلسفية أخرى ومريدين وإلى الطبقة الغنية ٣ ـ تطبيق هذه الفرضية على بعض القواعد الخاصة.

إذا انتقلنا من مجال التصورات النظرية إلى حقل الأخلاق العملية وجدنا التفسير ذاته وهو يزداد قوة ومتانة.

هناك مبدآن يتصارعان: إحترام العالم، والفزع من العالَم. ومن البيِّن أن هذين المبدأين يرتبطان كلاهما بأوساط اجتماعية.

ففي أوساط الأفلاطونية ـ الحديثة، ينتهي الآخذون بـ «فيدون» بالضرورة إلى الذعر حتى من الحياة. وفي الواقع، ما الجسد ذاته إن لم يكن سجن الروح؟ والفيلسوف يزدري متع الشراب ومتع الحب، وبوجه عام كل اللذات المتصلة بالجسد. وهو لايكترث بالثياب ولا بالأحذية. وكل جهده ينبغي ألا ينصّب على الزهو بأمور الشهوة وما يتصل بها: وإن كل ما ينشده هو أن يموت، لأن الموت وحده هو الذي يفتح باب الحياة الحقيقية.

وعلى الرغم من انطلاق الرواقيين من أفكار مغايرة إلى حد كبير، فإنهم يدعون، هم أيضاً إلى احتقار الجسد، ومن ثم، إلى الاستخفاف بالحياة. يقول (سينيكا)[٥٨م] Senque: «ليس جسدي سوى سلسلة تقيد حريتي ويقول (ابيكتيت)[٥٩م]: «إذا عُنيت بجسدي اتخذني عبداً»: وكذلك: «إنْ جسدي ليس لدي شيئاً»[٣٠].

وهذا الرأي ذاته نجده لدى المريدين. يقول الأستاذ (بولانجه): إننا نجد في

أصل (الأورفية) «رأياً متشائماً عن الحياة»، لأن على الروح، وهي من أصل سماوي، «أن تفلت من عبودية الجسد»[٣١]. فعلى المريد، شأنه شأن قارئ (فيدون) أن «يزدري» إذن جسده، أن «يفرّ» من جسده. ومن دون هذا الإزدراء لايوجد خلاص. وهذا ما جعل (يسوع) يقول: مَن أراد حياته فقدها. ومَن لايبغض حياته لايقدر أن يكون لي تلميذاً.

الفلاسفة والمريديون يبغضون هذا العالَم بغضاً نهائياً مادامو يبغضون الحياة ذاتها. ولكن خلف هذا الفزع الفلسفي، الديني، يوجد فزع آخر، هو الفزع الناشئ عن رؤية المظالم التي يحفل بها العالَم: جاء في «سفر الجامعة»: «فكرهت الحياة لأنه رديء عندي العمل الذي عُمل تحت الشمس... ورأيت كل المظالم التي تجري تحت الشمس فهو ذا دموع المظلومين»[٣٢]. ولاريب في أن فقراء الشعب الذين يألمون ويؤمنون بأن ليس لآلامهم دواء في هذا العالم بما هو عليه إنما يفزعون بالضرورة فزعاً حاداً وموصولاً. إن العامل الوضيع، العبد، وكل أولئك الذين تزخر بهم المدن الاغريقية، يرون بأم العين الموسرين وهم يعرضون بذخهم فلا يقدرون إلا على تمني الكارثة، أية كارثة، التي ستضع حداً للنظام الجائر. وذلك، بالمقابل، سيمنح المنزلة الأولى لجميع الذين يضطهدهم العالَم، للبؤساء، للودعاء. وها هو ذا (يسوع) قائلاً: طوبى لكم أيها الفقراء لأن ملكوت الله لكم! طوبى لكم أيها الجياع، طوبى لكم أنتم الذين تذرفون الدموع الآن! إن عالماً جديداً سيحل محل العالم القديم: الودعاء سيملكون الأرض.

بيد أن (أفلاطون) ذاته، وإن كان يدعو في «فيدون» إلى إحتقار الحياة احتقاراً مطلقاً، فإنه لم يحجم عن كتابة «الجمهورية» و«القوانين»وهو لايمتهن تنظيم المجتمع، أي تنظيم العالَم. وإن جلّ الفلاسفة الإغريق أولوا هذه المشكلة العملية اهتمامهم. بل إن (الأسرار) ذاتها لم تتخل عن شؤون الدنيا: إن (سيبيل) هي سيدة الحصاد، وحامية المدن، والأسر، والإمبراطوريات. وإن ديانة (ميثرا) تقدم للبشر أخلاق عمل جاد، عمل عسكري، ضمن أشياء هذا العالم، حيث يتصارع الخير والشر. ومن الطبيعي أن نجد الأغنياء لايتعجلون دنو نهاية

العالَم، وهم أقل اضطراباً من الفقراء. فالذين يمارسون وظيفة عامة يُعنون بالحياة وبمستقبل المجتمع. والذين يديرون تجارة كبرى يبذلون في سبيلها شيئاً من نفوسهم. وأولئك الذين يدبرون خيرات المجتمع أو يسهرون على قيام نظام فيه يتذوقون بالتدريج معنى شؤون هذا العالم ويهتمون بها. والأمر الأساس في نظرهم هو ترجيح جانب الحل الذي يعدونه منصفاً أو مناسباً في حال كل ملتقى. ومن شأن اضطرارهم النظر إلى الواقع بعين التقدير أنهم يتعلمون احترامه: ويتفق (يسوع) معهم حين يطالب بأسر متحدة، وبرؤساء يحكمون وبعمال يعملون، وبعبيد يخدمون، وبكلمة واحدة بعالَم يبقى هو هو في خطوطه الكبرى.

* * *

وإليكم مسألة الحياة الإنسانية.

يقول الانجيل: الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون. وإن ما تنطوي عليه مثل هذه الجمل هو ألف فكرة، وألف عاطفة منتشرة في آثار المفكرين الوثنيين. يقول (يوريبيد)[٦٠م]: «ويل للمجنون الذي يغزو المدن: إنه سيهلك بدوره»[*]. يقول (أفلاطون): إنه الجسد بأهوائه[٣٣]. والحرب في نظر جميع كتّاب الإمبراطورية تقريباً «ماهي إلا لص متمرس يتحلى بأبهة عظمى»[٥٤]. ويرى (سينيكا) أن ذاك (جرم). ويعلن (بلوتارك)[٦١م] Plutarque: «لاتندلع حرب بين الناس إلا وهي نتيجة رذيلة من الرذائل». ويمضي إلى أبعد من ذلك فيمنع كل قتل، حتى ذبح حيوان، لأن من واجب الإنسان ألا يقضي على «كائن حي»[٣٥].

ويظهر انجيل (يوحنا) (يسوع) وهو يخاطب اليهود: إن أباكم ابليس. وقد كان منذ البدء قاتل البشر. ولكن، كما تعتبر (الأورفية) أن البشر من نسل (الطيطان)[٦٢م] فإن (الطيطان) يقتلون الناس منذ البدء ماداموا قد قتلوا

(*) الطروداديات: ص٩٥ ومابعد. انظر: المتوسلات ص ٩٤٩ ومابعد: ويل لكم أيها الفانون، لماذا تعدّون أسلحة ويذبح بعضكم بعضاً؟ الخ.

(زاغروس) Zagreus. فالقتل إذن هو الجريمة الكبرى التي تثقل كاهل النوع البشري.

أترى من المجازفة أن نفرض أن هذه الصيغ كلها، وجميع هذه العقائد المضادة للقتل وللحرب تثير صدى قوياً في نفس عامة الشعب وهم ضحية أبدية، في جميع الأنظمة، للمعارك الحربية، وهم بالضرورة متعطشون إلى أن يملك الودعاء الأرض؟

إن للمذهب القائل باللاعنف إرتباطه أيضاً ببعض الأوساط الفلسفية والطبقة الشعبية.

إن الضرورة الأليمة هي التي تجعل العبيد يجدون أنفسهم، وكذلك الفقراء المرغمون على حياة شبه عبودية، مضطرون للرضوخ ولقبول النير والامتناع عن طلب العدل. وإذا ما دعوناهم للصبر كان ذلك تكراراً بصيغ جميلة لما لايكفّون هم أنفسهم عن ترداده همساً في نفوسهم. إنما ذلك إعلان في وضح النهار عما هو بالضرورة أخلاقهم المهنية.

وهذه الأخلاق، وهي وضيعة، ولكنها على الدوام قوية باطراد لأن مؤسسة الرق ظلت ناشطة، ولأن تكدس الثروات يضاعف عدد الفقراء، إن هذه الأخلاق السامية تتجلى في الفلسفة الوثنية. وإن صيغ (ابيكتيت) تعلّم الحكيم أن يعتنق الموقف ذاته الذي يدعو الانجيل المؤمنَ إلى اتخاذه.

يقول (يسوع): لاتقاوم الشرير. دعه يأخذ رداءك. ويقول (ابيكتيت): «انتزعوا مني أرضي. إنها شيء آخر أرجعته. ولكن من انتزعها مني هو شرير. مايعنيك إن كان من أعطاك الأرض قد أعاد طلبها منك؟» «لاتهتم بردائك ولن تغضب على السارق»[٣٦].

يقول (يسوع): دع الشرير يقتلك. لاتخش من يقتل الجسد ولكنه لايقدر على قتل الروح. ويقول (ابيكتيت): أي فارق في أن نفارق الدنيا بنتيجة طغيان طاغية أو سقوط حجر؟ قدّم عنقك للجلّاد كما فعل (لاتيرانوس) Lateranus. ولكن إذا ما فاجأني امرؤ وحيداً وقتلني؟ أيها الغبي، إنه ليس أنت ماقتل بل جسدك[٣٧].

يقول (يسوع): لاتقابل الشر بالشر. ويقول (ابيكتيت): «وماذا؟ ألا أقابل مَن ضربني بالضر؟ كلا. إن أضررتُه كنتُ ظالماً: ذلك أنني أضرّ نفسي»[٣٨].

يقول (يسوع): قابل الشر بالخير. صلّ لمن اضطهدك. ويقول (أبيكتيت): «أضربك جارك أم جرحك؟ ارثِ له. فقد أضاع الحنان والولاء. وله ينبغي أن تأسى. أما الحكيم إذا ضُرب «فإنه يحب الذين يضربونه لأنه أبو الناس جميعاً أو أخوهم»[٣٩].

قال (يسوع) أمام المرأة الزانية: مَن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بالحجر الأول. وقال (ابيكتيت): «ماذا؟ ألا ينبغي أن يهلك هذا اللص، هذا الزاني؟» «لاتتكلم هكذا، بل ارحمهما بالحري.. أتراك أصبحت أنت حكيماً في يوم واحد؟ ها أنت شديد القسوة»[٤٠].

وفي مكنتي أن أكثر من ذكر الأمثلة كثرة غير محدودة. ومن الممكن أن أضيف إلى نصوص (ابيكتيت) أقوالاً لعشرة من الفلاسفة الآخرين. أليست من الأفكار العزيزة على (سينيكا) فكرة واجب مقابلة الشر بالخير، وأن السلاح الواجب استعماله ضد الشرير هو الطيبة الملحاح Pertinax bonitas[٤١] ألا نجد الفكرة ذاتها لدى (بلوتارك)؟ أليست فكرة شائعة؟ يقول الانجيل: «إذا أحببتم من يحبونكم، فأي فضل لكم؟». ولكن أديباً وثنياً يقول كذلك: «من ذا يمدحنا إن لم نخدم سوى صديقنا؟ يا لها من قضية! إن الفضيلة الجديرة بالإجلال، والقاعدة الأخلاقية القمينة بالاتباع، هي قهر غيظنا وأن نذكر حتى لدى الخصومات أن العدو إنسان: Meminisse Hominis[٤٢].

ولم تخل جعبة الفلاسفة حتى من إقرار روح التضحية والشهادة. ويرى (ابيكتيت) أن الحكيم الحقيقي «يسلم بنفسه جسده لمن شاء ليصنع به ما أراد»[٤٣]. وذهب (ابولينوس التياني) بنفسه للقاء (نيرون) وهو يحسب أنه سيعدمه[٤٤].

ولكن بإزاء الفلاسفة الذين يرون أن الحياة محنة، قربان، والذين يبدون استعدادهم لمغادرتها دون أسى، يوجد جميع الذين يهتمون بتنظيم المجتمع

الأرضي ويقبلون الدفاع المشروع عن النفس، الدفاع الفردي والاجتماعي، في جميع أشكاله. وكذلك إلى جانب العبيد وسواد الشعب الذين يرون أن الصبر ضرورة، توجد الطبقات الحاكمة التي تعتمد صنوف العقاب الجسدي بمختلف صورها لإدارة دفة الحكم. وإن الذين يحيون بيسر يعتزمون العزم كله على مواصلة العيش: تراهم ابتغاء ضمان أمنهم وغبطتهم في حياتهم الخاصة لايترددون، عند الاقتضاء، أو عندما يكون الأمر موائماً، في العدوان على حياة الآخرين. وهم يدعمون مشاعرهم بواقع كبير هو الماثل في القانون الرماني. وبما أن لهم حق الطبقة، فإن لهم أخلاقاً طبقية. ولذا فقد نجم عن دخولهم حظيرة (الكنيسة) أن جلبوا إليها معهم أفكاراً تضاد كل التضاد الأفكار التي ذكرناها من قبل. إنهم يحتاجون إلى محاربين يحاربون، ويحتاجون إلى جلّادين يعاقبون ويقتلون. وبما أن هذا كله مشروع في مذهبهم فقد استجاب (يسوع) لرغبتهم وقال: مَن ليس عنده سيف فليشتر سيفاً. ومَن اقترف جرماً فليقتل.

* * *

والأمر عينه فيما يتصل بالثروة. إن كره الثروة نتيجة منطقية للمذاهب الفلسفية التي تدعو إلى احتقار الجسد. وهو، من ناحية أخرى، شعور طبيعي وحتمي لدى الجماهير البائسة التي ترمق بذخ الطبقات المترفة.

وقد فضح (عاموس) بعنف، دون سائر الأنبياء، الأغنياء الذين يتكئون على أسّرة من العاج، ويأكلون خراف الغنم، ويبيدون بائسي الأرض، ويغشون في الوزن، ويشترون المملق بنعلين[٤٥].

وفي اليونان، يحارب فلاسفة ينتمون إلى جميع المدارس طلب الترف ويمجّدون الفقر.

أما (ابولينوس التياني)، وهو معتدل دوماً، فإنه يجيز لمن ليس بحكيم أن يكون غنياً. ولايطلب من التاجر إلا أن يكون شريفاً. ولكنه يريد أن يكون الفيلسوف فقيراً[٤٦]. ويتغنى بالفقر (ابيكتيت)، في حماسة أعظم: إنني بلا بيت ولامال ولاعبد. وأنا أفترش الأرض. ليس لي سوى السماء والأرض ورداء. ماذا يعوزني؟ وأي امرئ، إذ يراني، لايحسب أنه يرى ملكه وسيده؟[٤٧].

إن الاهتمام بالثروة لايحوّل الإنسان عن غايته الحقيقية وحسب، بل إنه يزيد في قسوة قلبه. وفي حديث يتحلى بتأثير أشبه بتأثير الأمثولة الانجيلية، يظهر الرب لنا الغني الذي يطرد الفقير ولايعطيه حتى رداء العبد، بينما يلقى الفقير أخاه ويوقد من أجله نار القرى، ويهديه ثوب ابنته، وهو كل مايحتوي عليه منزله[٤٨]. ويحتاج إلى صفحات كثيرة مَن يود أن يكثر الجمل التي جاءت في الفلسفة ضد قسوة الأغنياء.

ورب قائل يرى أن هذا كله بعيد جداً عن الشيوعية الانجيلية. خطأ. (فالاسينيون) عند اليهود لايقبلون أية ملكية فردية ويشتركون في كل مايملكون[٤٩] وبعد أن أسف (أبولينوس التياني) من الإغريق على الزمن الذي لم تكن فيه الثروة مبجَّلة، وحيث كانت تسود المساواة، يقترح على (الافسوسيين)[٦٣م] أن يقتدوا بالطيور الشيوعية: إن العصفور الدوري يرى حبات القمح التي تسقط من جعبة طفل ولكنه لايهتبل الفرصة السعيدة وحده بل يذهب ويحضر رفاقه كي يشاركوا في الوليمة جميعاً. ويقول المثل: انظروا كم تفرح الطيور من «شيوعية الخيرات». ويريد (أبولينوس) أن يمارس الناس هذا النظام الشيوعي وأن يغذّي بعضهم بعضاً وأن يغتذي بعضهم من بعض[٥٠].

أترى مَن يعترض قائلاً إن (الإغريقي) لم يدعُ البتة إلى هذا التجرد السامي، التجرد فوق الإنساني، وهو يأمرنا حتى بألّا نقلق على الغد، وأن نتكل على الله وحده لتأمين حياتنا وتلبية جميع حاجاتنا؟ لنقرأ (ابيكتيت): «لماذا لايقول الحكيم: أنا ابن الله؟». ولماذا لايخشى شيئاً مما يحدث بين الناس؟ «إن قرابة (قيصر) أو أي واحد من أولي النفوذ في رومه تكفينا لنعيش بطمأنينة، ولتحمينا من الاحتقار، ولتحررنا من كل قلق وكل خوف!». أجل، إن (ابيكتيت) لايخلص إلى القول: اجلسوا وابقوا عاطلين. وهو يوصينا باللجوء إلى أنفسنا، ولكنه يعدنا بأننا «أبناء الله» وأن علينا ألا نخشى الإملاق: لأن الحيوانات ذاتها لايعوزها الطعام[٥١].

بغض الثروة، شيوعية، لامبالاة: ليس بصوت الفلاسفة وحده تتأكد

الثنائية الفيثاغورية، والأفلاطونية، والرواقية، وحسب، بل إن ذلك هو أيضاً المثل الأعلى للجماهير المعوزة التي تزخر بها المدن الإغريقية.

ولكن، هنا أيضاً، أترى من الواجب أن نذكّر بأن الفلسفة الإغريقية تؤيد بوجه عام، عندما تعالج تنظيم المجتمع، تمييز الطبقة الغنية عن الطبقة الفقيرة؟ أترانا نحتاج إلى التذكير بالاقتصاد الاجتماعي الذي يقرّه (أرسطو) و(أفلاطون) نفسه؟ أترانا نحتاج إلى التذكير بأن القانون الإمبراطوري يؤيد، في كل صفحة تقريباً، امتيازات المواطنين الموسرين وسقوط حقوق الوضعاء؟ وعلى هذا النحو نجد أخلاقاً أخرى تدخل إلى الكنيسة بدخول الأغنياء. وبينما جعل فريق (يسوع) يقول: ويل للأغنياء! بيعوا كل ماتملكون! لاتقلقوا على الغد! جاء فريق آخر وجعله يقول: اعملوا! ضعوا مالكم لدى أصحاب المصارف، ابحثوا عن الدرهم الضائع. ومن هنا يصدر جاه هذه الأخلاق، أخلاق الأغنياء، التي يجسر أشخاص على عرضها أمام أعين الفقراء في مدخل الكنيسة على أنها عمل صالح: أجل، إن مَن سينتمي إلى الجماعة ستكون له حياة أبدية. ولكنه سينال كذلك لقاء البيت الذي يتركه مائة بيت، هنا في هذا العالم؛ وبعبارة أخرى، إن ربحاً كبيراً ينتظره من الناحية المادية بسائق انتمائه إلى جماعة تضم بين صفوفها بعض المسيحيين الموسرين والكرماء.

* * *

وعلى المنوال ذاته نجد أن للأخلاق المعادية للزواج والأسرة جذوراً في المجتمع اليهودي وفي المجتمع الإغريقي.

(الاسينيون) يحتقرون الزواج[٥٢]. ويرى أتباع (ميثرا) أن «العفاف المطلق» محمود[٥٣]. ويعتبر مريدو (اتيس) أن الخصاء هو حال «القداسة الممتازة»[٥٤]. ويمكننا القول عن (غال)[٦٤م] Galle أنه خصى نفسه بالفعل من أجل ملكوت (سيبيل). ومن جهة أخرى يعتز فلاسفة فيثاغوريون بأنهم لم يلمسوا امرأة. وقد ذكر (فيلوسترات)[٦٥م] Philostrate أن (فيثاغورس) استحق المدح لقوله إن على الإنسان ألا يتصل إلا بامرأته.

ويقبل (ابيكتيت) أن يكون للحكيم زوج وأولاد، ولكن عليه أن يكون متأهباً على الدوام لتركهم حتى دون نظرة وداع: «إذا أُعطيتَ زوجاً وطفلاً بدل النبات والقواقع فلا شيء يمنعك من قبولهما. ولكن إذا دعاك الربّان فاركض إلى السفينة تاركاً هذه الأشياء كلها، بل لاتلتفت إلى الوراء»(٥٥). ويردف (ابيكتيت) قائلاً: «إن الكلبي الحقيقي ينبغي ألا يتزوج. فالزواج يقتل قدسية نفسه. وأنى له أن ينهض بدوره الاجتماعي من حيث أنه رسول الآلهة إذا كان عليه أن يُعنى بزوجه وأطفاله؟ إن للكلبي الحقيقي أسرة هي الإنسانية: الرجال أبناؤه، والنساء بناته. وهو ليس أباهم وحسب، بل هو أخوهم. إنه لديهم رسول الله»(٥٦). وسيعكس (يسوع) صدى هذه العواطف ويقول: اترك زوجتك، واترك أبناءك، والأسرة الحقيقية ليست أسرة الجسد. وينبغي أن نضيف أن هذه الجمل التي تبدو لنا قاسية لدى (ابيكتيت) وفي الانجيل على قدر سواء، لاتثير عين المشاعر لدى الجماهير المستَرَقّة التي تَحولُ قسوة أسيادها بوجه عام بينها وبين تذوق الحياة العائلية.

ولكن الأسرة في المجتع الإغريقي شأنها في المجتمع اليهودي، تظل، على الرغم من ذلك، هي الجهازالأساسي خارج دنيا العبيد. زد على ذلك أن الأسرة في العصر الإمبراطوري كانت، على ما يبدو، تربح مايخسره المجتمع. فهي لم تحتفظ بمنزلتها في الدولة وحسب، بل إنها احتلت في القلوب منزلة أعلى. وعلى هذا النحو فقد دخلت إلى الكنيسة الأخلاق شبه ـ العامة التي كانت تربط في طبقة الأحرار الزوج بزوجه، والوالدين بالأبناء. وإن (يسوع) ليمجّد الزواج واحترام الأبناء والديهم ويظهر أباً يذبح العجل المسمَّن بمناسبة عودة ابنه الضالّ.

* * *

بقي المجتمع.

إن الفكرة القائلة إن ممالك العالم شيطانية، وإن السلطة السياسية سيئة بالتعريف، هي فكرة سائدة في الجماعات اليهودية وفي الجماعات الوثنية سواء بسواء. فأبناء اسرائيل يرون ألّا توجد أية سلطة شرعية إلا السلطة التي تحكم

باسم الله وحده. وإن سلطة الرومان شيء مقيت في نظرهم. ومثلها كذلك سلطة ملوك الشرق الذين يجعلون رعيتهم تعبدهم عبادة آلهة. ومن هنا جاء حادث التجربة والغواية عندما أظهر (ابليس) لـ (يسوع) ممالك العالَم ومجدها على أنها شيء يحوزه.

والفكرة ذاتها، خارج العالَم اليهودي، تستند إلى بعض المذاهب الفلسفية التي تذهب في حل مشكلة الشر القديمة إلى وجود إلهين، أحدهما شرير، والآخر خير، وأن الإله الشرير هو الذي خلق العالَم. وقد أذاع (مرقيون) هذه النظرية في الكنيسة (وهذا لايعني أنها لم تكن قد نفذت إليها قبل مرقيون): ولذا نجد إنجيل (يوحنا) يظهر لنا (بيلاطس) على أنه مجرد عميل لأمير هذا العالم، أي لـ (إبليس).

إن سيطرة الرومان لم تحدث لدى الإغريق الفزع ذاته الذي أحدثته في العالم اليهودي. فقد قبلها الإغريق. ولكن من البديهي أنها لم تلق حماسة مثل حماسة النظم التي سادت زمن الاستقلال. ولم يعنَ الإغريق الخاضعون للرومان بالسياسة إلا قليلاً. وقد سخر فلاسفة من طراز (ابيكتيت) سخرية حادة من الذين ينشدون الوظائف العامة، من الذين يهتمون بوطنهم: «من أي بلد أنت؟ لاتجب قائلاً: إنني من (أثينة) أو من (كورنثوس)، بل قل كما يقول (سقراط): أنا من العالم»[٥٧]. «ألقوا عنباً وجوزاً، فيلتقطها الأطفال على عجل ويتقاتلون في سبيلها. أما الرجال فلا يفعلون ذلك: لأنها أمور جد تافهة لديهم. أجل. عند توزيع مناصب القضاة: على الأطفال أن يهتموا بها... وإذا وزعت مناصب القادة والقناصل: فلينهبها الأطفال». بل إن المحاكم ذاتها لاتفيد الحكيم. وإذا ما أُسيء إليه فهو لن يصيح: لنذهب إلى الحاكم المطاع! ماهو القيصر. ماهو في نظر الكلبي إن لم يكن ذاك الذي أرسله؟ إنه لايلجأ إلا إلى الله»[٥٨].

أما الامتيازات الاجتماعية فإن الفيلسوف لايكترث بها. ومهمته هي أن يحتقره عبد، ويهزأ منه أولئك الذين يلقونه، ويكون الأخير في كل مكان، وفي الاحتفالات، والمناصب، والمحاكم، وفي أتفه الأعمال[٥٩].

ومن المعلوم أن الإكثار من ذكر مثل هذه الأمثلة أمر جد يسير. ولكن ما

سبق منها كافٍ لإظهار أن الصيغ الانجيلية: لاتدين أحداً، لاتلجأ إلى المحاكم، إذا أردتَ أن تكون عظيماً فكن الأخير بعد الجميع، هي صدى العالَم الإغريقي. ولكن من الجلي أن المدارس الفلسفية ليست وحدها هي التي تصلح نقاط إستناد للمذاهب التي تنادي بواجب الفزع من السلطات السياسية. إن الوسط الذي يختمر فيه هذا الكره الشديد إنما هو بالضرورة العالَم الذي لايكتب، بل ينهض أحياناً بسائق الوقائع الحتمية بالدور الأساسي، إنه هؤلاء الآلاف والآلاف من العبيد والعامة الذين يلقي بهم النظام الإمبراطوري وهم عزل في مهب نزوات الأغنياء، ويعرّضهم لجميع أهواء ذوي النفوذ. إنهم يطيعون لأنهم عزل، لأن الوزر الرهيب للسلطة الرومانية تستعبد من كان أكثرهم عزماً. ولكن ألا يكون من الجنون افتراض أنهم وهم ضحايا نظام بشع يقرونه في أعماق نفوسهم ويرون أنه شرعي؟ أليس من البديهي أنهم، وهم بشر يألمون، يخلطون السيد بالحاكم بالنظام الاجتماعي والنظام السياسي؟ والجماهير الوضيعة تنتظر الأمسية العظيمة التي ستنهار فيها السلطات الملعونة والتي ستنجز ثأر الصغار، والوضعاء، والبؤساء، وهي ستتيح أخيراً قول القائل: طوبى لكم أيها الباكون، ها أنتم أولاء تنالون العزاء، طوبى لكم أيها الجياع، ها أنتم أولاء تشبعون!

بيد أنه، بإزاء كل هذه الجماعات التي تنظر إلى السلطات العامة، منهم من ينتظر بازدراء، ومنهم من ينظر بحقد طاغٍ، توجد كتلة الراضين بقسوة أقل، وهذا أمر طبيعي، عن السلطة التي تحافظ على النظام. هناك التقليد اليوناني القديم الذي ينصح بطلب الوظائف العامة. وهناك دنيا القضاء والحكام والموظفين الذين لايستطيعون كرهها دون أن يكرهوا أنفسهم مادامو يعملون في السلك الإمبراطوري. وهناك أخيراً جميع الذين لايتحمسون بلا ريب البتة للسياسة الرومانية، ولكنهم يعرفون أن كل مقاومة ستكون سدى، والذين يعون أن ضمان مجرى الحياة الاجتماعية يوماً في إثر يوم يوجب توافر حكومة، أية حكومة، فذاك أفضل من الفوضى. ولذا نجد الانجيل يعلن، بعد أن أظهر (قيصر) عميلاً لـ (ابليس) قائلاً: أعطوا ما لقيصر لقيصر.

إنني أوقف هنا هذا البرهان. وليتفضل القارئ بألاّ يجد ثمة سوى

محاولة أولى. وإذا أردنا أن نذكّر بشيء من التفصيل كيف ترتبط كل التناقضات الموجودة في الأناجيل بنقطة إستناد أو أكثر في الجماعات التي نشأت فيها هذه الأُناجيل لاحتجنا إلى مجلد كبير. وإنما أردت أن أبيّن أن تفسيراً من الطراز السوسيولوجي يتمتع وحده بفرصة أن يكون خصيباً يوضح الوقائع الأساسية.

بقي أن نبين كيف جاءت المذاهب الأخلاقية ودخلت الكنيسة عن طريق شتى الجماعات وتراصفت في الأناجيل دون أن يعنى أحد بتغطية تناقضاتها.

— ٤ —

تأثير الجماعات الاجتماعية في كتابة الأناجيل: ١ ـ إن الجماعات المختلفة تعمل منذ الأصل على أنحاء متعارضة ٢ ـ كتابة الـ (لوجيا) ٣ ـ كتابة الأناجيل.

إن هذه الجماعات الاجتماعية المثقلة بضروب من الأخلاق المتناقضة تعمل، منذ البدء، في منحى مخالف.

وكثير من المؤرخين لايعترفون بذلك. فإذا أخذنا برأيهم قلنا إن وحدة جلية جداً توجد منذ البدء: المسيحيون ليسوا سوى أناس فقراء، جهّال، بسطاء، كانوا ينتظرون بثقة متحمسة (رجعة المسيح). وهم أعداء العالَم لأنهم يألمون وهم مستعدون لبذل أقسى صنوف التضحية لأنهم يؤمنون بقرب الحل، وهم يجمعون على ترجيح أخلاق الزهد المطلق: ذلك أن الاحتقار التام للأسرة، والثروة، والمجتمع، يرتبط منطقياً بفكرة أن العالَم يدنو من نهايته. ثم مرت الأيام يتلو بعضها بعضاً ولما يأت (الرب). وتضاءل الأمل بدنو حلّ قريب. وظهرت الشكوك. ودخل أغنياء إلى الكنيسة، وحكماء، وذوو نفوذ. وإذ ذاك، ولكن إذ ذاك وحسب، أخذت أخلاق الزهد بالإنحسار وصارت الأخلاق الأخرى، على العكس، تزداد جرأة يوماً بعد يوم.

إن هذه النظرية تنطوي على قسط كبير من الحقيقة إذا طبقناها

على تطور الأخلاق المسيحية في القرن الرابع. فالكنيسة بعد (قسطنطين)[٦٦م] Costantin قد اندمجت في الإمبراطورية، وحكمتها نخبة مصطفاة، وسرعان ما رُفض الحلم العتيق بـ (رجعة المسيح) فدعت الكنيسة إلى احترام العالَم[٦١]. ولئن اتخذت الكنيسة هذا الموقف، وحملت جملة أتباعها على قبوله دون صدامات كبرى، فمردّ ذلك بوجه الدقة يرجع إلى أن ثمة نوعين من الأخلاق، لانوعاً واحداً، بين المسيحيين في ذاك العصر، يرجع إلى أن هذين المذهبين الأخلاقيين قد ذاعا منذ الأصل في الطوائف المسيحية.

قد يقال لنا: إن المؤمنين كافة كانوا في البدء يأخذون بأخلاق الزهد لأنهم كلهم كانوا ينتظرون (رجعة المسيح). ولكن، باديءَ ذي بدء، من المحتمل قليلاً أن يكونوا كلهم ينتظرون (الرجعة)؛ وثانياً، من الثابت تقريباً، أن أولئك الذين كانوا ينتظرون (الرجعة) أنفسهم لم يعتنقوا كلهم أخلاق الزهد.

وفي الواقع، كيف نصدّق أن أوائل اليهود الذين جاؤوا إلى (يسوع) كانوا كلهم، حصراً، يهوداً ينتظرون (مسيا) على الطريقة القديمة؟ كيف نصدق، عندما كانت الثقافة الاغريقية تؤثر من قبل تأثيراً كبيراً على فكر اسرائيل، أن واحداً من هؤلاء لايرى أن (يسوع) سيد حياة أبدية يكفل لأتباعه خلوداً سعيداً؟ إننا مهما عدنا إلى الوراء نحو أقدم عهود الطائفة فإننا نجد «مسيحيي الختان» والآخرين: وقدكان (بطرس) ذاته يختصم وهؤلاء الأولين. فليس من التهور أن نفترض أن أنصار «الختان» ينتظرون بفارغ الصبر (الرجعة)، ولكن الآخرين، وهم أكثر تأثراً بالثقافة الإغريقية، يكتفون بأن يطلبوا من (يسوع) إنقاذهم من الموت الأبدي ويبتسمون عندما يسمعون الحديث عن مجيء (ابن الإنسان) مجيئاً محتملاً قريباً.

أضف إلى ذلك أن انتظار (الرجعة) لايُنتج بالضرورة أخلاق الزهد. وكل شيء يتبع الروح التي تصحب هذا الإنتظار، يتبع الشكل الأخلاقي الذي يتوقع أن يظهر فيه (المسيح).

أيجب على (الرب)، حين يرجع، أن يبطل الثروة والمجتمع والأسرة وحتى

تمييز الجنسين بوصفها أموراً سيئة؟ إن كان الجواب بالإيجاب، كان من الطبيعي أن يحتقر الناس ويبغضوا هذه الوقائع الكريهة والآيلة إلى خراب قريب، من الطبيعي تعليم زهد مطلق.

ولكن إذا ترتب على (الرب)، على العكس، أن يعيد، بيد قوية، مجد إسرائيل، شعبه، وينقذه، بيأس أعدائه، ويهيئ لأتباعه عروشاً من ذهب ويجعلهم يحكمون الأرض؟ إذ ذاك يترتب على المؤمن أن يتمنطق، وأن يبيع رداءه ليشتري سيفاً بدل تخليه وتواضعه وزهده في كل شيء، يترتب عليه التهيؤ لحكم العالَم، بدل كرهه وبغضه.

إن تعارض الأغنياء والفقراء، البسطاء والحكماء، إنما هو تعارض قديم بلا ريب. وقد تسحرنا فكرة الطوائف الصغيرة الأولية التي قد لاتضم بين جناحيها سوى معوزين وجهال وهم على الرغم من ذلك يتهيأون لحركات كبرى تزعزع أركان العالَم. غير أن هذه الصورة الفاتنة تشوّه الواقع. وفي وسع المؤمن، إن شاء، أن يتخيل أن جميع المؤمنين الأوائل كانوا مملقين وأنهم عاشوا، إن عاشوا، بفضل من الله الذي يتولى الزنابق وطيور السماء. أما المؤرخ فإنه يلاحظ، بوصفه مؤرخاً، أن أقدم الجماعات المعروفة، جماعة أورشليم، كانت تعيش بيسر، كما جاء في «أعمال الرسل»، على الرغم من أنها كانت تحفل بالفقراء. ويخلص المؤرخ إلى أن فيها أغنياء، إن لم نقل عدداً غفيراً من الميسورين. يقول الكاتب: «والأملاك والمقتنيات»(٦١) كانوا يبيعونها. وهذا يعني أنهم كانوا يمتلكونها. وإذا صح، كما يقول في مكان آخر، «إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً»(٦٢) فمردّ ذلك أن مالكي البيوت أو الأرضين كثر أو موسرون. ولما كانوا يكفلون حياة الطائفة فقد كان من حقهم أن يجأروا، ولئن كانوا يتجردون من أموالهم فقد كانوا يتجردون بيسر أقل من أخلاقهم. وإن الذين يديرون الصندوق المشترك يجهرون، هم أيضاً، بصوت الحكمة العملية؛ لأن صاحب الخزينة هو الذي يعيد أكثر الناس اندفاعاً وحماسة إلى أرض الواقع، وذلك في أكثر الجماعات اضطراماً. ومايصح بشأن كنيسة أورشليم يصح كذلك في الكنائس البولسية. يقول القديس (بولس):

«ليس كثيرون (بيننا) أقوياء، ليس كثيرون شرفاء» (١ كورنثوس ١/ ٢٦). وإذن يوجد قلة منهم. قبضة من الأغنياء وسط جماعة من الفقراء. وهذه القبضة لها تأثيرها، ولامناص من التعامل معها.

ومثلما يوجد أغنياء، يوجد حكماء. وهنا أيضاً يستطيع المؤمن، الشاعر، أن يقول في نفسه إن جميع المسيحيين الأوائل كانوا غير متعلمين: ولئن استطاعوا، على الرغم من هذا الجهل، النجاح في اجتذاب هذا العدد من الأتباع فذلك لأن ألسنة من النار قد هبطت عليهم يوم عيد الفصح وجعلت هؤلاء البسطاء متعددي اللغات. أما التاريخ، وهو ريبي، فيتخيل أن بين المؤمنين الأوائل يوجد أناس متعلمون يتقنون لغات عدة. فالخطباء الذين يتحدث عنهم سفر «أعمال الرسل» يعرفون «العهد القديم» ويستشهدون به ببراعة. ولايكاد المرء يتخيلهم وهم يخاطبون إغريقيين ويهدونهم يستعملون لغة قروي أو عامل أمي. زد على ذلك أن الخطب التي تعزى لهم ليست بالخطب البسيطة. إن خطبة (ايتيين)[٦٧م] Etienne في سفر «الأعمال» درس صغير في التاريخ. وعندما يأتي (بولس) إلى أورشليم لعرض انجيله فإنه يعرضه «بالانفراد على المعتَبرين» (غلاطيه ٢/٢). ولاريب في أنه يتحدث باعتزاز عن هؤلاء الوجهاء: «إنهم شيء مهما كانوا لافرق عندي. الله لايأخذ بوجه إنسان». ويبقى من الصحيح أن المناقشات المطوّلة التي تحدّد مستقبل الكنيسة قد استمرت بين بعض شخصيات مهمة وأن من العسير أن نفترض أن هؤلاء الرؤساء لايشكلون نخبة من الناحية الفكرية.

والأمر هو عينه بالاضافة إلى الاغريق. يقول (بولس): «اليهود يسألون آية واليونانيون يطلبون حكمة» (أ. كورنثوس ١/٢٢). وقد أعطاهم (بولس) نفسه مايشتهون. ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على آثاره حتى نتبين أنه لم يعرف «العهد القديم» وحسب، بل إن براعته في المناقشة تنمّ عن براعة محترف. فالحكمة اليونانية أليفة لديه. أيقول امرؤ إنه الوحيد الذي يملك هذه الثقافة الواسعة؟ ولكنه نفسه إذ يقول: ليس بيننا كثيرون اقوياء، يقول كذلك: ليس كثيرون حكماء حسب الجسد. وهؤلاء الحكماء حسب الجسد هم الفلاسفة

المنبثقون عن الوثنية. إنهم ليسوا «كثيرين»، وإذن هم قلة. ويذكر سفر «الأعمال» (ابلوس) Apollos على أنه «اسكندري الجنس، رجل فصيح مقتدر في الكتب» (أعمال ٢٤/١٨). وثمة غيره ممن ظلوا مجهولين. ولكن بعض الحكماء، مهما قلّ عددهم أحدثوا بلا ريب تأثيراً ضخماً على البسطاء الذين يحيطون بهم.

يتضح إذن أن الجماعات الاجتماعية التي ترتبط بها نظريات متنافرة وأخلاق متناقضة كانت تتلاقى منذ الأصل وتتصارع داخل الكنائس. فكيف تمّ تأثيرها في الأدب الانجيلي؟

* * *

إن من أكثر النظريات رواجاً اليوم بين المفسّرين تلك التي ترى أن الـ «لوجيا»، أي مجموعات «أقوال (يسوع) » تدور منذ وقت مبكر بين المسيحيين.

فإذا قبلنا وجود (يسوع)، بالمعنى العادي والمعنى الإنساني للكلمة، اضطررنا لافتراض أن أوائل مؤلفي الـ «لوجيا» جهدوا لجمع جمل قالها (يسوع) بالفعل. وإذ ذاك لانفهم كيف استطاع مؤمنون أن يدّسوا بعدئذٍ في وسط هذا التعليم مذهباً مضاداً.

ولكن لنتبع فرضيتنا. إن (يسوع) ليس شخصاً تاريخياً. إنه إبداع اجتماعي يعرب عن المثل الأخلاقي الأعلى لبعض الجماعات: فإذا كان هذا المثل الأعلى متناقضاً فإن الـ «لوجيا» متناقضة بالضرورة ولايوجد أي نص أصلي يربط أولئك الذين يقذفون الصيغ، يجمعونها: إذن كل واحد يعرب عن الأخلاق التي يعتنقها بنسبتها إلى (يسوع).

هذا إنسان نصير الفقراء. لقد سمع إبان الاجتماعات التي يتكلم فيها (الروح)، سمع مؤمنين ملهَمين يحملون على الأغنياء. كان أحدهم يصيح: ويل لكم أيها الأغنياء! والآخر يحكي قصة شاب غني يأبى أن يبيع كل مايملك وإذا به يخلص إلى مايلي: من الأيسر أن يمرّ جمل من ثقب إبرة من أن يدخل غني

ملكوت الله، فهذا الرجل الذي يكتب الـ «لوجيا» يحرّر الصيغة والقصة ويخضعهما لبعض التنقيح فيزيد حدة الأولى، ويبسّط الثانية. وها هماذا «قولان» من الـ «لوجيا» ثبتتهما الكتابة. هل يوجد (وحيان)؟ كيف نرتاب في ذلك. لقد كان الأخوة يتكلمون بالهام (الروح). وإن (بولس) ليقول: (يسوع) هو (الروح) (٢ كورنثوس ١٧/٣).

ولكن لنأخذ شخصاً من الطبقة المتوسطة. لقد سمع خلال اجتماع آخر غنياً يحكي بإعجاب قصة (زكا) الذي آمن وأعطى نصف مايملك. وقد رأى هذا الشخص أن ذلك جميل جداً: فلترضَ السماء بأن يصبح مثل هذا الأنموذج قدوة! إذ ذاك كتب القصة. وها هي ذي تمسي «قولاً» من «لوجيا» (يسوع)، وهو قول يعارض ماسبقه.

وفي ذات يوم جاء يهودي من أنصار فكر إسرائيل العتيق وأعلن بحماسة قرب مجيء (ابن الإنسان). إنه آت، وكأنه ملك حانق وهو سيبيد الأشرار. وسيسحق أعداء اليهود وسيسود الشعب المختار. الصوت صوت قاس، والجماعة لاهثة: لقد وُلد «قول». ولكن رجلاً يونانياً أظهر (يسوع) في يوم آخر وهو يدين الناس ويدعم الأبرار: يهود أو غير يهود: إن «قولاً» جديداً قد وُلد.

البارحة ثار متمرد على (رومه) وعلى كل الحكومات، وهي بنات (ابليس). اليوم ينصح رجل وقور، مبجَّل بالحكمة، بأن يدفع الاخوان الضرائب المترتبة عليهم: ها هماذا «قولان» يذيعان في الكنائس.

الحكماء يتكلمون، والبسطاء، والعلماء، والجهال، واليهود، والأمميون، واليهود المتأثرون بالإغريقية، وعابد (ميثرا) سابقاً، وعابد (اتيس) قديماً، ومَن قرأ «العهد القديم»، ومَن قرأ (أفلاطون)، ومن قرأ (الرواقيين)، ومَن يحب إسرائيل، ومَن يبغض اسرائيل، والودعاء والعنيفون، والصابرون والمتمردون، والأغنياء والفقراء، والإنسان الوقور تارة، والمجنون أخرى. ومن خضم هذا الصخب تطفو الصيغة التي تأسر، والحكاية التي تثير الابتسام، والحكاية التي تبعث الرعدة، والحكاية التي تدغدغ الحلم. وهذه هي مجموعات الـ «لوجيا» تحملها أيد تقية

وتمضي بها من كنيسة إلى أخرى. لقد تكلم (يسوع): ولكن بما أن كل إنسان يجعل (يسوع) يتكلم، فإن «أخلاق (يسوع) » يصدم بعضها بعضاً أو يناقض بعضها بعضاً.

أيقال إن على الذين وضعوا مجموعات الـ «لوجيا»، عليهم هم على الأقل، أن يفطنوا للتناقضات والتباين؟ لاشيء يفوق ذلك احتمالاً، في الواقع، إن الذين يكتبون حكماً وأمثالاً، على الرغم من إساءة الناس تقديرهم، هم فنانون واثقون كل الثقة من صناعتهم. وليس بممكن ألا يكونوا قد رأوا أن كل هذه «الأقوال» التي نحتوها تتعارض، وأحياناً تتعارض بشدة. ولكن بأي حق يحذفون بعضها دون بعض، مادام هذا التعارض بين الصيغ هو الإنعكاس الأمين لتعارض ماثل بين الجماعات؟ واليوم أيضاً، ألسنا نرى في برامج الأحزاب الكبرى، في أوامرها اليومية، صيغاً متنافرة يجاور بعضها بعضاً وهي تستهدف إرضاء شتى عناصر الجماعات؟ إننا لانقيم هذا التقريب بين الأمرين من باب السهو والتغافل.

وليس في وسع مؤلفي الـ «لوجيا» أن يرهنوا شرفهم لقاء أن يظلوا انتقائيين (وبالإجمال لقد برهنوا على أمانتهم بأن سجلوا دونما إنحياز كل مابدا في الكنائس جيداً أو ملهماً) وحسب، بل إن من الجائز جداً، فوق ذلك أن تكون مجموعاتهم قد تعرضت للتحريف، وأن يكون رأي حزب قد تجلى بحدة مسرفة وإذا بحزب آخر يهبّ متيقظاً ويدسّ بيد حذرة التصحيح المنقِذ. وعلى هذا النحو نفسر أن الكلمة المحافِظة: «لم آت لالغاء (الشريعة) » قد وُضعت في «الموعظة على الجبل» إلى جانب جمل ثورية غرضها بوجه الدقة إلغاء (الشريعة). وكذلك يمكن أن نفسر أن تكون الأمثولة الجريئة، أمثولة وكيل الظلم، ما أن ظهرت حتى جاءت يد إنسان غني أصابته الفضيحة فدسّت جملة ضد العبيد اللاشرفاء. وكذلك أيضاً قد نفسر أن الجمل التي تقيم عدالة (كنيسة) تمس تقريباً القول الشهير الذي يأمر بالعفو سبعين مرة سبعاً.

* * *

إن فكر مؤلفي الـ «لوجيا» هو روح الانجيليين.وقد يتفق أن يكون لمؤلفي الأناجيل المتقاربة في بعض النقاط أفكار خاصة بهم وأن يدافعوا عن نظرية بالرغم من مبالغة الباحثين أحياناً في إبراز إنحيازهم. ولكن من الثابت أنهم ليسوا، في مجال الأخلاق، أناساً منهجيين. وقد كان في وسع أبسط عناية بالوحدة أن تحملهم على حذف هذه التناقضات الصريحة التي تنتشر على مايبدو في كتاباتهم أو تغليفها على الأقل. أما أنهم قد تركوها بعد أن رأوها فإن ذلك يرجع إلى أن شيئاً لايشبه أن يكون تعليماً صحيحاً لـ (يسوع) بوصفه شخصاً تاريخياً حتى يعتمدوه أساس اختيارهم؛ وقد جمعوا، هم، كل الأقوال التي عزيت في الكنائس إلى (المعلم).

ثم قد يكون من المحتمل أيضاً أن آخرين عبثوا بالنص الذي وضعوه بعد نشره.

ولاريب في أن من الأصعب تحوير قصة متماسكة في اي مجال من تحوير مجموعة «لوجيا». ولكن تاريخ الانجيل الرابع يدلنا على أن ليس ذلك محالاً، وأن من الممكن تشويه فكر انجيل بذاته بإضافات جديدة.

لنلق نظرة إلى الطبعة التي قدمها الأستاذ (دولافوس) عن نص إنجيل (يوحنا) الشهير. الكاتب الأول قال: «هو ذا تأتي الساعة وقد أتت الآن» وحيث يعبد العابدون الحقيقيون الآب بالروح والحق». وفوق هذه الجملة الأخيرة جاء كاتب آخر وقد أفزعته مثل هذه الجرأة المسرفة قدّس جملة أخرى: «الخلاص هو من اليهود» (ص١٤٥). الكاتب الأول جعل (يسوع) يقول: «الروح هي التي تعطي الحياة. أما الجسد فلا يفيد شيئاً». والكاتب الثاني الذي يرتعد فزعاً، يضيف في الإصحاح ذاته: «جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق». (ص ١٦٠ ، ١٥٩). والإضافات المماثلة كثيرة جداً في الإنجيل الرابع. وقد نجحت حماسة الأستاذ (دولافوس) البارعة في الكشف عنها لأن الكاتب الأول لانجيل (يوحنا) كان هو أيضاً رجلاً منهجياً، فيلسوفاً، وإن مذهبه يبلغ من الدقة ما يمكّن من تمييز بعض مقاطع لايمكن أن يكون قد كتبها بنفسه تمييزاً

دقيقاً. وأما في الأناجيل المتقاربة فإن التمييز في المجال الأخلاقي تمييز أصعب، لأن المؤلفين أنفسهم قد جمعوا الأقوال الأكثر تناقضاً: ولذا فإن الإضافة الملحقة لاتبرز على وجه هذه التناقضات. ولكننا لانستطيع أن نستنتج من هذه التبديلات التي تفوتنا أنها لما تحدث، ذلك أن ليس ثمة أي سبب للوقوف من انجيل (متى) أو انجيل (مرقس) موقفاً أشد إجلالاً منه حيال إنجيل (يوحنا).

هكذا تتضح التناقضات التي أشرنا إليها خلال دراستنا. فلئن وُجدت في الأناجيل، فذلك لأن هذه الكتب المقدسة لاتحتوي تعليم رجل، بل إنها تعكس حادثاً اجتماعياً كبيراً: كل الحياة الأخلاقية، الحارة والمتنوعة، للكنائس الأولية، فهذه الكنائس التي تضم رجالاً ونساءاً، جاؤوا من أكثر الأوساط الاجتماعية تبايناً تدرك انتشار أكثر النظريات تنوعاً وأقل التعاليم توافقاً في أرجائها. أفكار يهود، وأفكار الإغريق، وأفكار صغار، وأفكار كبار، وأفكار بسطاء، وأفكار حكماء، وأفكار أغنياء، وأفكار فقراء: وهذه العناصر المتعارضة كلها تتصادم تصادم الجماعات التي ترتبط بها. وعن هذا الاختلاط الاجتماعي والأخلاقي يعكس الانجيل، وهو مرآة أمينة، صورتها المتموجة.

خاتمة

في وسعنا الآن أن ننظر، دونما دهشة، إلى الحادث الذي يبدو غريباً في ظاهره، وقد أشرت إليه في مستهل هذا الكتاب: حادث أن عدداً كبيراً من الأحزاب، عدداً كبيراً من المدارس ومن المفكرين المتنوعين غاية التنوع يدّعون الانتماء إلى الإنجيل بحماسة متساوية.

ولئن زعم بروتستانتيون وكاثوليك، محافظون وثوريون، رأسماليون واشتراكيون، زعموا جميعاً أن الأخلاق التي يدعون إليها مستمدة من هذه الكتب الشهيرة، فذلك أن نصوصاً دقيقة تتيح لهم كلهم ذلك الادّعاء، ولأن مذاهبهم، مهما بلغ تنوعها، ماثلة كلها سلفاً في الانجيل.

عندما شاءت الكنيسة في القرن الرابع الارتباط بالعالم الروماني، وعندما حاول اليسوعيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر الارتباط بالعالم الحديث، آخذهم اللائمون بالتنكر للتقليد الانجيلي. ولكن الحقيقة أقل بساطة. فمن ذا الذي يصدّق أن أناساً يتحلون بالحماسة وبالعلم يلهون عن طيب نفس بالانخلاع القاسي عن كتاب يعلنون دوماً أنهم يعدونه مقدساً؟ عبثاً ينتصر المنتصر وهو يظهر أن (يسوع) قد قال: ردّ سيفك إلى مكانه وأن الكنيسة تقرّ الحرب، وعقوبة الإعدام، واستعمال العنف ضد المبتدعة. عبثاً يذكّر المذكِرّون بأن (يسوع) قد قال: لاتدينوا، وإذا للكنيسة محاكمها، وأن (يسوع) قال: كونوا فقراء، وأن الكنيسة غنية، وأن (يسوع) قال: كونوا وضعاء، وأن الكرادلة يلبسون القرمز. لاريب في أن جميع النصوص المشار إليها هي من نصوص

الانجيل: ولكن إلى جانب النصوص التي يُستشهد بها توجد نصوص لايستشهدون بها، وهي تجيز، بوجه الدقة، الحرب والإعدام والدينونة والثروة والترتب الاجتماعي. وإن الكنيسة الكاثوليكية لتستند اليوم إلى هذه النصوص الأخيرة. وهي تغفل قسماً كبيراً (هو في نظري القسم الأجمل) من الكتاب المقدس. ولكنها تحتفظ بالقسم الآخر. ولذا فإنها تدّعي الانتماء إلى الإنجيل بكل نية طيبة.

وبالمقابل، حين يفخر الثوريون والاشتراكيون والشيوعيون هم أيضاً بأنهم يستأنفون أخلاق الانجيل فإن على الكنيسة ـ بدورها ـ أن تجأر بالشكوى من هذا التدنيس. خطأ! فثمة تقف في وجوههم النصوص التي تقرّ الملكية، والإرث، والتي تؤيد صنوف الترتب القديمة. ولكن نصوصاً أخرى تقف إلى جانبهم، وهي أجمل النصوص، وأكثرها سحراً وتأثيراً في «الكتاب المقدس»: إذهبْ، بعْ كل مالك وأعطه إلى الفقراء! لاتكنزوا لكم كنوزاً على الأرض! طوبى للحزانى الآن! طوبى لصانعي السلام! طوبى للجياع والعطاش إلى البر!

من أين يصدر هذا التضاد؟ من أن ليس في الإنجيل أدنى أثر من (يسوع)، الشخص التاريخي، الذي يعلّم مذهباً واحداً. فثمة على صعيد الأخلاق العملية (وحيان) كلاهما إبداع اجتماعي خلقته الكنائس الناشئة، وهو إبداع أعظم حيوية من أي إنسان أكثر حياة عاش على وجه الأرض.

إن أحد هذين (الإلهين) اللذين أبدعتهما جماعات متخاصمة في صورة مثل أعلى مزدوج، إنه يبغض العالَم لأن العالم سيء، ولذا فإنه يرفض بوثبة سامية واحدة المال، والأسرة، والمجتمع، وحتى حب الحياة. والإله الآخر يقبل العالَم ويؤمن بأن من الواجب لجعله عذباً أن يصار إلىاحترام الوقائع التي تجعله مستمراً. الأول (إله) الحياة الآجلة، والآخر (إله) الحياة الدنيا.

أي هذين (الوحيين) اللذين يدعوان إلى مذهبين أخلاقيين هو الأعظم؟ أحسب أن ليس بممكن التردد في هذه النقطة. إنه ذاك الذي ما زال كلامه، بعد مضي هذا العدد الكبير من القرون، يثير خفقان قلوب البشر. إنه (الوحي)

الذي قاده الحب إلى بغض العالَم والذي يتميز أتباعه المتواضعون ولكنهم متحمسون، بأنهم يزدرون بشمم جميع مشاغل الدنيا الخسيسة. ومن منا لايحلم بالمجتمعات الرائعة التي تتألق فيها الحقيقة نقية، ونقيةأيضاً العدالة، وحيث تمحّي حتى ذكرى المنافع المادية الدنيئة، وحيث يسود الحب بلا منازع، ويكون (الخير) صافياً؟ إن (الاله) الذي يظل اسمه مرتبطاً بوثبات النفوس السامية تلك، هو من أرفع الآلهة، وهو من أكثر ما أبدعت عبقرية الإنسان من ألق وإشراق. إنه اليوم، شأنه يوم وُلد، (نور)، وهو (حياة).

وعلى الرغم من أن كل شيء بإزاء هذا الألق يبدو باهتاً، فإن علينا ألا نظلم (الإله) الآخر في الإنجيل، أن ننصف القول بصدد (الوحي) الذي يقبل الطقوس العتيقة، و(المجمع)، والبحث عن الدراهم الضائعة، والثقة ببراعة صاحب المصرف، وسلطان (قيصر)، وأولوية (بطرس). والحلم يمضي بسرعة، وإلى مدى بعيد. ولكن العقل والتجربة يظهران، على نحو قاس في بعض الأحيان، أن الإسراف في الاصغاء لـ (إله) الطيور التي لاتزرع، قد يعرّض لقتل عالَم من قَبْل بناء عالم آخر. أترى بغض الحياة هو الذي يجعلها أكثر عذوبة للآخرين، ويجعلها للمرء ذاته أكثر رفعة ومعقولية؟ وها نحن أولاء جانحون إلى النظر إلى (الوحي) الثاني الذي هو، للأسف!، أقرب إلينا لأنه بوجه الدقة أدنى رفعة وسمواً.

إن العلم الحقيقي لايقلّل البتة من شأو ماهو عظيم. وإذ تظهر هذه الدراسة الانتقادية أن هذين (الإلهين) يختلطان في الانجيل فإنها لاتمس مايشكل سحر «الكتاب المقدس»، بل تستخلص حياته العميقة، وتعقده الفاتن. ففيه أثارت الروح المضطربة في عالَم قلق القوتين الكبيرتين اللتين تسودان وجدان الجماعات الإنسانية، وجعلتهما تصطدمان: من جهة أولى، المثل الأعلى الرفيع الذي يرقى برفة جناح فوق قبائح العالَم، ويثمل بنشدان العدالة المطلقة، وبالحب الكلي. ومن جهة أخرى المثل الأعلى الأكثر تواضعاً ومرونة، وهو يتساهل ويتغاضى، إبتغاء تسهيل شؤون الحياة.

إن لكل مثل أعلى أتباعه: هنا (مريم)(٦٨م) Marie تسمع وتحلم، وهناك (مرثا)(٦٩م) Marthe تعمل وتنشط.

وبين (مرثا) و(مريم)، بين الـ (يسوعَين)، لامندوحة من إندلاع صراع، هادئ أو عنيف، وهذا الصراع يرجع إلى قرون عدة خلت، ولاريب في أنه سيستمر قروناً أخرى قادمة. وهو بلا ريب أجلى مايشغل الأخلاق في الغرب المسيحي. فليأت يوم سلام يجعل فيه جهد (مرثا) الدؤوب حقيقياً العالَم الذي تحلم به (مريم)!

هوامش المترجم

(١م) الفريد لوازي (١٨٥٧ - ١٩٤٠): قس فرنسي. سُمِّيَ أستاذاً للعبرية ثم للكتاب المقدس في «المعهد الكاثوليكي» بباريز ولكنه عارض الكنيسة فأقصته من حظيرتها سنة (١٩٠٨) وقد شغل منصب أستاذ تاريخ الأديان في (كوليج دي فرانس) بين سنتي (١٩٠٩ - ١٩٣٣). عُني بتفسير الكتاب المقدس وبتاريخ الأديان وسعى إلى استخلاص قوام جميع الديانات ونجح خاصة في تعمق فكرة القربان بدءاً من ملاحظة الوقائع مباشرة. كان سيئ الظن بالفلسفة بوصفها «علماً مجرداً ذا بناء منطقي» وقد عارضها بطريقته «النفسية والتاريخية وهي واقعية النزعة ووضعية». وعنده أن العالم قوة متطورة، وقد أمل في قيام ديانة كلية أساسها مفهوم الإنسانية. وأما في مجال أسس الدين والأخلاق فقد ربط (لوازي) الإلزام بالأخلاق، والإجلال بالدين، وعندما حلّل مؤسسات الدين وتعبيراته من رموز وطقوس خلص إلى نظرية شخصية عن التطور الديني ورأى أنه يستمر في صورة إيمان بعالم خيالي يهيمن على الإنسان والأشياء (المترجم).

(٢م) جوزيف دي متر (١٧٦٣ - ١٨٢١) وُلد في (شامبرى) وتأثر في صباه بالأفكار الليبرالية والماسونية، ونظر إلى المسيحية من خلال موقف المحافل الايكوسية وكانت حياته سلسلة من المحاولات التي مُنيت بالإخفاق، وقد آمن بعجز الإرادات الإنسانية عن خلق نظام ثابت بقدرتها وحدها. وقد حكم على الثورة الفرنسية بأنها «شيطانية» ورأى ضرورة الحفاظ على العقائد الدينية. وإن وجود البابوية مرتبط عضوياً بوجود المسيحية وما الهجوم عليها إلا من عمل المادية الرامية إلى هدم الإيمان والدولة. وقد أثرت أفكاره في التيار الروحاني الفرنسي لدى أمثال (دوبونالد) وقد عُرف عنه عداؤه الشديد للديمقراطية (المترجم).

(٣م) فردريك لامنه (١٧٨٢ - ١٨٥٤). قس فرنسي ذو نشاط بارز في مجالات التفسير والفلسفة والسياسة. كتب وأخوه (جان): «أفكار عن حال الكنيسة في فرنسة في القرن ١٨ ووضعها الراهن». وأظهر أن القس لايؤثر تأثيراً قوياً في النفوس إلا إذا غادر الكنيسة واحتك بالشعب. وقد انتصر لسلطة البابوات في وجه

الكاليكانية ووضع كتاب: «محاولة في اللامبالاة بالشؤون الدينية» ورأى، على عكس (ديكارت) أن المسيحية هي على الدوام ديانة الحس المشترك. وذهب إلى ضرورة عدم فصل الكنيسة عن الدولة وسعى إلى تقريب الكنيسة من المجتمع الحديث. وقد أسس تجمعاً نصف كنسي ونصف علماني لتجديد الكاثوليكية، والتف حوله شبان مريدون غرضهم إعادة بناء علم كاثوليكي ينسجم مع هذا المذهب بالخضوع لرعاية مزدوجة: رعاية الحس المشترك وسلطة الكنيسة. وقد أثار غضب الملكية المحافظة ورجال الدين حتى أنه طرد من الكنيسة ذاتها. (المترجم).

(٤م) تنسب فرقة الجانسينية إلى كورنيلس جانسن (١٥٨٥ ـ ١٦٣٨) وهو لاهوتي كاثوليكي بلجيكي درّس في جامعة (لوفان) وحاول إصلاح المسيحية بالعودة إلى تعاليم (القديس أوغسطين). وقد أثار كتابه عن «أوغسطين» الذي نشر بعد وفاته (١٦٤٠) حركة روحية تصطبغ بالتزمت وتلحف بشكل متطرف على ضرورة رحمة الله وعطفه لهداية الإنسان. تميزت حركته بأثر كبير في فرنسة في القرن السابع عشر. وكان مركزها في (بور رويال) ومن أشهر أنصارها (أرنولد) و(باسكال) وقد اختصمت مع اليسوعية واستعان بها (لويس الرابع عشر) على البابا فاستنكرتها الكنيسة وانتهى الأمر بإغلاق (بور رويال) وفرار أنصار الفرقة من فرنسة في أوائل القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من الحرمان البابوي أسس قس (أوترخت) فيما بعد «كنيسة جانسينية» تعترف بسلطة البابا وإن أنكرت بعض الوقائع كالحبَل السري لـ (مريم) البتول، وعصمة الباباوات ومازالت الكنيسة تعتبرها حركة منشقة. (المترجم).

(٥م) اليسوعية أو «جماعة يسوع».

أسس هذه الجماعة الفارس الإسباني (اينياس دي ليولا) سنة ١٥٣٤ بعد جرحه في إحدى المعارك وعزمه على نذر حياته لخدمة الدين. وكان هدفها التبشير بالمسيحية ودعم الكنيسة الكاثوليكية. وقد اعترف بها البابا سنة (١٥٤٠) فكثر عدد أنصارها المؤمنين بنذور العفة والفقر والطاعة بالإضافة إلى عنصر رابع هو السفر للتبشير في أي مكان يحدده رئيس الجماعة والشعار المشترك هو: «لأجل مجد الله الأعظم».

نظمت هذه الجماعة صفوفها تنظيماً عسكرياً صارماً. وميزوا في تراتبهم أربع فئات: الأولى هي فئة الشيوخ Profes الذين اجتازوا جميع المراحل السابقة (وهذا يستغرق عشر سنوات على الأقل) ثم فئة المساعدين Coadjuteurs وبعضهم في الرهبنة وهم يساعدون الشيوخ في عملهم الروحي وبعضهم من الأخوة الخدم Lais وهم يقومون بأعباء صغيرة ويلي هذه الفئة فئة الفقهاء Scholastiques الذين ينصرفون إلى الدراسة والتربية ثم فئة المريدين Novices الذين يخضعون لدراسة تمهيدية خلال سنتين تليها تمارين روحية وتدرب على النظام في سنتين أخريين.

اعتمد اليسوعيون التربية لتحقيق أهدافهم واقتصروا على التعليم المتقدم من مستوى الدراسة الثانوية فالجامعية ولاسيما لأبناء الطبقات العالية لأنهم يريدون إعداد القادة الذين يسيطرون على المجتمع ويتحلون بالنفوذ. وقد أسسوا معاهد علمية شتى وأحكموا إدارتها ومراقبتها واعتنوا بانتقاء المدرسين وإعدادهم فاشتهرت مدارسهم في كل أنحاء العالم، وكانوا لايهملون سائر العلوم والفنون بالرغم من عنايتهم الخاصة بالتربية الدينية. وقد أخذ على نهجهم تقييد روح النقد والإبداع وخنق الفكر الحر وأنه لايثمر سوى مظاهر خادعة من الطاعة والنظام. وقد حفل تاريخ الجماعة بالاضطراب إذ أعقب انتصارهم في الفترة الأولى اضطهاد في بلدان شتى وأكثره ناجم عن الاعتقاد الشائع بتدخلهم في مؤامرات سياسية. يقدر عددهم بما لايقل عن خمسة وعشرين ألفاً موزعين في أرجاء العالم، يحكمهم رئيس منتخب. (المترجم).

(٦م) فولتير (فرنسوا ماري ارويت، المعروف باسم) (١٦٩٤ - ١٧٧٨) أديب وفيلسوف فرنسي. بدأ بمناقشة الأمور اللاهوتية وهو في الثانية عشرة من عمره، وسعى والده عبثاً إلى تحويل انتباهه عن الأدب. ولما هاجم (الوصي) على عرش فرنسة بعد وفاة (لويس الرابع عشر) سجن في الباستيل سنة (١٧١٧) ومن هناك اتخذ لنفسه اسم (فولتير). وعني بعد اطلاق سراحه بالمسرح ووضع سنة (١٧١٨) مأساته المسماة (أوديب) وعمد سنة (١٧٢٩) إلى ابتياع جميع أوراق اليانصيب ليحظى بأموال وفيرة. بزغ نجمه في الأوساط الأدبية واختصم مع أحد النبلاء فزجّ في السجن مرة أخرى ثم غادر الباستيل على شرط نفيه إلى انكلترة وتم ذلك بين سنتي (١٧٢٦ - ١٧٢٩) وقد أعجب بالديمقراطية الانكليزية وبالمفكرين والفلاسفة والعلماء، ونقل آراء (نيوتن) إلى فرنسة ودافع عنها وأحب عند رجوعه إلى فرنسة المركيزة (دي شاتله) ولاذ بقصرها فصار القصر كعبة المثقفين في ذاك العصر. وقد راسله منذ (١٧٣٦) الأمير. (فردريك) قبل أن يتولى العرش، وانتخب عضواً في المجمع الفرنسي، وذاد عن (الموسوعيين) وحارب رجال الدين واختصم مع (روسو) الذي تنكر للمدنية، وهاجم الديكارتية ودعا إلى الاستعانة «بمشعل الفيزياء» و«بعصا التجربة» ورأى أن مفهوم الله نافع اجتماعياً «ولو لم يوجد الله لوجب اختراعه... ولكن الطبيعة بأسرها تهيب بنا أن الله موجود». كان حر التفكير وإن كان يخشى الثورة. وقد رفض رجال الدين دفنه بحسب الطقوس المسيحية. ولكن رفاته نقلت فيما بعد إلى مقبرة العظماء (البانتئون). (المترجم).

(٧م) روسو (جان جاك) (١٧١٢ - ١٧٧٨) أديب وفيلسوف فرنسي. ولد بجنيف وقصد باريز، واتصل بـ (ديدرو) وكتب في موسوعته الجزء الخاص بالموسيقى وذهب إلى أنّ تقدُّم العلوم والفنون يفسد البشر لأن الإنسان خيّر بطبعه والحضارة أو المجتمع تفسده. ارتد إلى البروتستانتية بعد أن نبذها. ورافق (دافيد هيوم) في رحلة إلى

انكلترة ثم اختلف وإياه وعاد إلى فرنسة وصار موضع اضطهاد حكومي وترحاب في الأوساط الثقافية. وقد نادى بسيادة المجتمع التي لايمكن التنازل عنها وأكد أن القوانين لاتشرع إلا برضا الجماعة كلها، مهما كانت صورة الحكومة. وإنما الإرادة المشتركة هي التي تعبر عن الصالح العام. أما الملكية الفردية فمقدسة. ولكن من الواجب توافر قدر من المساواة الاقتصادية بين الأفراد... وقد أثرت آراؤه في مجالات الأدب والفلسفة والسياسة والتربية. واستحوذ على إعجاب (كانت) نفسه. ومن أشهر آثاره «هلويز الجديد» و«العقد الاجتماعي» و«أصل التفاوت بين البشر» و«الاعترافات» و«اميل». (المترجم).

(٨م) سان سيمون (كلود هنري كونت دي) (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) فيلسوف فرنسي، رأس مدرسة سياسية واجتماعية تعرف باسمه وتنادي بأن لكل إنسان بحسب كفاءته، ولكل كفاءة بحسب أعمالها. درس بوجه خاص الثورتين الأمريكية والفرنسية ووجد أن الثورة الفرنسية إنما عُنيت أكثر ما عُنيت بالتغيير الاجتماعي السياسي وبالاستعاضة عن النظام الملكي بنظام جمهوري ولم تتعرض بعمق للتنظيم الاقتصادي، على الرغم من أن التطور الاقتصادي يفوق بأهميته التغير الاجتماعي ومن جهة أخرى، عُني (سان سيمون) بدراسة الثورة الصناعية في انكلترة ووجد أن لامناص من انتشارها إلى بلاد أخرى. ويرى باحثون كثر أن المادية التاريخية عند (ماركس) مستمدة من آراء (سان سيمون)، أو انها امتداد لبعض جوانبها. وقد ذهب إلى أن من الواجب تحديد الدين ذاته ليسهم في التقدم. ورأى أن المسيحية تنكرت للجسد وحثت على الطاعة والخنوع والتضحية، وقد صار على الدين أن يسهم بسلطته كلها في نشأة الإنسان الجديد. ذلك أن للإنسانية مستقبلاً دينياً: ينبغي على حب الناس بعضهم بعضاً أن يصبح حقيقة ماثلة في الأرض، ضمن ديانة المسيحية الجديدة. (المترجم).

(٩م) رينان (أرنست) (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) مؤرخ وناقد وفيلسوف ومستشرق فرنسي. توفي أبوه البحّار فعُنيت به أمه وأنشأته ليصبح رجل دين. وقد اهتم بدراسة اللاهوت إلى جانب الفلسفة. وقد حثته أخته (هزييت) على العزوف عن السلك الديني والانصراف إلى العمل الجامعي. وتأثر بصديقه (مارسلان برتلو) فآمن بالعلم وبالتقدم الاجتماعي وهما محورا كتابه «مستقبل العلم». ولما سافر إلى إيطالية بدأ بالبحث عن عناصر كتابه «ابن رشد والرشدية». وقد نشر لدى عمله في «المكتبة الوطنية» «التاريخ العام للغات السامية». وقد اقترن على الرغم من غيرة أخته بفتاة بروتستانتية ليبرالية تدعى (كورنلي شيفر) وانتخب عضواً في «مجمع الكتابات والفنون الجميلة». ذهب في بعثة أثرية سنة ١٨٦٠ إلى بلاد الشام ووضع هناك كتابه الشهير «حياة يسوع» الذي نشر (١٨٦٣) وكانت أخته برفقته ولكنها توفيت في (بيبلوس) وقد شغل منذ

(١٨٦١) كرسي اللغة العبرية في (الكولبج دي فرانس) ووصف (يسوع) في محاضراته بأنه «إنسان لايضاهى» فأوقفه (نابليون الثالث) عن متابعة محاضراته. بيد أن الجمهورية الثالثة أكرمته واحتفت به. وقد انتخب سنة (١٨٧٨) عضواً في (المجمع الفرنسي) وحظي بالشهرة العريضة في حياته.

يذكر عن (رينان) أنه كان حائراً، مثل عصره، بين العلم والدين، بين الوضعية والرومانسية. رفض الإيمان بالخوارق وقاده نقد الكتاب المقدس إلى الابتعاد عن الكنيسة بإظهاره تناقضات هذا الكتاب. وذهب في تعريف الفلسفة ذاتها إلى أنها «الحصيلة العامة لجميع العلوم». وعنده أن الوضعية تستلزم روح الرهافة العقلية وخلص من نظرته إلى الأصول «العفوية» وتطورها إلى ما يشبه قانون أحوال ثلاث متعاقبة لتطور الفكر البشري: الأولى «تلفيقية» بدائية «تختلط فيها الأشياء اختلاطاً مبهماً» وهي حال جينية وليست علمية. والثانية حال «التحليل» وهي «حال علمية وليست دينية» والثالثة حال «تركيبية» وهي بآن واحد «حال دينية وعلمية».

إن تطور الشعور، على هذا المنوال، يدخل في مجال العلم والفلسفة ولكنه في نظر (رينان) يدخل كذلك في مجال «الدين الحقيقي» حين يكون الشعور عنده مرادف معنى الإله. فالله هو بآن واحد هو هذا التقدم وغايته، مثله الأعلى، بآن واحد. ولذا يقول: «إن الله كائن وسيكون». والدين هو محبة الله ومعرفته وهو يمتزج بالعلم الذي «سينفرد وحده بعد الآن بصنع الرموز».

تميز أسلوب (رينان) بجمال فني ممزوج بسخرية رقيقة وكان من أوائل المستشرقين وقد اعتنق العرقية الآرية ورأى أن العرق السامي، وهو منبع أفكار التوحيد الديني يتصف بالبساطة والوحدة وبفقدان الشعور بالفويرقات والاتسام باللاتسامح. وهو أدنى من العرق الهندي ـ الأوروبي. وقد أنكر على المسلمين فلسفتهم زاعماً أنها فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية.

حسب (رينان) في كتابه عن «حياة يسوع» أنه ينقذ عبادته من الوثنية فأراد أن يُنظر إليه بوصفه إنساناً أي شخصاً تمكن دراسته من الزاوية التاريخية بالتنقيب عن بيئته وتربيته وما روي عنه. وقد حذا في ذلك حذو المؤرخ الألماني (شتراوس) Strauss الذي نشر كتاباً بعنوان «حياة يسوع» (١٨٣٥) واعتنق المبدأ القائل: «كل شيء في التاريخ يحظى بتفسير إنساني، ولو استغلق هذا التفسير في وقت معين لنقص الوثائق الكافية». وقد سلخ (رينان) عن (يسوع) صبغته الكهنوتية، القدسية، فبدا في كتابه إنساناً يكره الدولة، والثروة، والحرب، وقد انحدر من رتبة الألوهية إلى منزلة الوجود في التاريخ. يقول: «لقد استلزمت نشأة الدين الجديد ما لايقل عن ثلاثمائة عام. ولكن أصل هذه الثورة حادث وقع في عهد (أوغسطس) و(تيبر). إذ ذاك كان يعيش إنسان متفوق استطاع بمبادهته الجريئة وبقدرته على حيازة محبة مَنْ حوله، أن يخلق

الموضوع ويرسي منطلق الإيمان القادم، إيمان الإنسانية». (المترجم).

(١٠م) فرقة غنوصية تنسب إلى مؤسسها كاربوقراط Carpocrate الذي ولد وعاش في الاسكندرية. وقد انتشرت في القرن الثاني بعد الميلاد. وكان مؤسسها يؤمن بالتناسخ وبوجود الأرواح قبل الولادة. وإنما تستطيع الروح السامية وحدها تذكر حياتها السابقة ويسعى المتدين إلى هدفه الأقصى الماثل في الاتحاد بالآلهة، على غرار (فيثاغورس) و(أفلاطون) و(ارسطو) و(يسوع) الذين حققوا هذا الاتحاد. ومن هنا يصدر ازدراء الجسد والشؤون المادية والتطلع إلى ما وراء الخير والشر يتجاوزهما. وكان أتباع هذه الفرقة يقبلون على الزواج. وقد تلاشت حوالي القرن السادس. (المترجم).

(١١م) (الانكارطية) Encartisme فرقة غنوصية أسسها (تاسيان) Tatien وهي تدين الاتصال الجنسي حتى في الزواج وتعدّه دنساً عظيماً. (المترجم)

(١٢م) مرقيون (حوالي ١٠٠ ـ حوالي ١٦٥م): غنوصي مسيحي أسس في رومه (حوالي سنة ١٤٤) جماعة من الزهاد وهو يؤمن بلاهوت ثنائي ويميز الإله المجهول، وكله صلاح، وهو بعيد عن العالم وغريب عنه، عن الإله الخالق الشبيه بيهوه عند اليهود، وهو صانع العالم وذو منزلة أدنى ولايخضع إلا لقانون العدل. وقد أرسل الإله المجهول ابنه (يسوع ـ المسيح) لخلاص البشر من الإدانة العمياء التي صدرت عن الإله الصانع وذلك لأن المادة بجوهرها شر. ولذا فإنه لم يتجسد البتة وما جسده إلا شيء ظاهر. وقد رفض (مرقيون) «العهد القديم» ورفض «العهد الجديد» كله باستثناء «إنجيل لوقا» والرسائل البولسية العشر. وأوجب على مريديه تقشفاً صارماً حتى لايسهم أحدهم في زيادة سيطرة الإله الصانع وهي سيطرة تنمو بأعمال الجسد. وبقي أتباعه في هيأة كنيسة منظمة إلىأن انتهوا بالاتحاد مع (المانوية). (المترجم)

(١٣م) ترتوليان (١٦٠ ـ ٢٢٠ أو ٢٤٥) لاهوتي مسيحي. ولد في قرطاجة لأب ضابط روماني وتنصر حوالي سنة ١٩٠ ويعتبر من كبار الذائدين عن الدين ضد الوثنية والمبتدعة. وكان يدعو إلى الصرامة الأخلاقية وحرّم الزواج للمرة الثانية وحضور الحفلات وامتهان الخدمة في السلاح... الخ واشتهر بنظريته القائلة بمادية الروح. وقد لُقّب «أبا الكهنوت اللاتيني». ومن أقواله المأثورة «دماء الشهداء بذور الكنيسة» وقوله: «إنه يقيني، لأنه محال». وقد عُزي إليه بعض انحراف عن الكاثوليكية. (المترجم)

(١٤م) أوريجين (١٨٥ ـ ١٨٥) لاهوتي مسيحي من آباء الكنيسة ولد في الاسكندرية من أبوين مسيحيين ودرس الكتب المقدسة وآثار الفلسفة الوثنية. وقد تقشّف وروي عنه أنه خصى نفسه ليستطيع تعليم النساء دون أن يقع في الغواية. نشر الإنجيل في ست صور مختلفة عبرية ويونانية لمقابلة بعضها ببعض. وقد علّم في الاسكندرية

عشرين عاماً ثم رحل إلى فلسطين وأسس مدرسة في (قيسرية) واشتهر بتفسير التوراة. ذاد عن الدين باستخدام الطريقة التأويلية وغلا في ذلك حتى عُدّ مذهبه بدعة. وقد حرص على تبيان إتفاق العقيدة المسيحية مع الفلسفة اليونانية، وكان بذلك واضع الأساس لفلسفة العصور الوسطى. أحدث أثراً كبيراً في الكنيسة الشرقية خاصة. ومن أشهر آرائه قوله بالخلاص النهائي لجميع الأرواح، وهي نظرية تعرف في الغالب باسم «البدعة المنظمة». توفي في (صور). (المترجم)

(١٥م) الدوناتيس: فرقة مسيحية ظهرت في (قرطاجة) سنة (٣١١) ونسبت إلى أحد مؤسسيها وهو (دوناتوس) Donatus. وهذه الفرقة تطلب للمسيحيين الذين «ضعفوا» أمام اضطهاد (ديوكليتوس) وسلّموا نسخهم الخاصة من الكتاب المقدس أن يعاقبوا بقسوة لم توافق عليها الكنيسة الكاثوليكية. وقداستمر تزمتهم سنوات عدة حتى خضعوا، هم و(الأرثوذكس) في القرن التالي لسيطرة (الفانداليين). (المترجم)

(١٦م) البريسيانتيس: بدعة إسبانية انتشرت في القرنين الرابع والخامس وهي تنسب إلى (بريسيليان) Priscillien القس الإسباني الذي كان أول من أعدم من المبتدعة (سنة ٣٨٥). وهذه الفرقة تعتنق تقشفاً شديداً وتمتنع عن الزواج وعن تناول اللحوم. ويبدو أن لاهوتها كان مزيجاً من أفكار غنوصية ومانوية. وقد اضمحلت حوالي سنة (٤٥٠)م. (المترجم)

(١٧م) الفريسيون: إحدى طائفتين دينيتين مهمتين لليهود في عصر المسيح. وقد ظهروا بعد فوز أسرة المكابيين بتخليص الشعب اليهودي من طغيان السلوقيين واسم هذه الطائفة يعني «المعتزلة» بسبب حرص اتباعها على جعل الديانة اليهودية بمعزل عن كل عدوى وثنية. كانوا، على عكس خصومهم (الصدوقيين)، يؤمنون بحياة أخرى وبمكان لمعاقبة الأشرار. وكانوا يتحمسون لفكرة المهدي ولكنهم بالرغم من ذلك رفضوا الاعتراف برسالة المسيح بل كانوا من ألدّ أعدائه. وكان (جوزيف) من اتباعهم. وقد أثاروا نشاطاً فكرياً وساعدوا على تطور اليهودية واستمر نشاطهم إلى حوالي سنة ١٣٥ . (المترجم).

(١٨م) القديس (يوحنا المعمدان) يعتبر أحد أنبياء بني إسرائيل أو آخرهم. وقد بشرّ بيسوع وكان ابن (زكريا) و(اليصابات) وهو ابن عم (السيدة العذراء). عاش جلّ حياته في البرية متقشفاً، يلبس ثياباً من الجلد، ويأكل الجراد والعسل. وربما كان من فرقة (الايسيين). وقد لام (هيرودوس) على زواجه من (هيرودياد) أخت امرأته فنقمت عليه وحثت ابنتها (سالومي) على طلب رأسه وحصلت على ذلك. كان يعمّد بالماء ليرمز إلى التجربة وغفران الخطيئة. وعندما تقدم (يسوع) منه ليعمده حيّاه على أنه المسيح المنتظر وأنه يبشر بوصوله بعده مباشرة. (المترجم)

(١٩م) يوحنا (القديس) أو(الرسول): أحد الرسل الاثني عشر، وإليه ينسب تأليف

الإنجيل الرابع وثلاث رسائل وكتاب «الرؤيا». كان أحد المبشرين في الجليل وهو ابن زبدي وأخ يعقوب بن زبدي. وقد لحق بالمسيح منذ أوائل دعوته ويعدّ «تلميذه المفضّل الذي انحنى على صدره عند الأوخارستيا. وقد أوصاه المسيح عندما كان مصلوباً أن يتكفل بوالدته (مريم). وكان مع (بطرس) حين جاءا في أول أحد الفصح ووجدا قبر المسيح فارغاً. ويروى أنه عاش إلى عصر (تراجان) ونشر إنجيله عندما أقام في (افسس) ويذكر (ترتوليان) أنه بعد أن نجا بمعجزة من عذاب الماء المغلي نُفي إلى جزيرة (باثموس). ـ وقد ظل الإنجيل الرابع ينسب دون تردد إلى القديس (يوحنا) حتى القرن (١٨). ثم ظهر الارتياب وكثرت المناقشات ولاحظ الباحثون أو الأناجيل المتقاربة الثلاثة الأولى تتسم بالإيجاز وبالسمة الأخلاقية في حين أن الإنجيل الرابع أكثر تفصيلاً وأعظم عناية بملكوت الله بأقل من عنايته بشخص المسيح وبأهدافه. ويبدو المسيح في الإصحاح الأول على أنه الكلمة وهو يذكّر بأفكار (فيلون) والأفلاطونية الجديدة. (المترجم).

(٢٠م) الأوخارستيا أو القربان المقدس: من أكثر أسرار العبادة المسيحية قبولاً. وهو مبدأ القداس. وقد نشأ عن عشاء (يسوع) نفسه مع حواريه في (أورشليم) ليلة تسليمه (متى ٢٤) (مرقس ١٤) (لوقا ٢٢). ويسمى «سرّ القربان المقدس» ومايزال متبعاً في جميع الكنائس المسيحية تقريباً باستثناء الكويكرز. وهو عبارة عن خبز وخمر يقدم في القداس عند الكاثوليك والأرثوذكس. تصنع الكنيسة الخبز من دقيق صاف على شكل أقراص، ويذهب المسيحيون إلى أن السيد المسيح موجود في الأوخارستيا بلاهوته وناسوته تحت أعراض الخبز والخمر وجوداً «معجزاً». (المترجم).

(٢١م) الصدوقيون Sadduceens: أحد الحزبين اليهوديين الأساسيين، إلى جانب الحزب الآخر وهو الفريسيون، في عصر (المسيح) وقبله بقرن تقريباً. ينسبون إلى حاخام يسمى (صدوق) Zadok أو إلى أسرة كهنوتية في أورشليم. وكانوا يضمون إلى صفوفهم أسراً أرستقراطية، وكانت سياستهم انتهازية يحاولون التفاهم مع الأمم الأخرى، ولاسيما (رومه). وكانوا بالرغم من ذلك محافظين يؤمنون بالشريعة الموسوية بحماسة ويعارضون أي تغيير يحدثه الكتبة. وكانت نزعتهم الهيلنية تضاد منزع الفريسيين خصومهم الألداء. وكانوا ينكرون وجود حياة آخرة وينكرون الملائكة والأرواح وينكرون المهدية أو ظهور (المسيا). (المترجم).

(٢٢م) اسكولاب: اله الطب في الميثولوجيا اليونانية. وهو ابن «ابولون» و«كورونيس» وكان في وسعه القضاء على امبراطورية (هاديس) ولذلك صعقة (تزوس). وقد أصبحت عبارة «فن اسكولاب» تعني الطب (المترجم).

(٢٣م) امبراطور روماني (٣٣١ ـ ٣٦٣). أطلق عليه لقب (المارق) لارتداده عن الديانة

المسيحية التي نشأ في أحضانها ورجوعه إلى الوثنية فعرفت من جديد ازدهاراً واسعاً في عصره. وهو ابن أخ (قسطنطين) وقد سعى إلى حرمان الكنيسة من الوضع المتميز الذي حظيت به في عهد عمه. وقد أعاد بناء المعابد الوثنية، ومارس شعائر الديانة الرومانية القديمة واعتنق الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ولما جُرح في إحدى المعارك مع الفرس زعم أعداؤه (وهو زعم باطل في الأرجح) أنه تمتم وهو يحتضر: «ستنتصر أيها الجليلي» (المترجم).

(٢٤م) القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠) أحد كبار آباء الكنيسة اللاتينية أو الرومانية. ولد في نيميديا (الجزائر حالياً) من أب روماني ظل وثنياً ومن أم مسيحية تقية وخضع في شبابه لنزوات ندم عليها فيما بعد ومنها أنه أنجب ابناً من خليلته وهو لما يبلغ الثامنة عشرة من عمره. وقد بدأ الدراسة في (قرطاجة) ثم سافر إلى (ميلانو) والتقى (بالقديس امبرواز) الذي عمّده هو وابنه في ٣٨٧/٤/٢٥ وتأثر بالأفلاطونية ورجع إلى افريقية ورقي في المناصب الدينية وانصرف إلى حرب المبتدعة ولاسيما من البيلاجيين وتميز مذهبه اللاهوتي بنزعة أفلاطونية وباعتناق مبدأ الاختيار الإلهي المسبق للمؤمنين. واشتهر كتابه «اعترافات» بأنه سيرة حياة روحية حميمية صادقة ولما ذهب قائلون إلى أن سبب انحطاط الإمبراطورية الرومانية في عصره يرجع إلى إهمال الرومان الآلهة الوثنية هبّ (أوغسطين) يدعو إلى مايسميه «مدينة الله» التي ستنهض على أنقاض العالم القديم. (المترجم).

(٢٥م) القديس توما الاكويني (١٢٢٦ ـ ١٢٧٤) لاهوتي مسيحي يُعدّ أعظم الكلاميين في العصر الوسيط. ولد في (اكينو) قرب (نابولي) وانتسب إلى رهبنة (الدومينيكان) على الرغم من معارضة ذويه. ودرس في (كولون) ثم أرسل إلى باريز حيث درس أولاً ثم غدا أستاذاً وعاد أخيراً إلى إيطالية لانشاء معهد عال جديد. وأختار (نابولي) مقراً له وقد استدعاه البابا (غريغوار) العاشر وكلفه السفر إلى (ليون) لحضور المجمع الذي يعقد لتهدئة الخلافات المحتدمة بين الكنائس اللاتينية والاغريقية. وقد سافر على الرغم من مرضه ولكنه توفي في الطريق. وقد ناضل (توما الاكويني) ضد الرشدية اللاتينية. ومن أشهر مؤلفاته مجموعتان: ١ ـ الخلاصة اللاهوتية وهي عرض شامل للعقيدة المسيحية تبين أن للمعرفة مصدرين: الوحي أي الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة ثم العقل وتمثله المذاهب الفلسفية الوثنية ولاسيما (أرسطو). ولكن هذين الأصلين يصدران كلاهما عن الله ولذا لايمتنع التوفيق بينهما. وقد جعل لكتابه الشهير ثلاثة أقسام: الأول يبحث طبيعة الله وصفاته والثاني يبحث موضوع الإنسان والثالث يدرس شخص (المسيح) ورسالته. ٢ ـ الخلاصة ضد الأمم وهي دفاع عن المسيحية بالاستناد إلى العهد القديم ضد اليهود وإلى العقل السليم، ضد المسلمين. ومازالت التومائية إلى اليوم أهم تيارات الفكر الكاثوليكي الرسمي! ومن أشهر ممثليه

المعاصرين في فرنسة (ايتيين جلسون) و(جاك مارتان). (المترجم).

(٢٦م) جاك بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤) واعظ فرنسي وكاتب. اشتهر بأنه أعظم لاهوتيي فرنسي في عصر لويس الرابع عشر. ناضل ضد البروتستانت مثلما ناضل ضد الأفكار الهدامة وهاجم (فنلون) وأتباعه القائلين بالاستسلام في الحياة الروحية. سمي معلماً لابن (لويس الرابع عشر) (١٦٧٠ - ١٦٨١) واسقفاً لمدينة (مو) وكتب مقالة في التاريخ العام وهي دراسة للتوجيه الإلهي لتاريخ البشر. وتأثر في الفلسفة بالقديس (أوغسطين) وبالقديس (توما) وبـ (ديكارت) وتميز أسلوبه بالبساطة والقوة والفصاحة. (المترجم).

(٢٧م) فرقة دينية يونانية قديمة. ولد مؤسسها (فيثاغورس) حوالي سنة ٥٨٨ ق.م في جزيرة (ساموس) الإيونية وجاب العالم القديم ويروى أنه أخذ عن الهند نظرية التناسخ. والثابت أنه نزل في ثغر (أقروطون) في جنوب ايطالية حوالي سنة (٥٤٠ ق.م) وأسس فرقة دينية علمية تشبه النحلة «الأورفية». وكان يرى أن العدد جوهر الأشياء وفيه سرّ المشابهات الكثيرة بين الأشياء والأعداد في الفلك والموسيقا.. وقياس السطوح والأشكال... كانت فرقتة تضم الرجال والنساء، وهم يعيشون معاً في ظل نظام واحد يشبه نوعاً من الماسونية. وإلى جانب تعاليمه كالامتناع عن أكل الفول وتناول ما يسقط على الأرض يرى أن الروح خالدة وأن الأرواح تعود للولادة من جديد في أجساد شتى. وكان يعظ الحيوانات ذاتها ويعدّها شبيهة بالإنسان ويدعو إلى حياة نباتية، ويرى أن أسمى ما ينبغي التطلع إليه هو المعرفة المجردة. تألب عليه الأعيان والمعارضون وهاجموا الدار التي كانت تضم اجتماع زعماء الفرقة فأحرقوها. وربما اضطر هو إلى الاعتزال في (مينابونت) حيث توفي سنة ٤٥٠ ق.م (المترجم).

(٢٨م) مسيا = المسيح أو المنقذ Mushiah أو Messie لقب يطلقه النصارى على (يسوع - المسيح) بوصفه المنقذ. وترجع هذه العقيدة إلى الاعتقاد اليهودي القائل إن (مسيا) شخصياً من سلالة الملك (داود) وهو الذي يحرّر اسرائيل من السيطرة الأجنبية ويرجع اليهود إلى فلسطين في الوقت الذي يحدّده الله وإذ ذاك تتحقق مملكة مثالية يتجلى فيها أنموذج النقاء الديني والعدالة الاجتماعية. وقد زعم عدد كبير من اليهود، في حقب متفاوتة، أن أحدهم هو (مسيا) المنتظر ومن أشهرهم (بن كوشبا) Ben Cocheba (الذي ثار ضد الرومان سنة ١٣٥م) و(دافيد الروي) D. Alroy (في القرن الثاني عشر) و(ساباتي) Sabbatti (في القرن السابع عشر). ولكن اليهود الاصلاحيين والليبراليين رفضوا هذه العقيدة. ومما يذكر أن جميع الأديان القديمة والحديثة تحفل بمن يدّعي أنه مرسل لإنقاذ قومه وقد عرفت انكلترة العقيدة (المسياوية) في فرق صغيرة ومن الأدعياء فيها: (نايلور) Naylor و(سوثكوت) Southcott و(بروزر) Brothers و(توم) Tom

و(هـ. ج. برانس) H. J. Prince و(ج. هـ. سميث بيكوت) J. H. Picott Smyth.
وهذا التطلع يذكّر بمفهوم المهدية في الإسلام. (المترجم)

(٢٩م) لوجيا (= بالاغريقية كلمات): اسم يطلق على مجموعة من الأقوال المعزوة إلى (يسوع) وقد أُدمج جُلّها في إنجيلي (متى) و(لوقا) كما يطلق هذا الاسم على طائفة من أقوال (المسيح) التي اكتشفت سنة ١٨٩٧ في (أوكزيرنكوس) في مصر في ورقة بردي يرجع تاريخها إلى ما بين القرنين الثاني أو الثالث للميلاد (المترجم).

(٣٠م) أبولونيوس التياني: أحد فلاسفة الأفلاطونية الجديدة. عاش في نهاية القرن الميلادي الأول. وقد سافر إلى الهند وعُدَّ ساحراً. وقد كتب (فيلوسترات) Philostrate في القرن الثاني (حياة أبولينوس التياني) وبالغ في امتداحه حتى رقي به إلى مصاف الأساطير. وعدّت الوثنية (أبولينوس) بطلها وقديسها الذي يعارض صورة (المسيح). (المترجم).

(٣١م) فرقة أو رابطة يهودية ظهرت في فلسطين في عصر المسيح. ويذهب أتباعها إلى أن اللذة شر، والتقشف والسيطرة على الأهواء فضيلة. وكانوا يعيشون عيشاً مشتركاً في المدن أو الريف، ويحيون في بعض الأحيان حياة بداوة. التقوى والصلاة وقراءة التوراة شغلهم الشاغل. وقد كانوا يتنسكون ويستحمون بالماء البارد ويمتنعون عن الاتصال الجنسي ويتمسكون بالسبت ويرفضون حمل السلاح ويتميزون بدأب على العمل. ويترتب على من يريد الإنتماء إلى جماعتهم أن يرضخ لاختبارات قاسية. وكانوا يؤمنون بخلود الروح، وبعقاب الأشرار الأبدي، وكانوا يؤمنون (بالمسياوية) ويبدو أن نصوص البحر الميت من آثارهم. وقد فرض باحثون أن (يوحنا المعمدان) كان من أتباعهم). (المترجم)

(٣٢م) عاش (فيلون) بين حوالي سنة (٢٠ - ١٠ ق.م) - (٥٠م) وهو فيلسوف يهودي ولد في الاسكندرية ولقي تعليماً رفيعاً في العلوم الإغريقية واليهودية. زار (رومه) ليصرف الإمبراطور (كاليكولا) عن عزمه على إرغام اليهود على منحه البركة الإلهية. وعلى الرغم من معرفته العميقة بالفلسفة اليونانية فقد ظل يهودياً، وظل كثير من آثاره تهدف إلى تفسير اليهودية للقارئ اليوناني. يعتقد (فيلون) أن الفلاسفة الإغريق أخذوا عن (موسى) بعض أفكارهم الأساسية. وقد فسّر «العهد القديم» تفسيراً مجازياً. وعنده أن الله روح محضة، وأن ثمة قوى الهية متعددة، ويرى أن الشياطين أو الملائكة تنفّذ أوامره. أما أرفع هذه القوى فهو اللوغوس، أو العقل الإلهي، الابن المولود الأول لله، والملاك الأول لكل وحي، والكلمة المبدعة. وقد خلق الله باللوغوس، أو العقل الإلهي، الابن المولود الأول لله، والملاك الأول لكل وحي، والكلمة المبدعة. وقد خلق الله باللوغوس وبسائر القوى الالهية، خلق عالَم المادة

الجامدة. وللإنسان أصل مزدوج: فمن جهة أولى، الروح المحضة، وهي تتطلع إلى الأعلى، نحو الله. ومن جهة أخرى الجسد، وهو سجن، لحد، قبر الروح التي تريد الإفلات منه. إن هدف الإنسان الفاضل هو الخلاص من روابط الجسد حتى يتحد بالله. ويرى باحثون أن الموت يحقق تلك السعادة، ولكن جلّ الناس ينبغي أن يعيشوا تجارب أخرى في سلسلة من العودة إلى التجسد. وقد آمن (فيلون)، متأثراً بالفيثاغوريين، بتناسخ الأرواح. وأكثر ما وصلنا من آثاره شرح للكتب الخمسة الأولى من «العهد القديم». (المترجم)

(٣٣م) عاش (أبيقور) Epicure، مؤسس الأبيقورية بين سنتي (٣٤١ - ٢٧٠ق.م) وكان أبوه معلماً في أثينة وأمه ساحرة تعزّم في المنازل مدعية التطهير والتطبيب. وكان (أبيقور) يرافقها في صغره وربما كانت سبب نفوره من السحر والكهانة وثورته على الديانات والاعتقادات الخرافية. درس الفلسفة في سن مبكرة وافتتح سنة (٣٠٦) ق.م في أثينة مدرسة ظل يعلم فيها حتى وفاته. وكان تلاميذه ومريدوه يرعونه حتى وفاته وقد احتمل آلاماً شديدة بشجاعة نادرة. فاعتبروه «إلهاً» جاء العالم بوحي جديد. وكانوا يكرمون ذكراه تكريماً دينياً، ويعيشون فيما بينهم عيشاً جاداً تربطهم أواصر صداقة قوية وإخلاص مفرط جعل «حديقة أبيقور» مضرب المثل. (المترجم).

(٣٤م) على عكس الأبيقورية، لم تكن الرواقية، من صنع رجل واحد. وقد أسسها في أثينة الفيلسوف (زينون) وخلفه (كليانت)، و(كريزيب) ولما انتقل نشاطها إلى رومه بزغ نجم (شيشرون) و(سنيكا) و(ابيكتيت) وحتى الإمبراطور (مارك أوريل). ويمتاز الرواقيون بإيمانهم باله جسماني قوامه النار الإلهية التي تؤلف وحدة الكون العميقة وهذا الكون ذاته ينقسم داخل الكائنات الجزئية انقساماً لانهائياً. والرواقيون يؤمنون بنظرية العود الأبدي وأن الفضيلة هي الخير الوحيد وهم يدعون إلى أخوة الناس كافة وبعضهم يؤمن بحياة آخرة. (المترجم)

(٣٥م) عاش (أفلاطون)، الفيلسوف المعروف بين سنتي (٤٣٧ - ٣٤٨ ق.م). وقد ولد في أثينة من أسرة عريقة في المجد والنسب، وكان يرقى بنسبه الأرستقراطي إلى الإله (بوزيدون) وقد لقبه أتباعه بـ «افلاطون الالهي» وقال بعضهم أنه ابن (ابولون). وكانت ثقافته رفيعة ولعله خدم في جيش أثينة في أواخر حرب (بيلوبينز) درس على (سقراط) من (٤٠٧ - ٣٥٩ ق.م) وأصبح من العسير فصل ما وردنا من آرائه عن آراء معلمه. ولما أعدم (سقراط) سافر إلى (ميغاري) و(قورينا) و(مصر) وآسية الصغرى وعبثاً حاول تحقيق أفكاره السياسية المثالية في جزيرة (صقلية)، وكاد مرة أن يُقتل ثم انقطع للتدريس في أكاديميته حتى توفي عن عمر يناهز الثمانين عاماً.

لم يصلنا من تعليم (أفلاطون) الخاص بتلاميذه، وهو تعليم مكتوم عن غيرهم، إلا

ماذكره (ارسطو). وجلّ ما لدينا من أفكاره كان تعليماً عاماً وعلنياً. وهو لم يعرض مذهبه عرضاً منهجياً. وأساس فلسفته نظرية «التوليد»، أي البحث عن الحقيقة بسلسلة من الأسئلة والأجوبة. وقد ردّ على المغالطين وطلب أن نتفلسف بكل نفوسنا وجاء بنظرية المثل الشهيرة القائلة إن الحقائق الخالدة موجودة من حيث هي في النفس، ومتصورة بالعقل الصرف لايدركها إلا الفيلسوف المؤيد بصفاء النفس وبالإلهام وبتجاوز المحسوس المتبدل إلى مقاله الخالد وفي طليعة هذه المثل نجد مثل الحق والجمال والخير، والخير يشغل المنزلة الرفيعة الأولى، وهو الله. وفضيلة الإنسان هي التشبه به. ويرى (افلاطون) أن الأشياء كلها تصدر عن الله، ولكن الله لم يخلق العالم الحسي مباشرة، بل إن الهاً أدنى هو (الصانع) أو (المدبر) Demiurge هو الذي نظم الكون إنطلاقاً من مادة لاشكل لها وهي موجودة من قبل والصانع يشكّلها بحسب أنموذج قديم متعالٍ في وسعه أن يستشفه في (الروح الالهية). وهذا الصانع اله أدنى محدود والشر هو مقاومة المادة لفعله (المترجم).

(٣٦م) الناصريون أو النصارى (نسبة إلى الناصرة) اسم فرقة يهودية ـ مسيحية نشأت في بلاد الشام في القرن الرابع الميلادي ويعترف أتباعها بالوهية (المسيح) ولكنهم يتقيدون بالشريعة الموسوية. ويطلق اليهود والمسلمون على المسيحيين اسم النصارى أو النصرانيين نسبة إلى (يسوع) الذي هو من الناصرة (ناصري). (المترجم)

(٣٧م) تزوس: الإله الأعلى في اليونان القديمة. وهو (أب) البشر و(المخلّص) وينعت أحياناً بأنه (أولمبي) لأن اليونان يتصورنه حياً وسط سائر الآلهة ووسط الغيوم التي تكلل ذرورة جبل الأولمب. وتروي الأساطير أنه ابن (كرونوس) و(ريها). وكان (كرونوس) يلتهم أبناءه ولكن (ريها) أخفت ابنها (تزوس) في (كريت) حيث غذته ماعزة ثم لما كبر خلع أباه عن عرشه وعلى الرغم من زواجه بـ (هيرا) فقد اتصل بمغامرات أخرى مع آلهات ونسوة من البشر. إن (تزوس) هو واهب النصر وهو يحدّد الخير والشر وهو المشرّع الأسمى والذائد عن الأسرة والدولة وحامي الملكية وحارس الحرية. ولاتحد قدرتَه سوى قرارات (القدر). ويمثله النحاتون في صورة رجل ذي لحية وهو يحمل الصاعقة ومجناً من جلد الماعز. والرومان يوحّدون شخصه بـ (جوبيتر). (المترجم)

(٣٨م) أفروديت الهة الحب والجمال والإخصاب عند اليونان. والرومان يوحدونها مع (ڤينوس) وهي تشبه (عشتار آلهة الحب السورية. ويحكي (هومير) أنها ولدت من زبد البحر وهي ابنة (تزوس) من (ديونا) وزوجة إله الحدادة (هيفاستوس) وأم (ايروس) أو (كوبيدون) الذي يجسد الحب الذكري. وقد عبدها الاغريق في صورتين: صورة (افروديت اوراني) أو «الهة السماء» وهي تنجب الخصب من زواج السماء بالأرض. وصورة (افروديت بانوموسى) أو «الهة جميع البشر» وهي ترعى

الزواج وحياة الأسرة. وكانت الاحتفالات بعيدها تزدهر في الربيع ويمثلها الفنانون في صورة امرأة بارعة الجمال والجاذبية، وهي تثير شهوة الرجال والنساء، وكانت أنموذج الجمال النسائي ومن تماثيلها الشهيرة (فينوس ميلو). (المترجم).

(٣٩م) ـ بالاسي: أحد اسماء اثينه، وهو تمثال أثينه المسمى (باللاويوم) وكان الإغريق يعتقدون أن من الممتنع إخضاع طروادة المحاصرة مادام هذا التمثال فيها. (المتارجم).

(٤٠م) ديونيزوس: اله الخمر والاخصاب عند اليونان. وإليه تنسب نشأة أغاني الجوقة والمسرح على اختلاف أنواعها. وهو ابن (تزوس) من (سينيله) كان ضحية غيرة (هيرا) وهو الإله الوحيد الذي لم يولد من أبوين إلهيين. وُلد (ديونيزوس) أو (باخوس) من النار مثل الحرارة الشيدة التي تنضج الكرمة وترعرع في ظل الماء الذي يحفظ النبات من الموت. وهو الذي علّم البشر صناعة الخمر وأسرار ديانته. (المترجم).

(٤١م) اتيس: اله سكان فريجيا القدامى في آسية الصغرى. وهو ابن (نانا) البنت العذراء لاله الأنهر. وقد حملت به حين أدخلت في أحشائها لوزة ناضحة وقد نشأ (أتيس) راعياً فأحبته (سيبل) ويقال إن خنزيراً برياً قد قتله، شأنه شأن (أدونيس). وتروي حكاية أخرى أنه جرح نفسه ونزف حتى الموت فتحول إلى شجرة صنوبر، ولما دخلت عبادته إلى الغرب مع عبادة (سيبل) عُرف عن أتباعه أنهم كانوا يخصون أنفسهم كما كانوا يُعمدون بدم ثور. وقد أدخل الإمبراطور (كلود) إلى الديانة الرسمية عبادة الصنوبرة المقدسة مصحوبة بحفلات داعرة. (المترجم)

(٤٢م) إيزيس: أشهر معبودات المصريين القدامى. كان وطنها الأصلي في الدلتا ولكن ديانتها عمت مصر القديمة كلها وكانت هي أخت (أوزيريس) وزوجته المخلصة ووالدة (حوروس)، وهؤلاء الثلاثة يشكلون الثالوث الأساسي المعبود في مصر. ثم أصبحت أسرارها ديانة من أكثر الديانات الشعبية شهرة في العالم الروماني. إن (إيزيس) هي ربة السماء التي تلد ابنها (حوروس) اله الشمس كل صباح. وعلى مرّ الأيام أصبحت (ايزيس) رمز (الأم) و(الزوجة) و(المرأة الكاملة). ولعل السمات الرئيسة التي توصف بها (السيدة) مستمدة منها. ويرى (فرايزر) Frazer أن بين ديانة (ايزيس) والكاثوليكية شبهاً كبيراً من حيث الظاهر على الأقل. من ذلك أبهة الطقوس، وحلاقة رأس الكهان وذقونهم، والموسيقى، ورشّ الماء المبارك، والعماد والمواكب وصور «الأم الإلهة»، مع فارق أن ديانة (ايزيس) باطنية والكاثوليكية ديانة علنية. (المترجم)

(٤٣م) ميثرا: اله الإيرانيين والهنود قبل ظهور الزرداشتية. ومعنى الكلمة هو النور، والضياء، والحب، والعهد، والميثاق. وتذكر الأسطورة أنه نحر ثوراً مقدساً في غار. ويبدو (ميثرا) في (الفيدا) على أنه نور السماء، وفي الـ (افستا) على أنه اله الحرب

الذي يساعد (هرمز) في صراعه الأبدي للدفاع عن النور. وعندما هُزمت الإمبراطورية الفارسية انتشرت عبادة (ميثرا) في بلاد البحر الأبيض المتوسط ولاسيما في الإمبراطورية الرومانية حيث كانت أوسع انتشاراً من المسيحية في القرن الثاني للميلاد. وتروي الأسطورة أن (ميثرا) ولد في صورة إنسانية من صخرة (أو في كهف) وكان أول من عبده هم الرعاة. وقد أحدث معجزات شتى وأخصب، بدم الثور الذي نحره الأرض ثم صعد إلى السماء في آخر المطاف حيث يقطن مع الخالدين. ولكنه، على الرغم من ذلك، فإنه متأهب لنجدة من يثقون به ولمكافأتهم. كان أتباعه يحتفلون بعبادته في كهوف طبيعية أو صنعية. وكان على المريد أن ينجح في سبع اختبارات لكل منها اسم رمزي: الغراب، المكتوم، الجندي، الأسد، الفُرْس، رسول الشمس، الأب. وكان تناول الخبز والماء (وربما الخمر) يجري جماعةً. وكا المنتمي الجديد يعمد بدم حَمَل أو ثور لدى ذبحه بحيث ينسكب الدم على جسده العاري. ويؤمن اتباع (ميثرا) بأن الحياة الدنيا باب الحياة الآخرة حيث الغبطة الأبدية. وفي القيامة يبعث الأموات كافة من قبورهم لدى نداء (ميثرا). فالذين أحسنوا صنعاً في الحياة يرقون إلى السماء، والأشرار يُقذفون في الظلمات. وكان يوم الأحد هو اليوم المقدس كما أصبح لدى المسيحيين ويوم الخامس والعشرين من كانون الأول هو يوم ولادة (ميثرا). ويذهب باحثون إلى استشفاف شبه شديد بين الميثرية والمسيحية (المترجم)

(٤٤م) ادريان: امبراطور روماني عاش بين سنتي (٧٦ - ١٣٨) وحكم من (١١١) إلى (١٣٨) وقد ولي بعد (تراجان) وذاد عن حدود الامبراطورية في وجه البرابرة وقد ولد في اسبانية وتوفي أبوه في حداثته ورعاه (تراجان) في قصره بروما. وقد اتبع سياسة سلمية دفاعية في أرجاء الامبراطورية باستثناء فلسطين حيث بنى معبداً لـ (جوبيتر) في بيت المقدس على أنقاض معبدها المتهدم وأطلق على المدينة اسم (ايليا كابيتولينا) فثارت ثائرة اليهود (١٣٢ - ١٣٥) فأخضعهم بقسوة وأصبحت بلادهم تعرف منذئذٍ باسم سورية الفلسطينية. وقد اشتهر بأنه نشر «المرسوم الدائم» وهو أول مجموعة قانونية يمكن تطبيقها في جميع أرجاء الامبراطورية. (المترجم)

(٤٥م) نيرون (كلاوديوس قيصر): عاش بين سنتي (٣٧ - ٦٨) وحكم بين (٥٤ - ٦٨) تبناه (كلاوديوس) ولما خشي أن يستولي (بريتانيكوس) على العرش عندما يكبر فعمل على دسّ السم له وهو صبي. وبعد أن اعتلى العرش اتخذ (بربايا سابينا) خليلة وكانت زوجة أحد أصدقائه. وقد اتسمت تصرفاته بالوحشية التي أصبحت مضرب المثل إذ قتل أمه، ثم زوجته (أوكتافيا) وأرغم (سينيكا) الفيلسوف على الانتحار وينسب مؤرخون إليه تبعة حريق رومه الكبير (سنة ٦٤) ولكنه وجّه التهمة للمسيحيين وشرع باضطهادهم وأعاد بناء المدينة على نمط فخم جميل. وكان يعتبر

نفسه فناناً مبدعاً، وقد وقعت ضده ثورات عدة. (المترجم)

(٤٦م) منطقة اغريقية تقع في شمال شبه جزيرة (بيلوبينز) (المترجم)

(٤٧م) اميل برهيه (١٨٧٦ ـ ١٩٥٢) مؤرخ الفلسفة وفيلسوف فرنسي. نشأ في أسرة من الجامعيين ودَرس في جامعة باريس على (فيكتور بروشار) و(لوسيان ليفي ـ برول) وقام بتدريس الفلسفة وتاريخ الفلسفة في جامعات (رين) و(بوردو) و(باريز) حتى سنة ١٩٤٦ .

من آثاره المهمة كتاب: تاريخ الفلسفة وقد نشر في سبع مجلدات بين سنتي (١٩٢٦ ـ ١٩٣٢) وهو من المراجع الأساسية إذ شمل أصول مذاهب الفكر الغربي منذ القدم حتى الربع الأول من القرن العشرين وجمع بعمق بين وجهتي نظر الفلسفة وتاريخها. وعُني الأستاذ (برهيه) بوجه خاص بالفلسفة اليونانية وخاصة الرواقية والأفلاطونية ـ الجديدة مثلما عُني بالفلسفة الألمانية وقد عرضها عرضاً منهجياً ونشر عن (شلنغ) دراسة وافية). وعنده أن لا غنى عن تاريخ الفلسفة لمعرفة الفلسفة ذاتها وعلى هذا النحو يبدو التاريخ وهو مجال الزمني من حيث أنه يتطلع إلى اللازمني وإن الفلسفة لتبحث في ماضيها عن حاضرها السرمدي (المترجم).

(٤٨م) هيلل: (حوالي ١١٠ ق.م ـ ١٠م).

حاخام شهير. ولد في بابل وسافر إلى أورشليم حيث شغل منصب رئيس (المجمع) سنة ٣٠ ق.م. وكان بطبعه شديد التسامح محباً للسلام: وكان خصمه اللدود الحاخام (شاماي) Shammai الشديد التزمت وقد كتب «القاعدة الذهبية». ويعدّ (هيلل) أحد رؤساء الفريسيين وقد أسس مدرسة الـ (تنايم) أو السادة (المعلمين). (المترجم)

(٤٩م) هم سكان (ايلوزيس) Elusis وهي مدينة يونانية قديمة قرب (أثينة) اشتهرت بمعبدها المقام لعبادة الإلهة (ديمتر) وهي عبادة ذات أسرار يضمون فيها إلى الإلهة (ديمتر) ابنتها (برسيفون). وترمز الأسرار إلى موت حبة القمح وبعثها مثلما ترمز إلى موت الروح البشرية وبعثها. وكانت معظم الطقوس تجري في غرفة مظلمة تنيرها على فواصل، أنوار ترمز إلى الأمل. (المترجم)

(٥٠م) سيبيل: الهة فريجيا القديمة ومناطق أخرى من آسية الغربية. كانت هي (الأم الكبرى)، (أم الإلهة)، وهي آلهة (الطبيعة). وكانت عبادتها مصحوبة بحفلات داعرة تعكس القدرة المنسوبة لها على الاخصاب. وتروي الأسطورة أن هذه الإلهة كانت خليلة (اتيس)، وأن لهما عبادة واحدة، وكان كهنتها يخصون أنفسهم اقتداء بـ (اتيس). وقد كانت تعبد في صورة حجر صغير أسود لها ظاهر يشبه القضيب. وقد ذاعت هذه العبادة فيما بعد في رومة سنة ٢٠٤ ق.م ونقل الحجر من (فريجيا) إليها ويزعم أن المركب الذي كان يحمل الحجر ما أن رسا في نهر (التيبر) حتى

وجهت امرأة رومانية الحجر المقدس بنطاقها في المرفأ. وقد أصبحت عبادة (سيبيل) من ديانات الأسرار الأساسية في العالم الروماني. (المترجم)

(٥١م) أوزيريس: أكبر آلهة مصر القديمة ويعرف بـ «ملك الخلود»، سيد الآلهة، سلطان الآلهة والناس، اله الآلهة، ملك الملوك، سيدالسادة، أمير الأمراء، حاكم العالم، سرمدي الوجود. كانوا يعدونه إنساناً تألم ومات ودُفن ولكنه بُعث ليدخل السماء حيث يسود إلى الأبد. وقد كان يمنح البشر الأمل الثابت والرجاء اليقيني بالبعث وبأن يحيا المرء بعد الموت بجسده الأرضي، ولذا كانت هذه العقيدة منطلق تحنيط المومياء. ويرى الكهنة المصريون أن (أوزيريس) كان يحكم دلتا النيل في فجر التاريخ، وكان يعلّم شعبه فنون الزراعة وتنمية الكروم وكان يشرّع القوانين ويقيم الدين الحقيقي ويحكم بالخير والحكمة. وكان له أخ توأم هو (ست) set وهو شرير بقدر إتصاف (أوزيريس) بأنه صالح. وقد قرر (ست) اغتيال (أوزيريس) والاستيلاء على المملكة والزواج من امرأة أخيه، وهي أختهما (ايزيس). ونجح في قتل (أوزيريس) ولكن الملكة (ايزيس) اكتشفت بوسائل سحرية جثة زوجها القتيل وكان (ست) ألقاها في النيل. فدفنتها مؤقتاً في آنية وبحثت عن ابنها (حورس) وفي أثناء غيابها عثر (ست) على الجثة فقطّعها أربعة عشرة قطعة وألقاها في مهب الريح. ولكن (ايزيس) اكتشفت ذلك وجمعت كل القطع باستثناء الأعضاء التناسلية (التي أكلتها الأسماك) وعملت على أن يدفنها أحد الكهنة بإجلال في أمكنة مختلفة. وبعد أن رممت (ايزيس) قطع الجثة قام (أوزيريس) من موته وأصبح ملك العالم. وتحدى (حورس) عمه (ست) وهزمه في القتال وخُصي (ست) وحكم (أوزيريس) العالم وله اثنان وأربعون مساعداً. وثمة (قاعة الدينونة) التي يؤتى إليها في العالم الآخر بالأموات فيحكم عليهم في حضرة (أوزيريس) ومساعديه ومن فاز منهم ولج على الفور إلى السماء الأوزيريسيه حيث يعيش السعداء في غبطة أبدية وهم يلبسون الثياب الناعمة والأحذية ويأكلون الخبز الذي لاييبس أبداً ويشربون الخمر الذي لايفسد أبداً. (المترجم)

(٥٢م) ولد الأستاذ (ليون روبان) في نانت سنة ١٨٦٦ ودرّس في السوربون من (١٩١٣ - ١٩٣٦)واشتهر بدراساته في تاريخ الفلسفة القديمة وتوفي في باريز ١٩٤٧ (المترجم)

(٥٣م) عبادة سرية من اليونان القديمة تنسب إلى (أورفه) Orohee ظهرت في القرن السادس ق.م. ويحكى أن (أورفه) ابن ملك (تراقيه) أو ابن (ابولون) من أم هي ربة شعر. وقد برع بالعزف على العود حتى طربت لعزفه البهائم والسباع وحتى الأشجار والأنهار. وقد نزل إلى (هاديس) ليلقى زوجته الحبيبة (أوريدس) التي لسعتها أفعى فماتت. وقد استطاع بموسيقاه استعطاف آلهة الجحيم فسمحت له باسترجاع زوجته

شريطة أن تسير خلفه وألّا ينظر إلى الوراء! ولكن (أورفه) أحب التأكد من أن زوجته تتبعه فنظر إلى الخلف فعادت زوجته ظلاً على الفور. وعلى هذا فقد رجع (أورفه) وحده إلى العالم وهو مشمئز من الوجود وصممّ على ألا يتصل بالنساء فنقمت عليه نساء (تراقيه) وقتلنه. وفي الحكايات المتأخرة يمثل (أورفه) رحالة يتطلع إلى المعرفة تطلع حكيم وساحر وفلكي ورسول حضارة وتمدين. ولكن أتباعه المؤمنين به يرون أنه يتميز بسفره إلى ماوراء العالم وعودته سليماً معافى. ويرى فريق من أنصاره أن الإنسان مؤلف من نصفين الأول إنسان والآخر اله، وأن من أراد الخلاص من العنصر الأرضي في كيانه وجب عليه أن يُعنى بالعنصر الروحي حتى يتم اتحاده بالاله. ومن هنا يترتب على (الأورفيين) الزهد واجتناب أكل اللحوم والامتناع عن شرب الخمر إلا عند القداس وعليهم أن يتطهروا بأجسادهم ولايلبسوا سوى الثياب البيضاء لدى احتفالهم بتمثيل موت الاله وبعثه من جديد. وقد أسس (الأورفيون) جماعات تقبل الرجال والنساء على السواء ممن أتم مراحل الإطلاع. ويرى بعض المؤرخين أن هذه الجماعات نوع من طوائف رهبانية يرتبط أفرادها بإيمان صوفي بوجود حياة آخرة. وقد وضعوا كتابات في لوائح صغيرة ذهبية يذكّر مضمونها بـ «كتاب الموتى» لدى المصريين القدامى. وقد انتشرت بسرعة فائقة في اليونان وإيطالية الجنوبية وصقلية وظل بعضها موجوداً حتى في العصر المسيحي وقد تكون ذات تأثير في نمو اللاهوت المسيحي. (المترجم)

(٥٤م) عاش (أبوله) بين سنتي (١٢٥ - ١٨٠) وهو فيلسوف لاتبنى أفلاطوني النزعة. وضع رواية بعنوان التناسخ أو الحمار الذهبي وصف فيها شخصاً تحول إلى حمار وهو يعرف قصصاً مسلية. ويذكر الحمار أنه دنا من مملكة الموت وعرف أن الموت والبعث الرمزيين وقف على الحفلات الدينية وهما يفسران بأسرار (ايزيس) وأن الاطلاع على هذه الأسرار يتيح للإنسان ولادة جديدة بعد الانتحار. (المترجم)

(٥٥م) إلهة جميلة عند اليونان ترمز لتجدد الطبيعة في الربيع بعد خدرها الشتوي. وكانت أعيادها تدخل في احتفالات الأسرار. (المترجم)

(٥٦م) (فرجيل): عاش بين سنتي (٧٠ - ١٩ ق.م) وهو أعظم شعراء الرومان. كان أبوه مزارعاً عني بتربية إبنه وتعليمه في ميلانو ونابولي وروما كما علمه الفلاحة معه عشر سنوات وأقام في رومه سنة (٤١ ق.م) وأخذت شهرته تذيع بنظم أشعاره الرعوية وديوانه عن الزراعة، وقد تأثر فيهما بالشاعرين (تيوقريطس) و(هزيود). وأما ملحمته (الأنيادة) فهي من أروع مؤلفاته وقد قلّد فيها الألياذة والأوديسة. (المترجم).

(٥٧م) اسم عرّافات في التاريخ القديم اليوناني أو الروماني وهي تستمد الوحي من (ابولون) أو من آلهات أخرى. وأشهرها (سيبيل دي كوم) التي يظن أن كهفها قد اكتشف سنة ١٩٣٢ وقد باعت آخر ملوك رومه ثلاثة كتب من التنبوءات التي تجعل

من الممكن اتخاذ السبل المؤدية إلى استرضاء الآلهة عندما يحل بالوطن خطر كبير. (المترجم).

(٥٨م) سينيكا ولد حوالي سنة ٣ ق.م وتوفي سنة ٦٥ م. فيلسوف رواقي من أصل إسباني على تربية (نيرون) الذي قربه ثم اتهمه بالتآمر وأمره بالانتحار فأطاع الأمر وقطع شرايينه. وكتب في الأخلاق والفلسفة رسائل ومسرحيات منها «أوديب» و«أغا ممنون» وكلها مقتبسة أو مستمدة من المسرحيات اليونانية. وقد ذاعت في عصر النهضة الأوروبي وأعجب مؤلفون مسيحيون بأفكاره الأخلاقية الرفيعة. وقد قامت بينه وبين القديس (بولس) مراسلات حتى أن بعض آباء الكنيسة يذهبون إلى أنه اعتنق المسيحية. (المترجم).

(٥٩م) (ابيكتيت): فيلسوف رواقي روماني اشتهر حوالي سنة ١٠٠م وقد وُلد في آسية الصغرى ولكنه عاش عبداً في رومه إلى أن أعتق عندما كبر. وقد جمع تلميذه (اريان) Arrien دروسه وحفظها في مجموعة تدعى «الكتاب». و«ابيكتيت» يقول: هناك كلمتان لا مناص لمن أراد الإفلات من ميوله السيئة وتأمين حياة هانئة من أن يعيهما وهما: «تحمل وامتنع». (المترجم).

(٦٠م) يوربيد: شاعر مسرحي اغريقي. عاش بين سنتي (٤٨٠ - ٤٠٦ ق.م) واشتهر بتطويره المسرحية المأساوية بابراز التحليلات النفسية والأفكار العلمية والنفسية وعنايته بالموسيقى وبالاخراج. ومن أشهر مسرحياته (السست) و(أندر وماك) و(الكترا) الخ. (المترجم)

(٦١م) بلوتارك: مؤرخ وناقد يوناني. عاش بين سنتي (٤٦ - ١٢٠) وقدزار مصر وإيطالية. أثينه ثم عاد إلى وطنه (بيوتيا) حيث أصبح كاهن معبد (دلفي) ووضع كتاب «حيوات متوازية» وتعرض في كل فصل للكلام على شخصيتين إحداهما يونانية والأخرى رومانيةمع موازنة مفصّلة بينهما. وقد نجح في تحليل شخصياته وكان من أعظم كتّاب السير والتراجم في العالم القديم إلى جانب اهتمامه بالأخلاق. (المترجم).

(٦٢م) الطيطان أو العمالقة. - نسبة إلى طيطان وهو ابن (أورانوس) و(هستيا) وأخ (كرونوس) وأب العمالقة. تنازل عن السماء لـ (كرونوس) وأنجب الطيطان أبناءه وأحفاده وعددهم اثنا عشر: ستة من الذكور، وستة من الاناث،وهم يناضلون ضد (تزوس) الذي يلقي بهم على الجحيم في درك الأرض. المترجم

(٦٣م) نسبة إلى (أفسس) Ephese وهي مدينة يونانية في آسية الصغرى اشتهرت بمعبدها الخاص بعبادة (ارتميس) ويعتبر من أجمل المعابد الاغريقية وهو أحد عجائب الدنيا في العالم القديم. وقد زار القديس (بولس) أفسس وأسس فيها كنيسة منذ عام ٥٤ م وفيها عُقد فيما بعد مجمع أدان النسطورية وذلك عام ٤٣١ م (المترجم).

(٦٤م) أحد الكهان في عبادة (اتيس). (المترجم).

(٦٥م) خطيب يوناني عاش بين حوالي سنة (١٧٠) حتى ٢٤٥ ميلادية وقد رحل إلى روحه وحظي بمنزلة رفيعة لدى الأمبراطورة (جوليا دومنا) والدة (كاراكالا). وكان سوري الأصل، يعنى بالتأملات الدينية والميتافيزئية وقد وضع كتاباً عن حياة (أبولينوس التياني) كما وضع كتاباً آخر بعنوان: حياة المغالطين. (المترجم)

(٦٦م) قسطنطين الكبير: امبراطور روماني جعل المسيحية ديانة الدولة. ولد سنة (٢٧٤) وهو ابن الامبراطور (كونستانس) وقد توّجه الجند بعد وفاة أبيه سنة (٣٠٦) وأصبح بعد سنتين أحد امبراطورين يحكمان الامبراطورية آنذاك ثم أصبح سنة (٣٢٣) وحده سيد العالَم الروماني. وهو يؤكد أنه رأى في السماء، قبيل انتصاره الأخير، صليباً من نار مصحوباً بكلمات اغريقية معناها: «بهذه العلامة ستنتصر». فاتخذها رمزاً. وقد نشر رسوم التسامح مع المسيحيين ورأس مجمع (نيقيه) سنة (٣٢٥) ولكنه لم يعمد إلا قبيل موته وقد توفي سنة (٣٣٧). (المترجم)

(٦٧م) أول شماس مسيحي وأول الشهداء الذين قتلهم اليهود كما جاء في سفر الأعمال (٦ - ٧) (المترجم)

(٦٨م) بالعبرية (مريم) وباليونانية (ماريا) أو (ماريان) - وبالفرنسية (ماري): أم (يسوع - المسيح). ويطلق عليها الكاثوليك اسم البتول (ماري) أو القديسة (ماري) أو (السيدة). ولايتحدث «العهد الجديد» عن حياتها بالتفصيل. يقول القديس (متى) إنها تزوجت من (يوسف) وحين اكتشف أنها حامل حاول خلعها ولكن ملاك الرب أعلمه أن هذا الحمل ناجم عن الروح القدس. وقد امتنع (يوسف) عن الاتصال الجنسي بها بعد الزواج حتى ولدت ابنها الأول (يسوع). ويشرح القديس (لوقا) تفاصيل البشارة التي جاءت لـ (ماري) نزل بها الملاك (جبريل) الذي التقى بها وبابنة عمها (اليصابات) والدة القديس (يوحنا المعمدان). ويصف القديس (يوحنا) مرحلة عرس (قانا) التي حضرته (ماري). ويذكر أيضاً أنها كانت بين النسوة اللواتي وقفن على عتبة الصليب عند الصلب، وأن (يسوع)، قبل أن يلفظ نفسه الأخير، عهد بأمه إلى تلميذه الحبيب (يوحنا) ذاته. ومن العقائد الكاثوليكية القول بصعود (العذراء) إلى السماء بعد الموت والدفن والقول بنظرية الحَبَل السرّي وهي تشير إلى أنها خلقت في احشاء أمها (آن) بدون أية خطيئة. ويؤمن الكاثوليك كذلك بأنها ستبقى عذراء إلى الأبد، وأن من الواجب الامتناع عن التأويل الحَرفي لوجود اخوة (يسوع).

(٦٩م) مرثا: اخت (العازر) في الانجيل، وهي قديسة.

هوامش ومراجع الكتاب

(١) حياة يسوع ـ الفصل ١٣

(٢) انظر البرهان الدامغ (وأنا لم ألخصه) في «الإنجيل الرابع» ص ١٤ ـ ١٩

(٣) انظر الشروح المعقدة التي جاء بها (لاكرانج) في «الرسول متى» ص ١٥٢ ـ ١٥٣

(٤) معجم اللاهوت ـ مادة الإيمان ج ٣٩٣

(٥) دولافوس: الإنجيل الرابع ص٢١ .

(٦) المصدر السابق ص٢١ .

(٧) (يسوع) والتقليد الإنجيلي: ص ١٣٥ ـ ١٤٤ وهو يطلق عبارة «الأخلاق الإنجيلية» في الفهرست على أخلاق (يسوع) الملع إليها.

(٨) الكتاب المتداول ص ٢١٩ ـ ٢٢١

(٩) المصدر السابق ص٢٢١ .

(١٠) المسيحية القديمة ص٥٠ .

(١١) المصدر السابق

(١٢) هرتزبرغ: تاريخ اليونان في ظل السيطرة الرومانية ـ ترجمة (بوشيه لوكلرك) Bouche j Leclercq باريز ١٨٨٨ (ج٢ ص ١٩٢ ، ١٨٩، ٢٠٦).

(١٣) برهيه: الأفكار الفلسفية لـ (فيلون) الاسكندري. باريز ١٩٢٥ ص٢٢٦ .

(١٤) انظر ص ٣٠٢ الهامش

(١٥) موريه: ملوك مصر وآلهتها (باريز ١٩١١) ص١٠٦

(١٦) لوازي: الأسرار ص ١٩٠ ومابعد

(١٨) كينيبر: الكتاب المتداول ص١١٤ ومابعد.

(١٩) روبان: (الفكر الاغريقي ـ (باريز ١٩٢٣) ص ٣٧٦ و«ابيكتيت»: الكتاب: ٥٢

(٢٠) نصوص مذكورة في كتاب (لوازي): الأسرار ص١٤٨ .

(٢١) المصدر السابق ص١٤٦

(٢٢) المصدر السابق ص١٤٨ (ابوله ١١/٢١).

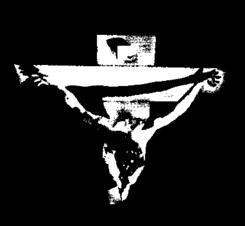
(٢٣) المصدر السابق ص١٥١ (ابوله ١١/٢٣).

(٢٤) المأدبة ٢١٢
(٢٥) فيدون ١١٣ ، ١١٤ (ف٦٢)
(٢٦) انظر (بولانجه): أورفه ص٣١ ، ٣٧ ، ٣٨ - ٤٠ ، ١٢٨ ، ١٣٤
(٢٧) بولانجة: الأورفية ص٣٩ ، ١٣٤
(٢٨) لوازي: الأسرار ص٤٨
(٢٩) المصدر السابق ص١٣١
(٣٠) كومون: نصوص وآثار مصورة تتصل بأسرار (ميثرا) (بروكسل ١٨٩٤) ج١ ص ٣١٠ - ٣١١
(٣١) Eclog ٤/٥/١٧
(٣٢) الأحاديث (٢٥ ، ٢٣) و٣ (٢٢ ، ٢١) ترجمة (كوردافو) Courdaveaux.
(٣٣) الأورفية ص٢٧ .
(٣٤) سفر الجامعة: (٢/١٧) و(٤/١).
(٣٥) فيدون ص ٦٦ ج
(٣٦) انظر دنيس: تاريخ النظريات والأفكار الأخلاقية في العصر القديم ج٢ ص١٧٥
(٣٧) التناقضات الرواقية ص٣٣: عادة أكل اللجم ج٢ ص٢
(٣٨) الكتاب ١١ - الأحاديث ١/١٨ ، ١١
(٣٩) الأحاديث ٢ (٦ ، ١٨) و ١ (١ ، ١٩) و ٣ (١٣ ، ١٧).
(٤٠) المصدر السابق ٢ (١٠ ، ٢٤ ومابعد).
(٤١) المصدر السابق ٤ (٥ ، ١٤) و ٣(٢٢ ، ٥٤).
(٤٢) المصدر السابق ١ (١٨٥ ، ٩ ، ١٠).
(٤٣) في الإحسان ٧ (٣١)
(٤٤) الخطب - طبعة لهنرت G. Lehnert (ليبزيغ ١٩٠٥) (١٤/١٧).
(٤٥) الأحاديث ٢ (٢٢ ، ١٠٠).
(٤٦) فيلوسترات: حياة أبولو ٤ (٣٨).
(٤٧) عاموس (٦/٤) و(٨/٤) ومابعد.
(٤٨) فيلوسترات: ٤ (٤٠) و٦ (٢).
(٤٩) الأحاديث ٣ (٢٢ ، ٤٧ ومابعد»
(٥٠) نقلاً عن دنيس ٢ ص ١٨١ (٨).
(٥١) جوزيف ٢ (٨ ، ٣).
(٥٢) فيلوسترات ٤ (٣)
(٥٣) ابيكتيت: الأحاديث ١ (٩٧ ، ٦ ، ٩).
(٥٤) انظر النصوص لدى (جوستر) Juster ١ (٤٨٩).

(٥٥) كومون: نصوص وآثار مصورة تتصل بأسرار (ميثرا) ١ (٣٠٨).
(٥٦) كرايو Graillot: عبادة (سيبيل) في رومه وفي الإمبراطورية الرومانية (باريز ١٩١٢ ص ٤٠٣ - ٤٠٤).
(٥٧) الكتاب (٧)
(٥٨) الأحاديث ٣ (٢٢ ، ٦٧ ومابعد).
(٥٩) الأحاديث ١ (٩ ، ١)
(٦٠) الأحاديث ٤ (٧ ، ٢٢ ومابعد)
(٦١) المصدر السابق ٣ (٢٢).
(٦٢) الكتاب ٢٩
(٦٣) لقد درستُ هذا التحول في الأخلاق المسيحية في بحث بعنوان: الانتحار والأخلاق وأنا أسمح لنفسي بإحالة القارئ عليه (باريز ١٩٢٢ ص ٣٤٨ ومابعد).
(٦٤) أعمال (٤٥/٢)
(٦٥) أعمال (٣٤/٤)

فهرست

اخلاق الانجيل



إن قوانين العلم لاتجيز لأي كان، وحتى انطلاقاً من أنبل رغبة أخلاقية المساس بمعنى نص من النصوص، بحيث يسلخ عن أي جملة أدنى قدر من معناها الجلي، ليجعلها ترضخ لمذهب مبيّت بإعطائها معان مختلفة عن معانيها المحددة والواضحة انحيازاً لذلك المذهب، بحيث يصبح العلم أمراً هامشياً تحت وطأة المواقف السلفية التي تمتلك من وجهة نظرها يقيناً أعلى من أي يقين.

ومهما بلغت تلك المحاولات من براعة لنفي التناقضات الموجودة في نص ما، فإن تلك المحاولات وتلك الطرق لايمكن أخذها بعين الاعتبار من وجهة النظر العلمية.

إلا ان الفكر الإنساني ما برح ناشطاً في إطاري العقل والنقل، والتساؤل عن لقائهما، بل عن افتراقهما وتنابذهما.

وفي هذا المجال يندرج هذا الكتاب الجاد إذ يقرن، مثلاً، المثالية المسيحية بمثالية الحكمة الرواقية.

وقد تعمق مؤلف الأخلاق المسيحية بتحليل أخلاق الأناجيل من الزاوية السوسيولوجية، أي العلمية، وهي لا تمس سحر الكتاب المقدس، بل تبرز حياته، وتعقده الفاتن .

التصميم الغرافيكي والمتابعة الفنية دار كنعان

دار كنعان للدراسات والنشر

دار الحصاد سورية - دمشق